مكتبة 930#

إيكا كورنياوان

الرجل النمرة

ترجمة أحمد شافعي

رواية





الرَّجُلُ النَّمِرَةَ



الرَّجُلُ النَّمِرَة
روايــــة
الطبعة الأولى: ٢٠٢٢
رقم الإيداع: 2019 / 14255
الترقيم الدولي: 1- 104-803-977-978
الغلاف: حاتم سليمان

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.
تليفون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+
بريد إلكتروني: info@kotobkhan.com
موقع إلكتروني: www.kotobkhan.com



إيكا كورنياوان

مكتبة | سُر مَن قرأ

الرَّجُلُ النَّمِرَة

رواية

#930

ترجمة

أحمد شافعي





فهرسة أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية
كورنياوان، إيكا
الرَّجُلُ النَّمِرَة : رواية/ تأليف : إيكا كورنياوان، ترجمة : أحمد شافعي . ـ
ط١. ـ القاهرة: الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠٢٢
٢٢٤ ص، ٢٠ سم
تدمك: ١–104– 803– 977 – 978
١ – روايـة
أـ العنوان
بـ شافعي، أحمد (مترجمًا)
رقم الإيداع: 14255
الطبعة الأولى ٢٠٢٢

عن ترجمة لوبوداليه سيمبيرنج إلى الإنجليزية

مقدمة



بندكت آندرسن[1]

أروع ما في تاريخ الأدب أنه عديم الغاية، لا ينساق وراء عربة التقدم. ويبدو أن أكثر الكُتاب أصالة هم أشبه ما يكونون بالشهب المفاجئة. فمَن ذا الذي كان ليتنبأ بظهور سوفوكليس، أو فرجيل، أو [الكاتبة اليابانية] السيدة موراساكي شيكيبو، أو ثربانتس، أو ملفيل، أو [الكاتب الصيني] لو شون Lu Hsün، أو شكسبير، أو بروست، أو جوجول، أو إبسن، أو ماركيز، أو جويس؟ هم بمعنى من المعاني أبناء عصورهم، وبمعنى آخر أبناء اللغات القومية التي ولدوا فيها ونشأوا في رحابها. ولكن أعدادًا يعجز عنها الحصر عاشت في زمان واحد وتكلّمت اللغات نفسها ولم تكتب شيئًا يبقى في الذاكرة. والطبقة والتعليم لا

☆ جميع هوامش الرواية إضافة من المترجم.

١ـ Benedict Anderson (١٩٣٦ـ٢٠١٥) أستاذ العلوم السياسية والمؤرخ الأيرلندي، من أشهر كتبه "الجماعات المتخيَّلة Immagined Communities" (ترجمه إلى العربية ثائر ديب)، وله اهتمام كبير بشرق آسيا، لا سيَّما إندونيسيا التي عاش فيها وكتب بعض أهم الكتابات عما شهدته من مذابح للشيوعيين، مفندًا فيها الرواية الرسمية؛ مما أفضى إلى طرده من هناك.

يفسران ظهورهم. ونادرًا ما يظهر في أسلافهم ونسلهم من يملك أيَّ مواهب أدبية ذات شأن.

ما من شك في أن إيكا كورنياوان هو أكثر كتاب الروايات والقصص القصيرة الإندونيسيين الأحياء أصالة، وهو أشد شهب إندونيسيا مباغتة وإدهاشًا. وُلد في الثامن والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٧٥ ، أي اليوم الذي أعلنت فيه مستعمرة تيمور الشرقية البرتغالية السابقة انفصالها عن لشبونة. وفي السابع من ديسمبر سنة ١٩٧٥ ، أي في ذكرى يوم بيرل هاربر، حضر الرئيس [الأمريكي] جيرالد فورد ومعه هنري كيسنجر إلى إندونيسيا ليباركا للطاغية سوهارتو بداية احتلاله الدموي (بالسلاح الأمريكي) لتيمور الشرقية. وإيكا يفخر بيوم ميلاده، لكونه ميلاد مقاومة عنيدة استمرت اثنتين وعشرين سنة إلى أن أرغم أبناء تيمور الشرقية جاكرتا على التنازل عن حكمها الاستعماري القاسي.

قضى أغلب السنوات العشر الأولى من حياته في رعاية جديه لأمّه في قرية ميلاده، وهي قرية صغيرة معزولة (لا تصل إليها طرق على الإطلاق) على ساحل المحيط الهندي الخطير في الطرف الجنوبي الشرقي من جاوة الغربية. كان الجدّان متعلمين، وإن خلا بيتهما البسيط من الكتب. وكان أول ما ربط إيكا الصغير بـ "الأدب" امرأتان من القرية ورجل خفيّ. كان يحلو لجدّته أن تروي الخرافات والحواديت وتاريخ القرية. وسيِّدة عجوز (هي أيضًا قريبة بعيدة) كانت تعيش وحيدة، وكانت حكّاءة أبرع بكثير. ففي مساء كلّ يوم تقريبًا، بعد الصلاة في

مسجد القرية، كانت تجمع أطفال القرية في سقيفة بيتها وتروي لهم ما لا نهاية له من الحكايات السحرية. أمّا الرجل الخفيُّ فكان حكّاءً في الإذاعة يعرف كيف يخلق من صوته أصواتًا مختلفة لشخصيّات عالم شاسع من أساطير جاوة الغربية، وهي منطقة أغلب أهلها من السونداني[٢] Sundanese (أمّا جاوة الوسطى والشرقية فأغلب أهلهما جاويون).

في عام ١٩٨٤، بُعث الصبي الصغير ليلحق بأبويه ويكمل تعليمه الأساسي في بلدة بَنجَندَران التجارية الصغيرة الواقعة على الحدود بين جاوة الوسطى والغربية، ويعيش فيها أخلاط من الناس يستعملون بصورة طبعية مزيجًا من العاميتين الجاوية والسندانية. لم يكن في البلدة متجر لبيع الكتب أو مكتبة تابعة للبلدية، لكن والد إيكا ـالذي كان يعمل خيّاطًا وصانع تيشيرتات للسائحين العابرينـ كان أديبًا على طريقته الخاصة. وكان في حياته خطّان يبدوان متناقضَين؛ فهو يؤمّ الصلوات ويُحفّظ صبية المسلمين أجزاءً من القرآن وإن لم يفهموا العربية، وهو أيضًا مدرّس لغة إنجليزية لبعض الوقت في مدرسة البلدة التي كان يرجع بكتب لأطفاله من مكتبتها الهزيلة. كان في شبابه قد درس في كليّة المعلمين وإن لم يكمل دراسته؛ ولعلّه لهذا السبب كان يؤلّف بالليل خطبًا للمسجد القريب، ويكتب مقالات دينية للعديد من المجلات الإسلامية (التي يقول إيكا إنه لم يقرأها قطّ!). لكن الأهم من كلّ ذلك الذي سبق هو اكتشاف إيكا لما كان يُعرف آنذاك بـ "حديقتي

٢ـ وهم جماعة عرقية يبلغ عددها قرابة أربعين مليونًا يعيشون في الجزء الغربي من جزيرة جاوة.

الكتب"، وإحداها في محطة الحافلات، والأخرى وراء فندق سياحي صغير على الساحل. في تَيْنِكَ الحديقتين كان باعة الكتب يبيعون أو يؤجِّرون روايات الرعب وقصص الإثارة المصوَّرة الإندونيسية، وكذلك روايات نيك كارتر[٣] الجاسوسية وروايات [الكاتبة البريطانية] باربرا كارتلاند الغرامية سيِّئة الترجمة. وبصفة دوريّة كان باعة الكتب يمرّون على درّاجاتهم بالبيت فيبيعون هذه المواد القرائية نفسها أو يؤجِّرونها. كلُّ ذلك كان حافزًا لإيكا ذي الإحدى عشرة سنة على الشروع في كتابة القصائد والقصص القصيرة، بل ومخطَّطات الروايات.

لا بدّ أنه كان طالبًا متفوقًا في مدرسة "بَنجَندَران" الثانوية؛ إذ قُبل وهو في قرابة السابعة عشرة من عمره في جامعة جدجاه مدى في جوجاكرتا عاصمة جمهورية إندونيسيا في زمن الثورة على المستعمرين الهولنديين في الفترة من ١٩٤٥ إلى ١٩٤٩. كان المجال الوحيد المتاح له هو كلية الفلسفة، برغم أنه لم يكن يهتم كثيرًا بموادّها. لكنَّه لدهشته عثر في مكتبة الكليّة الفوضوية على ترجمة إنجليزية لـ "نمو التراب" وهي إحدى روائع الكاتب النرويجي الحاصل على نوبل في الأدب كنوت هامسن. ولمّا كان قد أدمن التردُّد على سوق المستعمل القريب بحثًا عن الكتب القديمة، فقد عثر ثمَّة على الرائعة الأشهر لهامسن، وهي "جوع". والمثير في مكتبة جدجاه مدى العامة أنه عثر على قسم مخصَّص للدراسات الأمريكية تبرَّعت به السفارة الأمريكية وكان ضمن ما فيه ترجمات إنجليزية لروايات جارثيا ماركيز وثرفانتس وقصص بورخس

٣ـ Nick Carter بطل سلسلة روايات جاسوسية صدر منها ما لا يقل عن ٢٦٠ رواية.

القصيرة وكتب بعض عظماء الرُّوس: جوجول وتولستوي وتشيكوف (ولعل الاتحاد السوفيتي كان قد اختفى بحلول ذلك الوقت). وقد لا يكون غريبًا طبعًا أن يضم قسم الدراسات الأمريكية أعمالاً لفوكنر وهمنجواي ويدورا ويلتي Welty وشتاينبك وتوني موريسن، وربما التفاتة إلى سلمان رشدي من المملكة المتحدة. يقول إيكا إنّه في ذلك الوقت لم يقرأ غير القليل للغاية من الأدب الإندونيسي. ويرجّح أن يكون لهذا الأمر سببان: الأوّل أنه بوصفه "قرويًا" إقليميًا، مرَّ بصدمة ثقافية في مدينة جوجاكرتا الضخمة وجدجاه مدى التي كانت تقبل الطلبة من عموم الأرخبيل الإندونيسي الشاسع، فيتلاقى الكثير للغاية من المعتقدات الدينية والأعراق واللغات والعادات والمطامح. وفي قسم الدراسات الأمريكية من المكتبة كان يمكنه أن يترك وراءه صدمته الثقافية ويحلّق إلى كنز عالمي، ولم يكن كثير من الطلبة الإندونيسيين على دراية بالإنجليزية تتيح لهم أن يبزّوه في تحليقه. السبب الثاني يتمثّل في دكتاتورية سوهارتو القميئة (في الفترة من ١٩٦٦ إلى ١٩٩٨) التي بدأت بمذبحة مئات الآلاف ممّن وُصفوا بالشيوعيين وإقامة جولاجات للمعتقلين السياسيين في شتى أرجاء الأرخبيل وحظر توزيع الكتب من شتَّى الأنواع بوصفه عملاً يساريًا تخريبيًا. قضى براموديا آنانتا توير Pramoedya Ananta Toer، روائي إندونيسيا العظيم ومؤلف القصص القصيرة المذهلة والمقالات النقدية التي تستعصي على النسيان، أربعة عشر عامًا في سجن جزيرة بورو النائية بدون محاكمة. وبعد إطلاق

سراحه، بقي جميع أعماله محظورًا، ولا يزال حظر أعمال سوهارتو ساريًا رسميًا حتى اليوم، رغم أنه ميت عمليًا.

في تسعينيات القرن العشرين، كانت جدجاه مدى لم تزل جامعة ليبرالية عتيقة الطراز، بمعنى أنها لم تتحوّل بعد إلى مشروع تجاري، بمعنى أنها لم تتأمرك، أو بمعنى أنها لم تدخل التصنيف. كان بوسع الطلبة أن يبقوا فيها لسنين بدون طردهم، ولم يكن طلبة الفرق المختلفة مربوطين ربطًا محكمًا بقلمة المناهج. بقي إيكا طالبًا حتى عام ١٩٩٨، بينما بدأت أولى قصصه القصيرة تُنشر في "جرائد يوم الأحد" في جاكرتا.

ومع ذلك، بدأ إيكا في عام ١٩٩٧ كتابة أطروحته "الفلسفية" عن براموديا. لماذا اتخذ ذلك القرار؟ في سنة ١٩٩٦، بدأت الجرائد تنبّه قُرّاءها إلى ظهور حزب الشعب الديمقراطي، وهو حزب ماركسي شبه سريّ، جذب إليه طلبة الجامعة النشطاء المتلهفين إلى العمل على إسقاط سوهارتو. يروي إيكا أنّه كان على مقربة من طلبة الحزب في الجامعة برغم أنّه لم يكن مهتمًّا بالانضمام إلى أي حزب أو تنظيم سياسي. كان من المهام الموكولة إلى الحزب في جوجاكرتا أن يوزّعوا سرًّا رباعية بورو العملاقة التي كتبها براموديا في المعتقل، عن نشأة وتطور القومية والاشتراكية في إندونيسيا خلال الربع الأوّل من القرن العشرين. حصل إيكا على نسخ من أصدقائه في الحزب فابتهج بها أعظم الابتهاج. في يوليو من عام ١٩٩٧ وقعت الكارثة المالية الآسيوية الكبرى في تايلاند وانتقلت إلى إندونيسيا في سبتمبر. وفي غضون أسابيع قليلة، انهارت الروبية من ٢٥٠٠ مقابل الدولار الأمريكي إلى ١٧٠٠٠. أفلس كثير من

البنوك والأعمال، وتزايدت البطالة على نحو مريع، وتحوّل الاقتصاد تقريبًا إلى خراب. أعقبت ذلك مظاهرات حاشدة، ومنها ما نظّمه الحزب، للمطالبة بإنهاء الدكتاتورية. حكى لي إيكا أنّه انضم إلى جميع هذه المظاهرات في جوجاكرتا، فكانت تلك أولى تجاربه السياسية. حاول النظام أن يدافع عن نفسه بإجراءات قمعية قاسية تعرَّض خلالها كثير من أبرز النشطاء للخطف والتعذيب والاختفاء في بعض الأحيان. "قدَّمت مسوَّدة أطروحتي عن براموديا لأساتذتي المرعوبين في مطلع ١٩٩٨، فرفضوها طبعًا. لكن سرعان ما جاءت مظاهرات مايو في جاكرتا فأرغمت سوهارتو على الاستقالة، ونظامه على الانهيار، وأعدت تقديم مسوَّدة أطروحتي، فقُبلت بسهولة في هذه المرَّة بالطبع"، وأخيرًا عثر بعض الأصدقاء المحترمين من الحزب على ناشر من النشطاء، مستعد لنشر أطروحته تحت عنوان "براموديا آنانتا توير وأدب الواقعية الاشتراكية".

بعد وقت كبير، حينما كتب إيكا ردًّا قصيرًا على سؤال عن الكتّاب الإندونيسيين الذين يحبّهم أكثر ممّن عداهم، قال إنّ لديه ثلاث شخصيات مأساوية: الأوّل هو أمير حمزة، وهو أجمل شعراء إندونيسيا، أرستقراطي مناصر للاستقلال في شمالي سومطرة، وقد أعدمته في ثورة ١٩٤٥ـ١٩٤٩ عصابات متخفّية وسط الثوار. والثاني هو براموديا، والثالث ويدجي تُوكول، وهو شاعر جاوي راديكالي جَسور، اختفى ربما على أيدي القتلة المتمرسين التابعين للواء برابواو Lt. General Prabowo صهر سوهارتو في وقت من الأوقات، وصاحب

الطموحات الجنونية لرئاسة البلد (ومن حسن الحظ أنه خسر الانتخابات الوطنية سنة ٢٠١٤ أمام دجوكو ويدودو Djoko Widodo محافظ جاكرتا المحبوب، وأول مرشّح رئاسي نظيف الصفحة طاهر اليد من قسوة وفساد نظام سوهارتو).

في إندونيسيا، مثلما في كل مكان آخر في العالم، تُركت الدراسة الجادّة للكتّاب وأعمالهم، للمكافحين في أقسام تاريخ الأدب ونقده؛ بفضل الأنانية المعهودة في كتّاب الأعمال الإبداعية أو للشُلَل التي يرتبطون بها. إيكا الشاب هو استثناء هذه القاعدة؛ فكتابه ينطوي على إعجاب ببراموديا وحماس لشجاعته السياسية وابتكاراته في الأدب الإندونيسي، وإن ذهب في كتابه هذا إلى أن الواقعية الاشتراكية ماضٍ أدبي غابر. ومن المؤسف أنّه بنى تحليله بالكامل تقريبًا على رباعية بورو؛ فما لم يصل إليه في ذلك الوقت هو مجموعات قصص براموديا القصيرة العظيمة التي كتبها في خمسينيات القرن العشرين، وكانت بعيدة كل البعد عن الواقعية الاشتراكية ومليئة بالواقعية السحرية قبل ظهور الواقعية السحرية.

في عام ٢٠٠٠، نشر إيكا أول مجموعة قصص قصيرة، معنونًا إيّاها بوقاحة بـ "جرافيتي في المرحاض"، وبعدها بسنتين نشر رواية "الجمال جرح" الضخمة. وبهما، برغم اختلافاتهما من جوانب كثيرة، أصبح على الفور نجمًا أدبيًا في إندونيسيا. فمجموعته القصصية أظهرت براعته في الكوميديا السوداء، والسخرية من جيله (بدون استثناء لقادة الحزب الشعبي الديمقراطي الذين تحوّلوا بسرعة إلى وصوليين متعطشين

إلى السلطة)، وبراعته التقنية في المزج بين حكايات طفولته القروية الشفوية والثقافة البرجوازية في المدن الكبرى في مرحلة ما بعد سوهارتو. على الطرف المقابل، تمثل "الجمال جرح" رواية شبه تاريخية تمتد من أواخر الحقبة الاستعمارية، مرورًا بالاحتلال الياباني، وثورة ١٩٤٥-١٩٤٩، والثورة الإسلامية المتطرفة الطويلة في الخمسينيات، وصعود الحزب الشيوعي الإندونيسي ثمّ سقوطه الدموي، وبداية دكتاتورية سوهارتو. ولكن موقع الأحداث ليس وطنيًا ولا إقليميًا، إنّما هو بلدة صغيرة مجهولة الاسم[4] على المحيط الهندي. ما من شيء موثّق، وكلّ شيء مغمور في الخرافات السحرية سواء ما كان منها تراثيًا أم حديث التأليف، فضلاً عن امتزاج ذلك كلّه بالتاريخ الشفوي.

قال لي إيكا مرّة إن "الجمال جرح" وُلدت من ثلاث روايات أسبق منها وقد رأى أن يمزجها. برغم مصاعب كثيرة. في سِفر كبير واحد. قد يتخيّل المرء واعيًا أو غير واعٍ أنها نشأت من نقده لواقعية براموديا الاشتراكية ولعلها تتحدّى رباعية الشيخ الشهيرة المترجمة إلى الكثير من اللغات.

ثمّ جاءت في ٢٠٠٤ رواية "ليلاكي هاريماو Lelaki Harimau"، المترجمة هنا إلى Man Tiger بما في هذه الترجمة من قدر هيّن من الغرابة. ومثلما الحال في "الجمال جرح"، تجري الأحداث هنا في بلدة لا تحمل اسما على المحيط الهندي والريف المحيط بها. ولكن الرواية هذه المرّة قصيرة

٤- اسمها هاليموندا.

نسبيًا، ذات بناء أنيق محكم. تركّز القصة بصفة عامة على مأساة أسرتين مترابطتين ومعذّبتين وعلى امتداد جيلين. بطل الرواية مارجيو شاب عادي شبه مديني شبه قروي، تسيطر عليه برغم ذلك نمرة بيضاء خرافية، ورثها عن جدّه لأبيه الذي كان يكنّ له حبًا عظيمًا. في كثير من أرجاء إندونيسيا حواديت قديمة عن نمور مسحورة تحمي القرى والأسر الطيبة، ولكنها جميعًا نمور من الذكور، وهي جميعًا نمور خارجية تعيش في الأدغال. استعار مارجيو من هذه القصص القديمة، لكنه جعل النمر عنده نمرة، وجعلها بداخل مارجيو، وجعله لا يسيطر عليها إلا في بعض الأحيان. ولا أعتزم هنا أن أصف محتوى "الرجل النَمِرَة"؛ لأترك للقارئ ميزة الإثارة.

لكن اسمحوا لي أن أعرض بعض الملاحظات على أهم سمات أسلوب إيكا الناشئ الذي يميّزه عن أي روائي إندونيسي حي. أولى هذه السمات جمال نثره الفادح واتساع معجمه اللغوي اتساعًا هائلاً بما فيه من اشتقاقات معاصرة وكثير من الكلمات الغامضة التي لم تزل مستعملة في القرى النائية، وإن غابت عن المعاجم الحالية الخاضعة لمركزية المدن. والثانية هي هيمنة صوت الحكّاء الذي نادرًا ما يجعل الشخصيّات تتكلّم، فإن تكلّمت لا يكون ذلك إلا لجمل معدودات. والحكّاء مجهول تمامًا، فلا يعرف القارئ من يكون وكم يبلغ من العمر، ولا يعرف له مهنة أو مكانًا أو حتى جنسًا، تمامًا شأن الحكّائين الشفاهيين في الماضي. والثالثة انضباطه المتنامي في اللجوء إلى الخرافة. فالسحريّ في "الجمال جرح" موجود في كلّ مكان، مثلما هو موجود وشائع في مسرح

العرائس المأخوذ عن نسخ محلية من ملحمتي المهابهرتا Mahabharata والرامايانا Ramayana. في هذا المسرح ثَمّة دائمًا حديقة حيوانات من الآلهة والإلهات والمحاربين الأرستقراطيين والشياطين والملوك والمرَدة والمهرِّجين والأشباح والأميرات ومن إليهم، وكلّهم يظهرون في أشكال أيقونية ثابتة؛ فعلى سبيل المثال، دائمًا ما تكون الأميرات والملكات فائقات الجمال، بينما المهرجات بشعات جسمانيًا، ما من نساء عاديات فاتنات. في روايتي إيكا السابقتين، كانت النساء دائمًا إما "صاحبات جمال لا يمكن تصديقه" أو قبيحات قبحًا بشعًا. أمّا في "الرجل النَّمِرَة" فثمّة كائن خرافي واحد، والمجال متاح للنساء العاديات اللاتي تتطوّر شخصياتهن مع تقدُّم القصة. والسمة الرابعة تتمثل في تحسُّن فهمه للتسلسل الزمني؛ ففي "الرجل النَّمِرَة"، تتسم الفصول بتحوّلات حسنة التخطيط للزمن، بدون الرجوع بالزمن عبر فلاشباك؛ أولى صفحات الرواية تكاد تتزامن مع صفحاتها الأخيرة. في "الجمال جرح" ثَمّة عدد ضخم من التحوُّلات الزمنيّة، ولكنّها تبدو في الغالب اعتباطية ومربكة بصورة لا داعي لها. وأخيرًا الجنس؛ في الرواية السابقة وفرة من الجنس، ولكن المشاهد مسطّحة بسبب الإفراط في الخرافية على غرار مسرح خيال الظل. الجنس في "الرجل النَّمِرَة" قاسٍ في الغالب ومخاتل، والحبكة المأساوية تقوم على هذه الحقيقة. أمّا قرار إيكا بتأنيث النمور الخرافية البيضاء ووضعها بداخل الذكور من الرجال وحدهم، فهو ابتكار يفتح المجال أمام قراءات مختلفة للرواية التي باتت الآن ثلاثية الأبعاد بدلاً من أن تكون ذات بعدين على غرار القصص التراثية

العتيقة. والغاية من هذه الآراء في أسلوب إيكا الناضج هي التأكيد على جوانب أصالته العديدة، ومزجه السلس بين القديم والجديد. ولا عجب أن يكون اثنان من كتّابه المفضلين هما جوجول وملفيل.



في مساء اليوم الذي قتل مارجيو فيه أنور السادات، كان الشيخ جاهرو منهمكًا في العمل في بركته السمكية هائمًا بها. حلّق عبق البحر عابرًا نخيل جوز الهند، وعلا زئير البحر صاخبًا، بينما أخذت ريح رقيقة تعبث بالطحالب والشجر المرجاني وآكام اللاتنانا المزهرة. كانت البركة تقع في وسط مزرعة كاكاو، أجدبت أشجارها من فرط الإهمال، ونحلت ثمراتها وذويت حتى باتت الواحدة منها كبؤبؤ عين طائر. ولم يبقَ من نفع لورقاتها إلا في مصانع التمبه[٥] التي كانت تجمعها كلَّ ليلة. وفي المزرعة جدول يمتلئ بسمك الثعابين الشنة والأنقليس، ويفيض فيزداد المستنقع من حوله اتساعًا. لم يمضِ وقت طويل على إعلان إفلاس المزرعة حتى جاء الناس يضعون علامات حدودية، ويطهّرون الماء من الأعشاب والطحالب، ويزرعون المستنقع بالأرز. ومعهم جاء الشيخ جاهرو، لكنه لم يزرع الأرز إلا لموسم واحد، فالأرز يستوجب قدرًا كبيرًا من العناية والوقت. ولم يكن جاهرو قد سمع بأرز أوريبون . وهو أرز سريع النمو

٥ـ التمبه والتيمبي tempeh منتج غذائي يُصنع بتخمير الصويا وإضافات أخرى في إندونيسيا.

قصير الموسم. فزرع الفول السوداني. بدلاً من الأرز. لكونه أكثر مرونة وأقلّ إزعاجًا. وعند الحصاد أنتجت حقوله جوالين من قرون الفول السوداني ولم يَدْرِ كيف له أن يأكل كلّ هذا الكمّ. فما كان منه إلا أن أحال نصيبه من أرض المستنقع إلى بركة سمك، رمى فيها بعضًا من شتلة سمك الموجائير والنيلا، وصار خير ما يقضي فيه وقته هو إطعام السمك قبل غروب الشمس، ومراقبته وهو يتناول الطعام أسفل سطح الماء.

كان ينثر النخالة التي يأتي بها من طاحونة الأرز ويرمي نبات المنيهوت وورق شجر البابايا مراقبًا سمكاته وهي تتواثب على ذلك كلّه في نشاط، حينما سمع هدير درّاجة نارية بعيدة. بدا الصوت مألوفًا له تمامًا فلم يُبالِ بالالتفات إليه. بدا الصوت مألوفًا أكثر من طبلة المسجد التي تدق خمس مرات في اليوم. ذلك كان صوت درّاجة الرائد سِدْرَه النارية، درّاجته الهوندا ٧٠ الحمراء اللامعة إذ تحمله إلى المسجد، أو تمضي بزوجته إلى السوق، ما لم تكن -كدأبها في أحيان أخرى- تنساب في الحيِّ عند العصر، دائرة في أركانه الهادئة كلّما استعصى على الرائد سِدْرَه أن يجد ما يفعله غير ذلك.

كان قد تجاوز الثمانين ـ أي الرائد سِدْرَه ـ ولم يزل صحته جيدة؛ فبرغم تقاعده من الجيش قبل سنين كثيرة، ظلّ في "يوم الاستقلال" من كلّ عام يقف بين زملائه من قدامى المحاربين. وكان يقال إنّ الحكومة منحته، في مقابر الأبطال، قطعة أرض مكافأة له على خدمته، فصار يقول عن ذلك إنّه دعوة إلى الإسراع بالموت. دار بدرّاجته الناريّة حتى أوقفها عند سدّ البركة، وبعدما أوقف المحرّك، مسح فمه من تحت شاربه

الأسود، وهو إن لم يمسح فمه على هذا النحو لا يشعر أنّه نفسه. لم يرفع جاهرو رأسه إلى أن وقف الرائد سِدْرَه بجواره. تكلّما عن العاصفة الممطرة التي هبّت في الليلة السابقة، ومن حسن الحظ أنّها لم تهب في أثناء عرض فيلم شركة الأدوية العشبية الذي كان جاريًا في ملعب كرة القدم، ولو أنّها بلا شكٌ قد فطرت قلب كلِّ صاحب بركة سمك.

كانت عاصفة مطرية مماثلة قد هبّت قبل شهور، ودامت طوال أسبوع كامل؛ فارتفع الجدول الذي يجري في حالته الطبيعية وحلاً أكثر ممّا يجري ماءً بمقدار ستّة أقدام مكتسحًا أعشاش الإوزّ في طريقه، مخفيًا معالم البركة المحيطة به. وإذا بالسمك الذي كان ينبغي أن يملأ بطون أهل القرية وأبنائهم قد اختفى كلُّه تقريبًا. ولمّا انحسرت المياه، لم يبقَ وراءها إلا الحلازين وجذور شجر الموز. نظر جاهرو إلى الرائد سِدْرَه وقال إنّه جهّز شباكًا يغطّي بها بِرَكه ويحمي سمكه في المستقبل.

في تلك اللحظة، نادى على جاهرو رجل هرم يركب درّاجة وقد أحنى قامته متفاديًا غصون الكاكاو من فوقه. ذلك كان ما سوما الذي يعلّم الصغار القرآن في المسجد وقد قفز في اللحظة الحاسمة عن درّاجته فلم تصطدم بسدّ البركة. ولمّا كانت يداه لم تزالا تقبضان على المقود فقد ارتفعت الدرّاجة مثلما يرفع الحصان قائمتيه لحظة أن يُشَدّ عنانه. قال لاهثًا: "إنّ مارجيو قتل أنور السادات"، قالها كمَن يحثّ جاهرو أن يسارع لإمامة صلاة الجنازة، وكانت تلك من بين واجباته منذ سنين.

لوهلة تبادلوا نظرات ارتباك وكأنَّ ما استمعوا إليه لا يعدو نكتة لم يفهموها بعد. قال الرائد سِدْرَه: "والله لقد رأيته عصر اليوم يحمل تلك النفاية المتخلفة من أيام الحرب، سيف ساموراي قديمًا صدئًا، ذلك الولد الملعون. أرجو ألا يكون قد استردَّه بعدما صادرته منه، ذلك الشيء اللعين".

قال ما سوما: "لم يستعمله. الولد عضَّه في شريان رقبته".

لم يكن أحد قد سمع بمثل ذلك من قبل. فعلى مدار السنوات العشر السابقة وقعت اثنتا عشرة جريمة قتل في المدينة، كلّها بالمناجل أو السيوف. لم يكن سبب الوفاة قطُّ بندقية أو خنجر كريس ذا النصل الملتوي، وقطعًا لم يكن العضّ. كان الناس يعتدون على بعضهم بعضا بالأسنان، لا سيَّما النساء حينما يتشاجرن، لكنَّهم لم يكونوا يموتون بأنياب بعضهم بعضا. وزاد من هول النبأ هُويّتا القاتل والقتيل. كان الرجال الثلاثة يعرفون المراهق مارجيو والشيخ أنور السادات جيّدًا. وما كان ليخطر لأحد، أيِّ أحد، أن يرد خبر أحدهما في واقعة مأساوية كتلك الواقعة، مهما تكن لهفة مارجيو على قتل شخص، ومهما تكن وضاعة الرجل المعروف بأنور السادات.

مضت لحظات قليلة وهم يتأمَّلون، كمن جرفتهم أفكار الدم المنتن إذ يندفع من رقبة مخروقة، والصبي الذاهل المذعور الفزع من طيش ما فعله، وقد كست الحمرة فمه وأسنانه فكأنّه خطم كلب أبَاك أمام فريسته الصباحية. تراءت لهم تلك الصور فلم يملكوا أن يصدّقوها،

حتى نسي الشيخ جاهرو -على ورعه- أن يتمتم بـ "إنّا لله"، في حين أخذ سدره يتفوه بكلمات مبهمة ألهته عن مسح فمه المفغور. ولمّا ضجر ما سوما من الوقوف هناك أدار درّاجته، وأشار إليهما بأن يسارعا، فانطلقوا جميعًا، وقد تملّكهم الذعر كأنّما لم تقع الجريمة بعد وهم في طريقهم لمنع وقوعها.

كان صحيحًا أن سدره لاحظ -وهو راجع من المسجد إلى البيت ولم يزل مرتديًا عباءته- أنّ الصبي خارج من كوخ الحراسة ذي الحارس اليقظ حاملاً سيف ساموراي. الآن صار الجميع يتكلّمون عن احتفاظه بذلك السيف معتبرين إيّاه دليلاً على إضماره طويلاً نيّة القتل. كان كوخ الحراسة يقع في منتصف القرية، في مواجهة مصنع طوب ضخم متوقّف عن الإنتاج. تدلّى السيف من يد الصبي وهو يمشي ثقيل الخطى تاركًا على الأرض ندبة من ذؤابته. ثمّ إنّه في لحظة أخرى جلس على أريكة ومضى يحرّك السيف ضاربًا الطبلة الخشبية المشقوقة المستعملة لتنبيه الناس. ورأى ذلك كثيرٌ من الناس فلم يُولوه اهتمامًا؛ إذ كان السيف بادي البلى واضح الصدأ، لا يملك إلحاق الأذى ولو بأشدّ الدجاجات هزالاً وبؤسًا.

كانت عقود قد مضت على الحرب، فلم يبقَ من نفع لسيوف الساموراي الكثيرة التي اغتُنمت من اليابانيين إلا الزينة أو التبرّك، بل إنّ أكثرها تعرّض للإهمال حتى أتى عليها الهواء المالح مثلما قال سدره. ولعل مارجيو قد عثر على ذلك السيف مُلقى حيثما تُلقى النفايات أو مدسوسًا في موضعٍ ما من مصنع الطوب. رآه سدره إذن، ولم يفُتْه أنّه

مهما تدهور وتلف فهو سيف، ومع ذلك لم يخالجه شكٌّ حقًّا في أنّ الصبي يعتزم أن يُنهي به حياة أنور السادات. فلم يكن من دلائل على أنّ بين الاثنين خصومة، أو تلك كانت غاية ما عرفه جيرانهما.

هكذا لم يطلب السيف من مارجيو إلا خشية أن يسكر الصبي من عرق الأرز الدبق الأبيض فيمضي باحثًا عن أسباب الشجار والمتاعب. وكان يحلو لأمثاله من الصبية أن يسكروا، فيكون سكرهم سببًا في ما لا أوَّل له ولا آخر من المشكلات التافهة. ما كان بوسعه بذلك السيف البالي أن يقتل أحدًا، ولكنّ السكر كان يمكن أن يدفعه إلى ضرب كلب أحد الجيران، فقد يردُّ الجار حينئذ بصخرة يرميه بها، وتخرج الأمور عن السيطرة. فضلاً عن أنّه في الليلة الأخيرة من تصوير فيلم شركة الأدوية العشبية في ملعب الكرة، كان حشد قد تجمهر، وذلك يهدِّد دائمًا بانطلاق شيطان القتال من إساره، وهو شيطان كامن دومًا في أنفس الصبية. وقد يمتدُّ العنف إلى اليوم التالي، ولأيّام بعده، كما يحدث في أغلب الحالات. ومهما يكن الأمر، كانت لدى سدره أسباب وجيهة للقلق من سيف بلا غمد يجول به صبيٌّ على قارعة الطريق، مهما بدا السيف منزوع القدرة على الإيذاء.

قال مارجيو عازفًا عن التخلي عن لعبته: "لماذا؟ انظر إليه، إنه حديدة قديمة بائسة لا نفع فيها".

قال سدره: "لأنك قد تقتل به امرءًا إن شئت".

"وتلك خطّتي".

برغم أنَّ الصبي قال بلا لبس إنَّه يعتزم ارتكاب جريمة قتل، لم يُولِ سدره قوله اهتمامًا، وأخذ يلاطف الصبي، ثُمَّ هدَّده باقتياده إلى المقرِّ العسكري؛ فأمكنه حينذاك أن يأخذ السيف، ويرجع به إلى البيت فيرميه أعلى عشّ الكلاب وراء البيت.

وسرعان ما نسي أمر السيف الصدئ، ولم يرَ بادرة على كارثة قريبة؛ لعلَّ تقدُّمه في العمر هو الذي مال به إلى السكينة. وها هو الآن يستشعر شيئًا من الأسف لمصادرته السيف عديم النفع، فلو كان ذلك السلاح التافه قد بقي في يد مارجيو، فربَّما كان أنور السادات قد بقي حيًّا إلى الآن؛ فلعلَّه كان ليضربه به مرَّات ومرَّات، فلا يترك في جسمه إلا رضوضًا وعظامًا مكسورة. وارتجف بدن الرائد لَمَّا تخيَّل الصبي وقد عانق أنور السادات حتمًا لكي يعضَّه في رقبته.

في عصر ذلك اليوم طلب من الصبية أن يروِّحوا عن أنفسهم، ويلاحقوا النساء إن كان عليهم أن يلاحقوهنّ، وأن يحرص كلٌّ منهم على أن يكون له مَن يمرح بصحبته في تلك الإجازة الأسبوعية، على أن يصطحبهم في اليوم التالي كدأبه لصيد الخنازير. وكانوا في موسم الصيد يُظهرون التعقُّل، فلا يسكرون في ليالي السبت، وإلا فإنهم يُحرمون من تلقي الدعوة، أو يتردَّون إلى ما هو أسوأ من ذلك فينتهون وقد حاصرتهم أنياب الخنازير. وكان من شأنهم أن يذهبوا فرقًا إلى الساحل، ساحبين معهم النسوة البريات، أو ملقين التحيَّات على السيدات المصونات حاملات أكياس البرتقال في أيديهن والابتسامات على شفاههن، ويرجعون إلى البيوت قبل العاشرة غارقين في العرق والوداعة

بعدما أجهدتهم الخنازير فيخلدون إلى النوم العميق إلى أن يوقظهم أذان صلاة الفجر. صبَّ الرائد سِدْرَه اللعنات على مارجيو وهو يفكّر فيه وكيف أنّه بدلاً من أن يستريح استعدادًا للذهاب إلى صيد الخنازير، ذهب إلى بيت الخنزير أنور السادات وقتله.

صار صيد الخنازير لهم هواية منذ سنين كثيرة، منذ أن كان سدره لا يزال الحاكم العسكري في البلدة. وكان أنور السادات نفسه يبدي حماسًا كبيرًا كلّما انتهى موسم الحصاد، وانفكّ قيد الناس إلى الأرض فتركوها إلى حين. ومع أنّه لم يرفع قط رمحًا ولا جرى صاعدًا التلّ أو نازلاً إيّاه، فقد حرص دومًا على أن يقدّم للصيّادين وجبات معلّبة من الأرز والبيض المقلي، وعلى أن يوفّر لهم شاحنة تقلّهم حتى طرف الغابة. وكانوا ينعمون بتلك الرياضة ثلاث مرّات في السنة، في أيّام الأحد الموسمية غير العاصفة، وفيما بين الصيد والصيد كانوا يروّضون كلاب الأياك ويدرّبونها على ملاحقة طرائدهم.

في فرقة الصيادين التي كان يقودها سدره حتى وقت قريب، كان مارجيو هو البطل، فعلى ظهره ندبة من ناب خنزير، وجميع أصدقائه يعلمون كم من خنزير استسلم أمام تهديد رمحه إذ يهزّه بيده، قبل أن يُسحب سحبًا إلى الشرك فيسكت فيه حيًّا. لم يكن لهم اهتمام بما يموت من الخنازير، فحتى حينما كان يواجههم خنزير يزأر، كانوا يحجمون عن قتله؛ فغاية أمرهم معه أن يصيبوه إصابة هيّنة ثمّ يُرغموه على المضيّ إلى الشَّرَك. ولم تكن غايتهم من صيد الخنازير حيّة إلا أن يرموها بعد ذلك في معركة مع كلاب الأياك في محفل عام يقام في نهاية موسم الصيد.

وفي أثناء تلك العمليات الاستراتيجية لصيد تلك البهائم الغبية، بات مارجيو يُعرف بالمرافق؛ لما له من خطى قوية ورمح لا يعرف الرحمة. ولم يكن الكثيرون ليتجاسروا على النهوض بذلك الدور، فيجرون بموازاة الخنزير، مرافقين إياه، ضابطين إيقاعهم على إيقاعه، حتى صارت تلك من مآثر مارجيو التي أكسبته إعجاب أصحابه.

كان سدره قد اغتمَّ قبل أسابيع قليلة لّما علم أنّ مارجيو اختفى، وأنه ما من أحد يعرف إلى أين مضى. قصد بعضُ أصحابه الساحل يبحثون عنه، وكان كثيرًا ما يختفي هناك يرمي الشباك أو يشارك الصيّادين صيد سمك اللادغ، فلم يجدوا أنّ أحدًا هنالك رآه. وكان سيرك قد ضرب خيامه على مدار الأسبوعين السابقين بالقرب من ملعب كرة القدم، فرجَّح الجميع في نهاية المطاف أن يكون مارجيو قد انضمَّ إلى العارضين في انتقالهم من بلدة إلى بلدة. وتلك الفكرة أثارت غضبًا عارمًا في نفس سدره الذي كان مستعدًّا هو وكلابه الأياك الضارية، ولم يكن يمكن الاستغناء عن مارجيو كمرافق في الفريق؛ خاصة وأنّ الصيد الأول قد انتهى في الأسبوع السابق نهاية محبطة؛ إذ لم يقنصوا غير خنزيرين اثنين، وبسبب ذكاء الأياك. وفي اليوم نفسه سمعوا أنّ والد مارجيو مات.

كان اسمه قومار بن سايووِب، ووفاته هي التي ردَّت ابنه المفقود إلى البيت. لم يسعد برجوعه أحد سعادة سدره الذي انفطر قلبه بسبب فشل الصيد. ومع ذلك لم يجرؤ سدره على دعوته إلى الرجوع إلى الأدغال في يوم الأحد التالي احترامًا لحداده. ولّما وثب الصيادون من

الشاحنة وليس في قفصهم غير خنزيرين يعويان، وعشرات الكلاب المقيَّدة إلى بعضها البعض بالأرسان الجلدية، ظهر أمامهم مارجيو، ملوِّحًا لهم، متبخترًا، برغم أن جثّة أبيه لم تُوارَ التراب بعد.

ولم يمضِ وقت طويل على الجنازة حتى جاء مارجيو إلى بيت سدره، ربَّت على الكلاب في الفناء الخلفي في محبَّة، وأقعى وسطها يدلّلها واحدًا تلو واحد، كاحتًا الشمع من آذانها، تاركًا إيَّاها تعضُّ أطراف سرواله وشبشبه، ولم يَبْدُ على وجهه أثر للحزن، بل ارتسمت على وجهه سعادة غريبة، كمَن فاز بِرهانٍ لم يكن يتوقع الفوز به.

كان الرائد سِدْرَه يعرف من قبل أنَّ الصبي ليس على وفاق مع أبيه، بل وكان يشك أنّه يريد موته. لقد عرف تلك الأسرة منذ مجيئها إلى القرية، ولم يكن مارجيو إلا طفلاً سائل المخاط يحمل كيسًا من الكريات الزجاجية يغري به الأولاد أن يلعبوا معه، وكان سدره يعرف الأبَ أيضًا، ورآه مرارًا يقسو على الولد لأوهى الأسباب. وجال في نفس سدره أن الأب الآن قد رحل فلم يملك الولد الساذج أن يداري فرحته، ولمّا رآه مارجيو يقترب لم يتردَّد في سؤاله إن كان الأسبوع التالي سوف يشهد رحلة صيد، قال إنَّه يرغب في الانضمام إليها وإن لزم أن يأتي بغدائه معه ويتخلّى عن موقعه كمرافق.

ولكنَّ سدره أعاده بالطبع إلى موقعه.

والآن بات واضحًا تمامًا أنه لن يحضر في يوم الأحد التالي ليرافق الخنازير؛ يا له من ولد حقير! هكذا فكَّر سدره. وقبل ذلك، حينما كان

يحمل السيف راجعًا إلى البيت، جاعلاً إيَّاه على كتفيه بينما ساقاه ملتفتان بعباءته، وقد شعر وكأنَّه يعيش عصر حروب الخلفاء، لم يخطر له قطُّ أن ينضمَّ مارجيو إلى قتال إن نشب قتال. كان الصبية كثيري القتال، في سكرهم وإفاقتهم، توّاقين دائمًا إلى تبادل اللكمات لأوهى الاستفزازات؛ كأن تقع مصادمة غير مقصودة في عرض موسيقي، أو يعوق رأسٌ الرؤية في سينما، أو لمرأى فتاة تعجبهم وهي تسير بصحبة رجل آخر. أولئك صبية لم يعيشوا إلا في عهد سلام، منذ أن تحوّلت الحرب في هذه الحقبة من تاريخ جمهوريتهم إلى شأن من شؤون الجنود دون سواهم، فمالت بهم تلك الحياة إلى الطيش؛ لذلك لم يكن شيء يشغل سدره في الفترة التي تولّى فيها قيادة جنود البلدة مثلما شغله منع تلك المشاجرات. ولكنَّ مارجيو، في حدود علمه، لم يكن قط ممّن يتورَّطون في ذلك العنف برغم أنَّ الجميع كانوا على علم بمدى ما أوتي من قوة.

كان ولدًا لا يحلو له البقاء في البيت، لكنّه مهذَّب، حَسَن السلوك. ولم يكن بالغباء الذي يجعله يهدر وقته في المشاجزات، بل كان يقضي أيّامه يعمل في هذه الوظيفة العابرة أو تلك، ثمَّ ينفق ما يجنيه من مال على السجائر والبيرة. وكان متقلّب المزاج، لكنّه عذب دائمًا. وكان الجميع يعلمون أنّه يكره أباه، لكنَّه ـوإن يكن بوسعه أن يجهز عليهـ لم يحاول قطُّ أن يفعل ذلك؛ كان بعيدًا كلَّ البعد عن المشكلات. فلمّا سمع سدره أنَّ مارجيو قتل رجلاً لم يصدِّق أذنيه.

كان يقينه التام بمسالمة الولد قد أنساه بسرعة أنَّ مارجيو قال إنَّه يريد قتل شخص. ولمّا اقترب حلول المساء، وبعدما أطعم الكلاب

بأحشاء الدجاج المقليّة التي جاء بها من الجزر، خرج بالهوندا ٧٠. كان قد اشترى تلك الدرّاجة النارية قبل سنين من قائد قسم الشرطة ولم يستخرج لها رخصة أو لوحة معدنية ولكن من حسن حظه أنّه لم يُعاقَب قط بأيِّ مخالفة سير. ربّما كان قائد قسم الشرطة قد صادر الدرّاجة من نصّاب، وعلى مدار شهور لم يظهر من يطالب بها، ثمّ صارت ملك سدره. وكانت درّاجات نارية كثيرة تصادَر بين الحين والآخر، فعرض قائد الشرطة على سدره مرارًا درّاجات أحدث طرازًا لكنه ظل وفيًا لدرّاجته القديمة الحبيبة. ولعلّ ما كان يعجبه فيها هو مظهرها القديم، برغم أنّها كانت كثيرة الأعطال، وأعلى صخبًا من طاحونة أرز.

ودونما خوذة، وبشبشب فقط في قدميه، كان يصخب بها في البلدة ويقصد الساحل وحقول الأرز مخترقًا المزارع. وكان يطيب له نسيم الليل، وتسرُّه المناظر الطبيعية، ويتلقّى التحيات ممّن يعبر بهم في طريقه، وقد يمرُّ بين الحين والآخر بمحل التصليح، فيجعل أحدًا هناك يضبط له الدرّاجة، أو يتوقّف لدى كشك ليطلب فنجان قهوة، قبل أن يستأنف جولته بغليون ينبعث منه دخان يفوق عادم درّاجته كثافة. ولم يكن يعتزم أن يتوقّف إلا للحظة حينما وقعت عيناه على جارو بجوار بركته، وهنالك قوطعت نزهته المسائية بالخبر الذي جاء به ما سوما.

سارع الرائد سِدْرَه بالتوجه إلى درّاجته المسنودة إلى نخلة جوز هند، وركبها، وحاول أن يدير محركها، وتلك كانت مشكلة دائمة؛ فقد كانت تعمل مرّات عديدة ثمّ تتوقّف، ثمّ سنحت له الفرصة أخيرًا حينما دار المحرِّك فسارع يزيد تدفُّق الوقود، مُصدرًا ضوضاء أشبه بقرع

الطبول. أشار للشيخ ـ أي معلم القرآن ـ أن يركب وراءه، خشية أن يحرن المحرّك مرّة أخرى؛ فسرعان ما استقرّ الشيخ جاهرو تمامًا وراء الرائد، بعد أن غسل من الصنبور يديه وقدميه، وألقى في بركته ما فضل من النخالة. وعلى طول الطريق غير المستوي، والزلق بعد مطر الليلة السابقة، بدت الدرّاجة النارية أوهن من حمار محموم. وكان ثقل الرجلين إجهادًا للمحرّك فمضيا يساعدانه بين الحين والآخر بالدفع بأقدامهما. ولم تصل الدرّاجة إلى سرعتها إلا ببلوغها طريقًا ممهّدًا مستويًا محاذيًا لملعب الكرة، ونبعهما عن بعد ما سوما على درّاجته العتيقة.

قال جاهرو: "سرقة الدجاج، ذلك أسوأ ما كان يفعله الولد المسكين، سرقة الدجاج من أبيه".

ولم يكن ذلك سرًّا؛ فقد كان جميع مَن في القرية يعلمون أنَّ مارجيو كثير السرقة لدجاج أبيه، لا لحاجة إليه، بل بدافع من الضغينة. قال سدره: "لم أفهم ما الذي كان يدور برأس الصبيّ وهو يعضّ رقبة شخص".

كان أنور السادات نفسه طريح الأرض معدوم الحركة تغطّيه قماشة بُنّيّة في بيته، داخل غرفة المعيشة، ساطعة الإضاءة في العادة، وقد خيّم عليها حزن غاضب، ومضت تتردّد فيها أصداء نشيج النساء. كانت القماشة قد تشرّبت الحمرة، وتشكّلت بشكل الجثة، بينما كان الدم لا يزال يتدفّق على الأرض، داكنًا ومتخثّرًا. لم يجرؤ أحد أن يسدل الستارة الفاصلة بين عالمي الأحياء والموتى، وقد وعوا جميعًا بالجرح

المغفور إذ بدا أشدَّ جهامةً من شبح. كانت الفكرة وحدها تصيب الناس بالدوار فيتقهقرون مبتعدين عن الجثمان.

وصل شرطيَّان في سيارة دوريَّة، ظلَّ مصباحها الأحمر يسطع دائرًا حتى بعدما أسكتا نفيرها. وقف الاثنان ثابتين لدى الباب، وكانا الوحيدين اللذين أتيحت لهما فرصة رفع القماشة لثانية واحدة قبل إرجاعها إلى ما كانت عليه، وصارا بعد ذلك يشعران أنَّهما جزء من الحدث، وإن لم يبقَ لديهما سبب للبقاء. لم تسمح لهما زوجة أنور السادات بحمل الجثَّة إلى المشرحة، وهو ما كان معقولاً؛ فلم يكن أيُّ غموض يحيط بسبب الوفاة أو بهوية القاتل، ولم يكن من داعٍ لفحص أنور السادات، ولم يكن من شيء يمكن منحه له في ذلك الوقت إلا شعيرة الغسل، وتغطية جرحه بالقطن، وإقامة الصلاة عليه، والمسارعة بدفنه.

بدا أنَّه لن يُدفن قبل الصباح التالي. فقد كانت ابنته الصغرى مهراني بعيدة في الكليَّة وليس بوسعها المجيء قبل الفجر. أمَّا مسألة أن الفتاة كانت في البيت في الليلة السابقة فقد أضافت إلى فجيعة المأساة. لقد كانت في البيت طوال أسبوع من إجازتها الطويلة قبل أن ترحل فجأة في صباح ذلك اليوم. تخيَّل الناس أن ينتشر خبر المأساة حتى يصل إلى مهراني في النزل وهي لم تزل منهكة ولم تفرغ حقيبتها بعد، فيكون عليها أن تعيد جميع أغراضها إلى حقيبة الظهر، أو تترك كلَّ شيء وراءها ولا تبالي، والدموع تنهمر على خدَّيها، ويطنُّ في رأسها ألف سؤال، وهي التي تركت أباها في صحَّة جيِّدة. لم يكن أحد قد أخبرها

أنّها جريمة قتل. لم يكن قد وصلها غير رسالة قصيرة بأنّه مات، فلعل الفتاة الآن تسارع للّحاق بالحافلة التالية أو القطار الأقرب.

وفي البيت الحزين، توافدت جماعات النساء على الفناء الأمامي والسقيفة متهامسات، طابخات نسخهنّ الخاصة مما جرى، وقد تزيّن الفناء الرحب بخمس من أشجار نخيل الزيت وشجرة ثمرة النجمة، وهنالك كان يحلو للأطفال أن يتأرجحوا على إطار سيارة يتدلّى من حبل مربوط في أحد الأغصان. وعلى جانب الطريق كانت شجرة بوانسيانا ملكيّة تذرف أوراقها على بساط من العشب الياباني، وثمّة كان أطفال صغار يلعبون المصارعة ويتقلّبون بينما يطوف حولهم قطيع من الديكة الروميّة. وكان في كلّ من الجانبين بِركة فيها سمكة ذهبيّة بدينة ونبتات لوتس وصنابير ينبعث منها الرذاذ، وعلى حوافّ البركتين وفي منتصفيهما تماثيل حجرية لنسوة أشباه عرايا يغسلن الثياب وأطفال يسبحون، وكلّها من صنع يدي أنور السادات البارعتين.

وكان من إبداعاته التي يألفها جيرانه أيضًا، طبلة خشبية مشقوقة على شكل أير معلقة أمام البيت، هي بمثابة جرس يدقّه الضيوف. عندما حلّ السادات على القرية قبل سنوات كان خرّيجًا في معهد الفن يبيع اللوحات على الشطّ، قبل أن يتزوّج ويستقرّ. وكان يقول دائمًا إنه يكنّ إعجابًا لرادين صالح[6]، ويعرض في بيته الأعمال التي ينسخها من

٦ـ رادين صالح شريف بوستامن Raden Saleh Sjarif Boestamn، (١٨٠٧ـ١٨٨٠)، فنان إندونيسي رائد.

أعمال ذلك الفنَّان العظيم، ومنها التمثال الشهير لمصارعة النَّمر والثور، وكان يقلّد أسلوب الرجل بلا حياء، ولا يضيق مطلقًا بحقيقة أنَّ سمعته الفنيَّة مقصورة على أهل بيته والمحيطين بهم دون سواهم.

تزوَّج قابلة متدرِّبة كانت قد مرَّت به ذات مرَّة طالبةً أن يرسم لها صورة، فإذا بأنور السادات يجعل الفتاة أجمل كثيرًا ممَّا كانت عليه في الحقيقة؛ ومن أجل ذلك فقط وقعت في غرامه، ولم يشأ أن يفطر قلب الفتاة فتزوَّجها على الفور، ليجد نفسه بعد ذلك شديد الثراء؛ إذ ورثت الفتاة نصف أراضي البلدة. ولم تبدُ عليه بعد ذلك لهفة السعي إلى أيِّ شكل من أشكال الشهرة الفنية؛ بفضل ميراث زوجته، وجمعها إلى جانبه عملها كقابلة في المستشفى. لكنَّه بقي بالطبع يرسم وينحت، فلا يخرج أكثر ما ينتجه عن صور لمن عرفهم من الناس، فضلاً عن نسخه الدقيقة لروائع رادين صالح. وفي ما خلا صورة رسمها للرائد سدره وعلِّقت في بيت الأخير، كانت جميع لوحاته تصوِّر الكثير من النساء الجميلات.

لم يلتحق فعليًا بأيِّ وظيفة بعدما توقَّف عن احتراف الرسم، بل كان ينفق وقت فراغه المديد في لعب الشطرنج مع سدره، ورعاية فريق كرة القدم في القرية، وملاحقة الفتيات. وآخر تلك الهوايات -أي ملاحقة البنات وإغواءهن، وكذلك الأرامل في بعض الأحيان أو الزوجات الراغبات- هي الهواية التي كان يمارسها بشغف لم يمارس به الفنَّ من قبل. وذلك أيضًا لم يكن سرًّا يخفى على أحد؛ إذ ما كان لسرٍّ أن يمكث طويلاً في فم أحد من جيرانه. وبرغم ذلك فإنَّ انطباع التهتك

الذي كان سائدًا عنه لم ينل من احترام الناس له، فكانوا يسمحون له في كلّ اجتماع بأن يلقي عليهم الخطب الطوال، فيؤكد في كلّ مرة أنّه خطيب مفوّه. كان رجلاً فاتنًا؛ ومن أجل ذلك كان الناس يغفرون له نقائصه، فضلاً عن أنّه لم يكن من بين أصحابه إلا قلّة قليلة يمكنها الزعم صادقةً بأنّها خير منه أخلاقًا وأقوم سلوكًا.

في صباح ذلك اليوم لم يرَ أحد المنجل الجهم يخيِّم فوق كتفه. فأنور السادات كان شيطانًا مرحًا لا يعتريه الغمُّ مطلقًا، وكأنّما لن يمسَّه الموت أو يناله يومًا بأذى. ذهب كدأبه إلى كشك الفطائر ليتناول إفطاره ويخالط البنات في زيِّهنَّ المدرسيِّ وهنَّ قلقات يخشين أن يتأخَّرن على جرس الصباح. كان بوسع أيِّ شخص هناك أن يسمع النكات تتوالى من فمه المحشوّ بالتمبه المقلي والفطائر، ولا بد أن أنور السادات قد جلس على الأريكة الخشبية الصغيرة، قبالة الموقد المضرم، بينما البائع يصبُّ العجين السائل في المقلاة التي تعلوه، مقلّبًا الفطائر مرارًا وتكرارًا في الزيت المغلي. ولا بدّ أنّه مضى يقرص البنات ذوات الزي المدرسي في ذقونهنَّ، فيغضبن من فحشه، وتشدّ إحداهن الأخرى متحاشيات محاولاته المباغتة لخطف قبلة على الخدّ. سيتذكّرنه دائمًا، في بنطاله الأبيض القصير وقميصه التحتي الذي يحمل شعار محلّ مجوهرات إيه بي سي. كان ممتلئ الجسم، له كرش صغير، بسبب التقدُّم في العمر وقلّة الحركة، ولكنَّه كان يباهي بقضيبه وكيف أنّه لم يزل في صلابة قرن، ولا يخفي قطُّ شهوته المتفجِّرة. في ذلك الصباح تكلَّم فأكثر من الكلام، مُبديًا القلق على صُغرى بناته التي لم تعلن سببًا لقرارها بالسفر وهي لم

تزل في إجازة، وحملت حقيبتها بنفسها، ومضت إلى محطّة الحافلات بمفردها، رافضة أن يودّعها أحد.

في الليلة السابقة، بعد مشاهدة الفيلم في ملعب كرة القدم، لم تكلّم الفتاة أحدًا. لم تلمس عشاءها ولم تشاهد التليفزيون كما كانت تفعل في العادة، وطوال الليلة لم يصدر صوت عن مذياعها الذي كانت تستمتع به في الظروف الطبيعية، بل إنّها لم تخرج من غرفتها إلى الحمّام، واندهش أنور السادات حين رأى أنّها لم تصلِّ الفجر، فقد كانت ابنته الصغرى تلك متديّنة إلى حدٍّ ما. خرجت من غرفتها في صباح ذلك اليوم، صامتة لم تزل، والدموع في عينيها. لم يَدرِ أنور السادات ما الذي ألمّ بها، وخشي أن يسألها فتثور ثائرتها عليه. لم يَدرِ إن كان قد ارتكب خطأ. عبرت به الفتاة ببساطة، حاملة منشفتها إلى الحمّام، وحدث حينذاك شيء آخر غير معتاد؛ إذ خرجت مهراني من الحمّام بعد لحظة، فرجعت إلى غرفتها وتجمّلت ببساطة شديدة كمَن توقن أنّها بطبيعتها جميلة. ولمّا خرجت من الغرفة كانت تحمل حقيبتها، وبدون أن تتناول شيئًا من الإفطار، قالت في غلظة: "لا بدّ أن أسافر".

بدا، بأثر رجعيّ، أنّ عينيها الحزينتين ووجهها المغتمّ كانا يشيان بأنّ أباها سوف يموت في عصر ذلك اليوم. غير أنّها تركت أنور السادات في عجلة، مصرّة على الذهاب إلى محطّة الحافلات وحدها، كما لو أنّ في المستقبل متّسعًا كبيرًا من الوقت ليرى أحدهما الآخر. لم يستطع وهو في كشك الفطائر أن يتوقّف عن الشكوى من أمر مهراني،

بدون أن يبدي أيَّ قدر من الإحساس بالغبن، فلم يكن الأمر كلُّه غير ذريعة للتباهي بابنته لا أكثر.

كان لأنور السادات ثلاث بنات وُلِدْن جميعًا في السنوات الأولى من زواجه حين كان بينه وبين زوجته من النَّار ما يُنهك به أحدهما الآخر في السرير. وبعد سنين، حينما فتر حبُّهما، بدأ الناس ينسون اسم زوجته كاسيا مكتفين ببساطة بأن ينادوها بـ "الستُّ القابلة". ومن حظِّ أنور السادات السعيد أنّه لم ينجب من نسائه الأخريات؛ فأبناء الحرام يكونون دائمًا لعنة على أسر آبائهم أكثر ممَّا يكونون لعنة على أسر أمّهاتهم. ومثلما أورث السادات بناته تشوُّشه، أورثهنَّ حُسن شكله أيضًا.

فتن أنور السادات الكثير من الفتيات بحُسن منظره على مدار السنين، وبقي الرجل وسيمًا حتّى في شيخوخته، بعدما انتفخ جسمه وانحسر شعره فلم تبقَ منه إلا رقع متناثرة. وبقي مع ذلك يلفت أنظار العشيقات المغامرات. وكان حُسن منظره يتناقض تناقضًا مدهشًا مع منظر زوجته؛ إذ كانت كاسيا بأنف كمنقار الببَّغاء، وفكٌّ عريض، ومسلك نبيل بارد، فهي أقرب إلى ساحرة منها إلى أميرة. ولا يعني ذلك أنّها كانت شديدة الدمامة، بل أنّها تفتقر بلا لبس إلى أيِّ قدر من الجاذبية في نظر أغلب الرجال. وشاع بين الناس يقين بأن الفنَّان الفاشل ما تزوّج فيها إلا مالها، وعماها ذلك تهيَّأ له أن ينام مع الكثير من النساء، فعرفت زوجته بأمر أكثرهنّ، وإن آثرت ألاَّ تبالي ما دامت أيٌّ منهن لم تحمل منه.

ورثت كبرى البنات ليلى عن أبيها جاذبيته الجنسية وطبعه الفاسق؛ فكانت جميلة مثاليَّة القوام، ذات بشرة نديّة لا تشوبها شائبة.

ووجهها كان ينمُّ عن قدر غير قليل من الغطرسة. ولم تبلغ السادسة عشرة إلا وقد أصبحت تلميذة لدنة القوام، وهدفًا يسعى إليه التلاميذ والمعلّمون على السواء، إلى أن اكتشف أبوها ذات يوم أنّها حبلى. مضى أنور السادات يبحث في اهتياج عن ساحر يزيل ما في بطنها، وما كانت زوجته لتساعد في ذلك، ولا كانت المدرسة لتقبل بين تلميذاتها تلميذة حبلى. وما كادت البنت تتخرّج، حتى سحبها أنور السادات هي وزميلها الذي قيل إنه المسؤول عن حملها إلى رئيس القرية ليعقد القران. وبعد يومين فقط، عثر عليها زوجها في السرير مع رجل آخر.

وصارت تلك أكثر فضائح القرية إثارة. ومضى أنور السادات يسير بين الناس فيحمرّ وجهه خجلاً من أبسط التلميحات إلى ما جرى، واختفت كاسبا لأيام عديدة في منزل قريب لها. أمّا الفتاة فهجرها الرجلان بعد ذلك، زوجها والعشيق. وأخذ الناس يسمُّونها الأرملة، ولا يراها أحد إلا ويهمس بأنها "المرأة السهلة".

وكانت الوسطى بين البنات الثلاث، وأكثرهنّ جمالاً، هي مايسا ديوي، وهي من طينة أخرى. لم تكن لقوامها لدونة قوام أختها، وأخلاقها كانت أرقّ وألطف. فكانت تُلزم نفسها باحترام اللياقة، حتى صار ذلك سمتًا ظاهريًا فاقت به أباها. وكذلك كانت في المدرسة؛ كانت التقارير تثني على ذكائها، وذلك ما لم تطاولها فيه أختاها قطّ، فأنهت مايسا ديوي دراستها بدون أن تشوب سجلّها شائبة. وكان قد بقي لأنور السادات من الحسّ الأخلاقي ما جعله يحب الفتاة ويعجب بها، فهي -خلافًا لأختها الكبرى- لم تماثله في طبيعته الفاسقة. ويقينًا منه بأنها

لم تزل تحافظ على عذريتها، وافق أبوها على السماح لها بارتياد الجامعة. ثمّ إنّه استطاع أن يقنع زوجته ببيع قطعة أرض لتدبير المال اللازم لتعليمها، برغم أن كاسيا كانت قد باتت تؤمن أنّه ليس بين بناتها الثلاثة بنت سليمة العقل. ولمّا رجعت الحبيبة بعد سنة واحدة على غير توقع، لم ترجع بشهادة، بل بطفل حديث الولادة وصديق عاطل تزوّجته فيما بعد. ولم يهمس أحد بأنها امرأة سهلة المنال، فقد بدا أنّها مخلصة. ومع ذلك، أثارت قصّتا البنتين الكبيرة والوسطى رأيًا بين مَن يعتبرون أنفسهم حماة الأخلاق الحميدة مفاده أنّ البنات الثلاثة جميعًا فاسدات منفلتات. وتراهنوا فيما بينهم على أنّ الأخت الصغرى مهراني سوف ترجع يومًا وعلى ذراعها ولد صغير، برغم ما كانوا يرون من أدلّة كثيرة على أن أمرًا كذلك سوف يكون شذوذًا عن طبيعتها.

في كشك الفطائر، بعد رحيل مهراني المفاجئ، لم يملك أنور السادات أن يتوقّف عن الكلام عنها، أخذ يتكلّم عن الأغراض الصغيرة التي أحضرتها معها إلى البيت. تركت مهراني لأبيها مطواة، ولأمّها ذات الشعر المتماوج مشطًا كبيرًا، وصندوق موسيقى لابن أختها. أخذ أنور السادات يكرّر إلقاء النكات التي ألقتها ابنته، غير مبالٍ بأنّ بعض الناس سمعوها مباشرة من فم مهراني خلال الإجازة. وحاولت كاسيا أن تنهاه عن مغالاته في تلك الثرثرة، ولم تُخفِ الأختان الأخريان غيرتهما الحارقة، حتّى كان مارجيو هو الذي وضع حدًّا لذلك في النهاية.

الآن يرقد أنور السادات ميتًا، ينتظر أن يُحفَر قبره، وينظّف نعشه، وترجع صغرى بناته لتشهد الجرح الغائر قبل أن تنخرط في

النشيج بحرقة تفوق حرقة كاسيا وليلى ومايسا ديوي مجتمعات. كان بوسع من ينظر إليهنّ أن يرى كاسيا في حالة أسوأ من حالتها السيئة المعهودة، وقد جثت على ركبتيها وأخذت تعضُّ على طرف قماشة ملفوفة في حجرها، فلا يعرف أحد ما الذي جعلها تأتي بتلك القماشة، وبجوارها ليلى الأرملة تحاول دونما جدوى التسرية عن أمّها برغم أنها نفسها فقدت الوعي قبل قليل ولم تسترده إلا بعدما نثر أحدهم الماء على وجهها. أمّا أكثرهن ذهولاً فهي مايسا ديوي، التي كانت أوّل من رأى أنور السادات وقد أوشك رأسه أن ينفصل عن رقبته. كانت لم تزل تجأر بالبكاء في حزن وكأنّ في جوفها ماءً يغلي، عاقدة ذراعيها على طفلها الذي يبكي فياري بكاءها.

وصاحبت بقية المعزيات النساء الأربع ببكاء أخفت وأهدأ؛ فكأنهنّ جوقة مضبوطة على مستويات مختلفة ومتناغمة من الحزن. انتفخت أعينهنّ واسودَّت وامتقعت من فرط الحزن على خسارة ذلك الرجل القاسي الخائن. ومنذ أن عثر ما سوما على الجثة وهو يتجوّل حول المسجد، فحملها من مسرح الجريمة وغطّاها بقماشة ملوّنة لم تعتنِ أيٌّ من تلك النسوة بالرجل الميت. في حين أحضر ما سوما الدرّاجة وانطلق ليعثر على الشيخ جاهرو. كان قد عثر على القماشة في المرسم، ملوَّنة بتصميمات الميت نفسه. لم يكن قد خطر لأنور السادات قطّ أنها سوف تُستعمل في تغطية جثته هو نفسه. وسرعان ما وصل جاهرو وسدره، فنظر الناس إليهما بأعين بدا أنّها تستجدي الرحمة أو العون.

كان الشيخ جاهرو معلم القرآن قريبًا لزوجة أنور السادات، فما كان منه إلا أن تولّى المسؤولية فور وصوله.

حمل الجثة هو وسدره بدون أن يزيحا عنها الكفن، ونقلاها من داخل البيت إلى الفناء الأمامي، تاركين وراءها خيطًا محمرًا مبهمًا. قدّر الرائد سِدْرَه أنّه يزن ثمانين كيلو جرام، وفكّر أنّه لو كان خنزيرًا لمزّقته كلاب الأياك إربًا. مضيا بالجثة إلى أريكة بجوار الجدار، حيث وضع ما سوما من قبل كومة من المناشف وصابون الكبريت، وطاس مياه، وبتلات زهور، وطبعًا مسحوق بوراكس المعقّم. وهنالك حدث أخيرًا أن أزاح الشيخ القماش، ببطء، متّقيًا الصدمة. وفي حضور شهود كثر من الرجال، انكشف السرُّ المخفيّ. انساب دعاء الاستغفار من فم الشيخ، متضرّعا إلى الله طالبًا منه العفو، وحذا بقية الرجال حذوه متمتمين وهم يحملقون في الجرح المتعرّج في الرقبة الشاحبة. رأوا الدم وهو لا يزال يتدفّق بأزيز وفقاعات، في منظر مثير للغثيان ـيفوق في رعبه أبشع الكوابيسـ فأشاح العديد بوجوههم.

وبدافع من فضول طفولي، فحص سدره الجثة راجيًا أن يكتشف المزيد ممّا فعله مارجيو. كان واضحًا بدرجة كافية أنّ عرقًا انقطع وتدلّى كأنّه سلك في مذياع مكسور. فكّر وقد رأى الرقبة قُطعت تقريبًا إلى نصفين، أنّ الضرر أبلغ ممّا تصوّر، وكأنّما شرع جزّار في نحرها ثمّ لم يكمل مهمّته.

قال جاهرو: "لقد مات أبوه قبل أيام قليلة، في أعقاب أخته الصغيرة، التي ماتت بعد أسبوع من ولادتها. أظنُّ أنّ الولد أصابه الجنون".

قال سدره: "مجنون ولا شكّ مَن يعضُّ رجلاً بهذه الطريقة".

برد الهواء وسمع الرائد سِدْرَه من بعيد نباح كلابه الأياك طالبة إدخالها القفص، أو ربما نباحها ذلك كان على الأرجح بسبب التقاطها رائحة الدم في نسيم المساء بأنوفها الحسّاسة وخطومها الضارية. وقبل أن يحلّ الظلام، طلب جاهرو من بعض الرجال أن يُحضروا دلاء الماء. علا صوت المضخّة صاخبًا، بينما مضى الماء يندفع. وبعد اختفاء ما سوما لوهلة، عاود الظهور حاملاً أكياسًا من كريّات القطن. غسل جاهرو الجرح بنفسه، بمنتهى الاحترام، متصوّرًا أنْ بوسعه إيقاف تدفُّق الدم، وكأنّ الجرح الغائر خدش في بدن طفل. واصل تمتمته بالأدعية. أما سدره الذي خاض أهوال حرب العصابات ورأى الجثث تتشظّى نسائر من نيران المدافع، فقد وقف في رهبة أمام برود جاهرو وتماسكه، وأوشك أن يقترح ترك الجرح على حاله مذكّرًا الشيخ أنّ الجثة في النهاية سوف تتعفّن في المقبرة.

كانت يدا الشيخ لا تزالان تتحرّكان في خفّة، فتتلقّيان كريّات القطن وتغمسانها عميقًا، فلا تمرُّ برهة إلا ويتغيّر لونها، قبل أن يضمّد الجرح ويخفيه بالشاش. صار الجرح الآن يبدو مثل قطع صغير في شخص حيّ، يحيط به الشاش الملفوف إحاطة القلادة. وفيما كان يعمل، نزع آخرون الثياب عن الجسد، وغسلوه، ودعكوه حتى صار نظيفًا، تفوح منه رائحة الزهور. وانبعثت من الجثة رائحة معقّم البوراكس متهاديةً حول رؤوسهم.

أتى ما سوما بكفن من المسجد، فلفلفوا فيه الجسد حيثما كانوا يعملون.

قال الشيخ جاهرو: "لا يليق أن نتركه عاريًا طيلة الليل"، مضيفًا قوله: "لو أنّ البنت مهراني تريد أن ترى رأس أبيها، فبوسعنا أن نحلّ عقدة الكفن. لكن لو أنّ لديها أيّ فكرة عن شكله، فلن ترغب في رؤيته، سوف تفقد أمُّها وأخواتها شهياتهنّ لأيام، وسوف تنتابهنّ الكوابيس لما بقي من حياتهن".

الآن حلّ الليل، جالبًا معه البرد والسكون. سارع ثلاثة رجال بحمل الجثة إلى المسجد، وتأهّب الناس لأداء صلاة الجنازة عقب صلاة المغرب.

برغم هوس أنور السادات بالنساء، كان يتردَّد على المسجد بانتظام. فحتّى لو كان مشغولاً، وكذلك كان حاله في الغالب، لم يكن لينسى الذهاب إلى المسجد في الصلوات الخمس. وكان في العادة هو الذي يدقّ الطبلة الكبيرة ويرفع الأذان ويقيم الصلاة. لم يكن أحد ليثق فيه إلى حدّ تقديمه للإمامة، فتقواه لم تظهر عليه إلا لأنّ كثيرًا من أقارب زوجته كانوا من المنتظمين في التردد على المسجد، فمنهم الحجّاج ومنهم الشيوخ. وأيضًا بسبب إحساسه بالمسؤولية، فقد كان المسجد مُقامًا على أرضه؛ إذ أقامه حماه قبل سنوات من مجيئه لبيع لوحاته. ولتلك الأسباب الوجيهة لم يعتقد أحد أنه قريب حقًّا من الله.

وقعت جريمة القتل ـ حسب اعتقاد الجميع ـ في تمام الساعة الرابعة وعشر دقائق؛ إذ كان مارجيو قبل عشر دقائق فقط مع بعض أصدقائه،

وبعد عشر دقائق كان قد رجع إليهم، وهو في حالة صادمة. كانوا مجتمعين في ملعب كرة القدم لمشاهدة الناس في رهانهم على سباق الحمام، ويشهدون الضجّة الكبرى من صياحهم وصفيرهم. كان الأطفال يتبارون بحمائمهم التي ما كانت ترجع إن تجاوزت حدود القرية؛ ولذلك السبب ما كانت تُطلَق إلا من جانب واحدة من أجناب الملعب لتطارد حمامة تتماوج في يد صبي في الجانب المقابل. كان أفضل الحمام يطير قادمًا من القرى المجاورة، مقتفيًا أثر درّاجات الأجرة النارية، مجاورًا الغيوم، قبل أن ينقضّ غائصًا بمجرد أن تقع أعينه على الدجاجة. وقبل عشر دقائق من القتل كان مارجيو هناك، مستلقيًا على العُشب، محملقًا في السماء.

ليلى أيضًا كانت هناك، بل لقد تكلّمت معه. كانت تشكُّ أن لرحيل مهراني المفاجئ علاقةً ما بمارجيو؛ إذ كانت على مدار الأسبوع السابق تراهما معًا كلَّ يوم. وفي الليلة السابقة كان مارجيو هو الذي ذهب معها لمشاهدة فيلم شركة الأدوية العشبية. أنكر مارجيو ذلك، وأصرَّ ألاَّ علاقة له برحيل مهراني، وأنّها ليست بنتًا صغيرة، وأنّها التي تقرِّر متى تذهب ومتى تبقى. وفيما كان يقول ذلك كلّه، انتبهت ليلى إلى الغمّ والرثاء المرتسمين على وجهه، فلم تزد عن ذلك، وشأن غيرها لم تكن تعلم أنّه عمّا قريب سوف يقتل أباها.

فجأة قال مارجيو لصديقه ـوأحد فتوّات القريةـ آجونج يودا: "عندي فكرة فاضحة".

لم يبيِّن له طبيعة تلك الفكرة الفاضحة، لكنَّه أخذ آجونج يودا إلى مشرب آجوس سفيان عند أحد أركان ملعب كرة القدم. قال إنَّ معه بعض المال وإنَّه يريد كأس بيرة. كان ذلك المشرب في يوم من الأيام مقصف طعام لعمال المزارع وأبناء القرية، يقدِّم لهم الحساء، ويبيع الوجبات البسيطة للزوجات اللاتي يلهيهن الكسل عن الطبخ. ولكنَّه صار منذ أن انعزل مرتعًا للفتوات، تخفيه حافة مزارع الكاكاو، فشرع في بيع البيرة والعرق، وفي بعض الأحيان، كانت تباع بمزيد من التكتم مخدِّرات وحبوب منوِّمة، حتى صار يُعدُّ بقعة للسكر والعربدة، وكأنه نسخة نهارية من كوخ الحراسة الليلية.

كانت ليلى الأرملة كثيرًا ما تأتي إلى هنا حتى باتت صيدًا للصبية الفتوات، يتعرضون لها بالمضايقات ويحاولون ملامستها، فكانت تقابل محاولاتهم تلك في العادة بالضحك، وإن استشعرت في نفسها الكرم قد تذهب طوعًا مع أحدهم إلى الفراش بلا مقابل. ولئن كان بعض النساء يوافقن على الذهاب للنكاح في المزارع، فليلى لم تكن منهنّ. وحدث عند ذلك الكشك، بينما وقفت ليلى تشاهد سباق الحمام، أن طلب مارجيو من آجوس سفيان بيرة باردة، فكان معنى ذلك أن يضع آجوس سفيان زجاجة البيرة بين لوحي ثلج بدلاً من أن يقدِّمها وفيها قطع من الثلج. وكان مارجيو يقول دائمًا إن مذاقها يكون مختلفًا، وإنَّه يرفض تمامًا أن يُكره نفسه على شرب بيرة فاترة. تقاسم هو وآجونج يودا تلك الزجاجة، صبَّها مارجيو في كأسين، وجلسا على أريكة وراء الكشك، وثمَّة استأنفا كلامهما، بينما رغوة البيرة لم تزل طافية فوقها.

"أنا حاليًا أخشى فعلاً أنّي سوف أقتل شخصًا".

كان آجونج قد سمع مارجيو يقول في وقت ما قبل اختفائه- إنه يعتزم قتل أبيه. كان قد اعترف أنّ في نفسه شيئًا، وأنّه قد يقتل بلا تردُّد. لم يسأله آجونج قطُّ عن ذلك الذي في نفسه، وقد ظنَّ أنّ القتل يسير على مرافق الخنازير، ولو بغير ذلك الشيء. لكن بالطبع ما لأحد لم يحضر تلك الواقعة أن يصدق صدور تلك الكلمات عن مارجيو. فقد كان الأرقّ بين أصدقائه جميعًا والأكثر تهذيبًا. وكان الجميع يعلمون بمدى عدوان أبيه، لا سيَّما على أمّه. وكانوا يعلمون مدى حبِّ مارجيو لها. ولكنَّ الولد كان دأبه أن يذعن لقسوة أبيه الشيخ، ويهدِّئ من عدوانه، مثلما يحجِّم أصدقاءه حينما يبدأون في الشجار.

وحتى لو أنه كان جادًا بشأن قتله أباه، فقد ضاعت الفرصة؛ إذ صار قومار بن سايووِب على عمق ستة أقدام، وتضاءلت احتمالات عودته إلى الحياة حتى باتت مساوية لاحتمالات أن يعادي مارجيو أي شخص؛ وهكذا لم يبدُ أنّ في الأفق قتيلاً محتملاً. وفيما كان أصدقاء له يشتبكون في مشاجرات، لم يكن هو يرفع إصبعًا على أحد.

لم يواصلا الكلام، لأن آجونج يودا لم يردَّ على اعتراف مارجيو، بل اكتفيا بالجلوس واحتساء شرابهما، محملقين في مزارع الكاكاو التي تقطعها بالعرض بِرَك حقول الأرز وحدائق جوز الهند. هنالك حلَّت العتمة واستبدَّت غمامات البعوض، وإن بقيت المستنقعات مضاءة والناس فيها يرعون بركهم. فرأى مارجيو الشيخ جاهرو وهو يقبض

على المنيهوت وورق البابايا وكيس الأسمنت المليء بالنخالة. كان أبوه في يوم من الأيام يزرع الأرز هناك مثل أولئك، لكنَّه كان عديم المهارات فأهمل حقله حتى لم يبقَ منه إلا آكام المنيهوت التي لا تستوجب رعاية، والورق الذي يتساقط حينما ترعى قطعان الشياه هناك. أمَّا مارجيو، فلم يُبدِ أدنى نيَّة على الاستيلاء على قطعة من الأرض.

لكنَّ قطعة كبيرة من الأرض، بجانب أحد مباني الحقبة الاستعمارية المجاورة لملعب كرة القدم، أصبحت مرتعًا لمارجيو، يذهب إليها هو وأصحابه كلَّما هربوا من حصَّة مملَّة، فيختبئون وسط شجر الكاكاو يدخِّنون السجائر، وقد يخلطون تبغها في بعض الأحيان ببذور الداتورة لينتشوا به، ويقرأون نسخًا مصوَّرة من روايات إيني آرو الإباحيَّة أو حوادث نيك كارتر الجنسية. كانت الروايات الشعبية والكتب المصوَّرة محظورة في المدرسة، ولم يكن أحد على مقاعدها يجرؤ على الحديث عن قصص مصوَّرة مثل "أعمى الكهف المسكون"، أو "بانجي الجمجمة" التي تحكي عن عاشق يحمل كفن حبيبته أينما كان؛ فما كان لهم أن يقرأوا تلك الروايات إلا في مزارع الكاكاو.

في أحيان أخرى كانت تلك الأرض تصبح ميدانًا للشجار والعربدة، وحدث ذات مرَّة أن قتل بعض البلطجيَّة بعضًا منهم هناك. وكان أعداؤهم المشتركون هم كبار عمال المزارع الذين كانوا يتَّهمونهم دائمًا بسرقة الكاكاو وجوز الهند، وهو ما كانوا يفعلونه حقًّا في بعض الأحيان؛ فكان كبار العمال يطاردونهم على درّاجاتهم إلى أن يخرجوهم من الأرض. وإن أمسكوا منهم أحدًا فإنَّهم يسحبونه من أذنيه إلى أن

يسلّموه لمدرس التربية الرياضية الصارم. وكانت وظيفة المزارع تتغيّر بالليل في بعض الأحيان؛ إذ يقصدها من لا مراحيض لديهم في بيوتهم ليتغوّطوا فيها. مضى مارجيو ينظر إلى المكان كمَن تقع عيناه على أسوأ ما في ماضيه.

كان آجونج أحد من شاهدوا الفرحة المفرطة التي استولت على الشاب حينما رجع إلى البيت ليجد أنّ أباه قد مات، فظنّ أنّ جميع مشكلات البيت قد انتهت بموت قومار بن سايووِب، إلى أن أدرك أنّ ذلك كلّه وهم. ظنّ آجونج أنّ مارجيو متعكّر المزاج، وأنّ كلّ هذا الذي يلغو به عن الفكرة الفاضحة وقتله شخصًا ما ليس إلا هراءً، وأنّ مارجيو لم يكن يقول ما يقول إلا لأنّه لا يجد أفضل منه ليقوله.

كانت أغنية "لاكسامانا راجا دي دي لاوت"، وهي أغنية دانجدت[7]، تتعالى عبر مذياع آجوس سفيان ثنائي الموجات الإذاعية المعلّق قرب باب الكشك، وهو من الأصول المملوكة للكشك التي إن أديرت على أعلى صوت، انبعثت الحياة في المكان صباحًا وعصرًا ومساءً، كان مذياعًا قديمًا من إنتاج شركة باناسونيك، مصمّمًا للعمل بالبطاريات، لكنّه موصول كيفما اتفق بالكهرباء. وحدث ذات مرّة أن استعمل أحد الزبائن سقف علبته مروحةً ثمّ لم يتذكّر قطّ أن يعيدها إلى مكانها، فباتت أحشاؤه بارزة في خليط مضطرب. ولكن تلك الآلة شبه

٧ـ الدانجدت dangdut غناء شعبي في إندونيسيا، يقوم على مزيج من الموسيقى الهندية والعربية وغيرها.

الميّتة كانت قادرة على إصدار ضجيج يمكن الاستماع إلى انفجاراته حتى منتصف ملعب الكرة، وكان الناس في أيّام معيّنة يتحلّقون حوله للاستماع إلى التعليق على مباريات الدوري. وفي بقيّة الوقت كان يبقى مضبوطًا على محطّة مخصّصة للدانجدت وغيرها من أنواع الموسيقى الشعبية، فكان صوتها يضاف إلى صياح المقامرين في سباق الحمام وهم يحاولون تشجيع طيورهم وتحفيزها.

أخرج آجونج بودا من جيبه علبة مارلبورو مملوءة حتى نصفها، وأعطى مارجيو سيجارة فمضى يقلّبها بين أصابعه بدون أن يشعلها، وكان بارعًا في تلك الحيلة وقد تدرّب عليها باستعمال قلمه الجافّ كلّما أصابه الملل في المدرسة. وحاكاه في ذلك بعض أصدقائه مستعملين في بعض الأحيان سيجارة مشتعلة. تجرّع مارجيو ما بقي من كأس البيرة وقام ليغادر.

قال: "نسيت أنّي ينبغي أن أقابل أنور السادات"، لكنّه لم يُشِر إلى السبب.

أشعل السيجارة قبل مغادرته، وظلّ آجونج بودا لا يعرف أنّ مارجيو كان ذاهبًا لقتل أنور السادات. شاهد مارجيو ماضيًا، وخطاه المتردّدة تقول صراحة إنّه لم يكن على يقين من أمر ذهابه أم بقائه بجوار آجونج بودا على الأريكة. لكنّه بعد التفاتة عابرة إلى صديقه من ورائه، مضى قدمًا وشفتاه مزمومتان على السيجارة، يسحب منها بعمق فيَصدر عنها وشيشٌ خافت وتتوهّج شعلتها في نسيم آخر العصر وتتعالى منها حلقات دخان تلتفّ حول رأسه.

بعد عشرين دقيقة فقط ندم آجونج يودا على سماحه له بالذهاب. كان لا يزال قابعًا على الأريكة، متصوِّرًا أنّه ما من مشكلة بينه وبين أنور السادات، فلم يجد داعيًا لاتّباع مارجيو. نصف كأسه كان ممتلئًا بالبيرة، وكانا قد اعتادا على التمهُّل في احتساء البيرة، جاعلين الكأس الواحد يدوم لساعات من الحديث. لكن، وقد ذهب مارجيو، قد يتجرَّع آجونج يودا كأسه هو الآخر، فتنساب قطرات منه على ذقنه، ويمسحها بطرف قميصه، ويلقي عقب السيجارة على الأرض ويدهسها بالصندل. كانت تجلس داخل الكشك امرأة تدَّعي الخجل برغم أنّه كان بينهما ما بينهما. وضع آجونج يودا يده على كتفها فضحكت المرأة، إلى أن مدَّ يده يعتصر صدرها.

تملَّصت منه المرأة وشتمته، دافعة إيّاه عنها، فتركها آجونج يودا وهو يضحك. تبوَّل بجوار عمود الكهرباء، ثُمّ مضى باتجاه ملعب الكرة، وفي ثنايا ذلك كلّه، دونما علم منه، كانت الساعة تقترب من لحظة قتل مارجيو لأنور السادات.

في تلك اللحظة بالذات كان أنور السادات يُطعم ديكته الروميَّة الداجنة بطبق بقايا أرز جاء به من مطبخه، لتسمينها على أمل أن يذبحها في إجازة عيد الفطر. وعلى مقربة، كان ما سوما يكنس باحة المسجد، أي باحة أنور السادات، مزيلاً ورق شجرة ثمرة النجمة المتساقط والثمار الواقعة المعطوبة بسبب انهمار المطر. لم يتبادل الرجلان حديثًا وإن استشعر كلٌّ منهما حضور الآخر. وأخيرًا ذهب ما سوما

لينظّف أحواض المسجد من الريم والطحالب، ورجع أنور السادات إلى مطبخه ليرجع الطبق الوسخ.

لم يكن في البيت أحد غيره، ومايسا ديوي المستلقية في سريرها برفقة ابنها الصغير في أثناء قيلولته. هذه المرأة لم تفعل الكثير منذ رجوعها بابنها الصغير والرجل الذي لم تكن تزوّجته بعد. كانت تقضي أغلب وقتها مستلقية في السرير مع ابنها الصغير، وتأتي على الأرز المطبوخ في خزانة المطبخ. كانت كاسيا قد طردت الزوج من البيت كي يعثر على عمل، فعمل مديرًا لسينما شبه مفلسة بعيدة عن القرية، ولم يعد يرجع إلى البيت إلا مرّة في الشهر بشيء من المال تنفقه مايسا ديوي في أسبوع. ولم تكن كاسيا تبالي بالتفكير في أمرها كثيرًا، وأنور السادات لم يكن بيده أن يساعد في شيء إذ استبْقت كاسيا الأمور المالية جميعًا في قبضتها بالدرجة الأساسية، فترك المرأة وابنها عالة، شأنهما شأن ليلى.

لم يرَ أنور السادات الولد وهو يتجوّل في الباحة، وقد بدا شديد التوتّر والشحوب. ثمّ وقف مارجيو مستندًا إلى شجرة ثمرة النجمة، محملقًا في البيت، لاحًا الرجل بين الحين والآخر. لم يكن ليبدو لأحد أن مارجيو يعتزم قتله فعلاً؛ فقد رآه العديد من الناس، وما سوما حينما خرج ليفرغ سلّة قمامة مليئة بالريم والطحالب في مقلب القمامة، رآه غير مسلّح. ما كان لأحد أن يشكّ أنّ مارجيو موشك على ارتكاب جريمة قتل، فمن أجل ذلك كان ينبغي أن يكون معه سكّين أو ساطور أو حبل. ومن ذا الذي كان ليتوقّع أنّه سوف ينهي حياة إنسان بعضّة؟! ولّما مرّ به ما سوما مرّة أخرى لم يتكلّما أيضًا. كان مارجيو بركل بفتور

أرجوحة إطار السيارة، وبدا في لحظة موشكًا على مغادرة الباحة، لكنَّه بقي هناك، كأنّه لصٌّ يبحث عن ثغرة، شاعرًا أنَّ ثمَّة مَن يراقبه بدوره. مؤكَّد أنَّ الناس في ملعب كرة القدم رأوه، ولكنَّهم كانوا يعرفون مارجيو معرفة وثيقة لا تدع مجالاً للريبة. فلم يُبالِ به أحد، وبدا أنَّ ما سوما لن يظهر مرة أخرى، فقد بدأ يستخرج ماء البئر بالمضخَّة ليملأ أحواض المسجد. في تلك اللحظة كان باب البيت الأمامي مفتوحًا، وبدأ كأنَّما أنور السادات يستعد للخروج إلى الهواء. وبدأ مارجيو يتحرَّك.

عند قرابة العاشرة والنصف كان أنور السادات يتجه للخروج من البيت بحثًا عمَّن يتكلَّم معه في ملعب الكرة. ومثلما لم يكن يستمتع بمشاهدة مصارعة الديكة، لم يكن أيضًا يُقبل على سباق الحمام، وإن كان بين الحين والآخر يشاهد سباقًا، وقد يراهن فيه لمجرد المشاركة الاجتماعية. كان لم يزل يرتدي بنطاله القصير وقميصه التحتي الذي يحمل شعار محل مجوهرات إيه بي سي الذي كان يرتديه في كشك الحلوى في ذلك الصباح، وهو نفسه الزيُّ الذي سوف يموت فيه. ما كاد أنور السادات يلحظ مارجيو سائرًا باتجاهه حتى تجمَّد، فلم يجاوز الباب، وبقي ينتظر الصبي شاعرًا أنَّ في الأمر شيئًا. وأخذ يفكِّر في مهراني، فقد كان أنور السادات يعرف ـشأن ليلىـ أنَّ الفتاة في الليلة السابقة كانت مع هذا الصبي في عرض فيلم شركة الأدوية العشبية، فخطر له رجاء بأنّه ربما يكون على علم بسبب في رحيل ابنته المفاجئ. انتظر إلى أن دخل مارجيو ووقف أمامه، لكنَّه لم يقل كلمة عن مهراني.

كان وجهه لم يزل ممتقعًا وشفتاه ترتعشان وكأنّ أنور السادات هو الذي سوف يثير المشاكل.

نعم، حسبما اعترف مارجيو لاحقًا للشرطة، قتل مارجيو الرجل بعضّه عِرقًا في رقبته، قال إنه لم يكن لديه سلاح آخر. كان قد فكّر في قتله، مدركًا أنّ أنور السادات وهن ولم تبقَ له قوّة على مواجهة العراك بالعراك، ولكنّه استبعد أن تقدر قبضتاه على إنهاء حياة الرجل، ولم يتصوّر أنّ بوسعه خنقه. وما كان لكرسيّ إلا أن يكسر بضع عظمات فيه، وقد توقظ الضجّة مايسا ديوي. لم يكن قد رآها ولكنّه كان يعلم أنّها في غرفتها، كشأنها كلّ يوم.

خطرت له الفكرة على حين غرّة، كبارق من النور سطع في عقله. ذكر للشرطة أمر شيء يؤويه داخل جسمه، شيء عدا الأحشاء والأمعاء. اندفع ذلك الشيء ودفعه، وحثّه على القتل. كان بالغ القوة مثلما قال للشرطة، فلم يحتَجْ إلى سلاح من أيّ نوع. أمسك أنور السادات بقوّة. جفل الرجل ثمّ قاوم، ولكنّ القوة التي أمسكت بذراعيه غلبت مقاومته. شدّ مارجيو رأسه إلى الوراء، جاذبًا إيّاه من شعره، مانعًا إيّاه من الحركة. وغرز أسنانه في الجانب الأيسر من رقبة أنور السادات، كرجل يقبّل حبيبته في خشونة تحت أذنها، ولم يخلُ الأمر من تأوّهات ودفء محموم. واستولت الدهشة على الضحيّة فلم تستوعب ما الذي يجري. ولكن الألم النافذ والصدمة التي استشعرها في صدره أرغماه على التملّص، فركل في ثنايا ذلك كرسيًّا، أيقظ صوته وعواء أنور

السادات ابنته مايسا ديوي فقامت لتسأل من داخل غرفتها: "ماذا يحدث يا بابا"؟.

ولم يردّ أنور السادات إلا بعواء الموت. ولم يردّ مارجيو إلا بعضّة قاتلة، تمزّق قطعة من اللحم وتنتزعها، تاركة جرحًا نافذًا في رقبة الرجل. وتدلّت من اللحم الممزّق أوردة وأوتار رقيقة، واندفق الدم. وعلق اللحم عديم الطعم في فم مارجيو إلى أن بصقه فجأة على الأرض فتناثر هنا وهناك. بدأ أنور السادات يطير، ومضى حلقه يُصدر أصواتًا غير أرضية، بينما تلوّن وجه مارجيو بالدم المندفع.

سألت مايسا ديوي من جديد: "بابا، ما الذي جرى"؟.

كان أنور السادات يخفق بجناحيه، محمولاً على اللاوعي. وكان مارجيو لم يزل يحكم وثاقه بيديه، مانعًا إيّاه من الوقوع. وما كاد يسمع صوت مايسا ديوي الزاعق القلق، وحفيف البطانية، وصرير السرير، وصوت القدمين على الأرض، حتى غرز أسنانه مرّة أخرى في الجرح الأسود الغائر، في قبلة أخرى أحفل بالموت من سابقتها، مندفعة برغبة عارمة. أعمل فكّيه بمزيد من القوّة، مقتطعًا من اللحم قطعة أخرى، باصقًا إيّاها. وبقي على ذلك، يعضّ ويعضّ، كأنّما يدفعه جوع لا قرار له، جاعلاً الجرح أكثر غورًا واضطرابًا، وسال على الأرض الدم مويجات وفقاقيع ونثارًا في كل مكان.

أوشك أن يفصل الرأس، قاضمًا من رقبة أنور السادات إلى أن ظهرت القصبة الهوائية بارقًا من العاج في قلب الدم المتفجر. انفتح باب

غرفة النوم قليلاً ووقفت مايسا ديوي هناك في بجامة من الساتان الأبيض مرسوم عليها زهرة فاونيا، وعلى خدّها الأيسر أثر من المخدّة. وسرعان ما اتّسعت عيناها الناعستان، واندفعت يدها النحيلة تغطّي فمها وقد عجز عن إطلاق صيحة.

انحفر المشهد إلى الأبد في عينيْ مايسا ديوي، باقيًا فيهما لسنين، لم يطمسه شيء طوال عقود، صورة أقسى من أيّ فيلم رعب. رأت العنق المتهتّك، ولم يكن لحلوق الأبقار المذبوحة في عيد الأضحى أن تبدو بمثل تلك البشاعة. كانت كتل اللحم متناثرة على الأرض كأنّها صلصة الاسباجيتي، وصارت بلاطات الأرض البيضاء بخيوط الدم الأحمر أشبه بالعلم الوطني، وبقي مارجيو واقفًا في مكانه، وقد اكتسى وجهه بقناع من الدم القاني حتى أوشك أن يخفيه، وبدت يداه وقميصه مثيرة بالقدر نفسه للغثيان. تبادلا لوهلة نظرة تحمل أغرب درجات الوعي، في حالة أدرك فيها كلاهما شناعة ما جرى.

استشعرت مايسا ديوي عبقًا غريبًا كثيفًا أشبه بالرائحة الحرِّيفة يطفو في الهواء غيومًا رمادية، تحوم حول ضفائرها وترتعش حول كتفيها، بالغة الحدة حتى أوشكت أن تذهب بوعيها. استولت عليها أمور أخرى مرتبكة؛ مذاق عطن بغيض، طنين حشرات تحوم، تقلُّصات تعتصر أحشاءها. رأت مايسا ديوي غشاوة ساطعة وإن تكن غير مميزة، يشعُّ منها وهج يبهر عينيها، ويدفعها إلى الوراء حتى اصطدم رأسها بالباب، فسندها للحظة قبل أن تنهار على الأرض. ثَقُل جسمها، لا ثِقَل من يغلبه النوم في سلام، بل ثِقَل أميرة تنمسخ في

طرفة عين إلى حجر. لم ندرِ حتى كيف تصرخ، ولا أدركت أين هي. وأحدث فتات ما جرى ونثاره ضجة أيقظت طفلها، فجلس في سريره فاغرًا فمه، باكيًا، متبوّلاً، مناديًا أمّه بالطريقة الوحيدة التي يعرفها. وبقيت مايسا ديوي نائمة، منهارة على الأرض، بغير بطانية تغطّيها.

خفّف مارجيو قبضته، وابتعد عن أنور السادات، ووجد قبضة من شعر الرجل تسقط من بين أصابعه. رقص الجسد لوهلة، بلا إيقاع، قبل أن يهوي حطامًا على الأرض. نظر إليه مارجيو، مُمعنًا النظر، إلى أن استوثق أنّه مات. ولو لم يكن تهتك أوردة أنور السادات قد وضعه بين يدي ملاك الموت، لناب عنه رأسه المفلوق في إكمال تلك الشكليّات. بقي هناك طريح الأرض، عاري السرّة وقد انحسر قميص محل مجوهرات إيه بي سي التحتيّ مثل شيخ قليل الحيلة هاجمته كلاب أياك ضارية. وعلى تلك الحال سوف يعثر عليه ما سوما والآخرون.

افتُتن مارجيو بتلك اللوحة الرائعة، واهتزّت لها روحه بأكثر مما تهتزُّ لأيٍّ من المستنسخات الرخيصة المعلقة من أعمال رادين صالح فوق التليفزيون. مضت عاصفة تدور في رأسه. لم يستطع أن يتذكّر الطريق إلى الباب، ومضى يتحسّس عالمًا اسودّ فجأة أمام عينيه. ومثل أنور السادات، رقص لوهلة، مترنّحًا بدون أن يقع، قبل أن يوجّه نفسه إلى ما وراء الأريكة، تاركًا على الأرض آثار أقدام حمراء، ومن هناك أخذ مارجيو يزحزح نفسه بوصة بعد بوصة إلى أن خرج فانهار على أرض السقيفة الخارجية.

فرض عليه المذاق العالق في فمه ذكرى الجزرة، ودفعته الغريزة دفعًا إلى أن ينأى بنفسه عن المكان. وقف مارجيو على قدميه، غير أنّ قامته لم تستوِ منتصبة تمام الانتصاب، فمضى يتعثّر باتجاه شجرة ثمرة النجمة، وثمّة بصق آخر نسيرة من رقبة أنور السادات. رآها ترتطم بالأرض، ضئيلة في حجم قطعة من التوفو، ولمّا وقعت عينه عليها أوشك لمرآها أن يتقيّأ أحشاءه كلّها، واستولت على حلقه مرارة، وعفونة. استند الصبي على الشجرة، وتقيّأ المكرونة التي تناولها في الإفطار. ومرّ بعض الوقت قبل أن ينتهي اضطراب أحشائه. كان لم يزل يحاول التقيُّؤ وإن لم يبقَ في بطنه شيء بلفظه. ترك شجرة ثمرة النجمة، مقتفيًا ضجة المتراهنين وصفيرهم للحمام.

عندها خرج ما سوما من المسجد ورآه في سيره المترنّح والدم يلطّخه. استشعر أنّ في الأمر شيئًا فمضى يجري وراءه، وفجأة تجمّد وقد رأى مواطئ القدمين الدموية في الفناء آتية من البيت. رأى بِركة الدم المتدفق عند عتبة الباب، ودفعته قدماه إلى التقدّم، إلى أن وقعت عيناه على الجثة الطريحة المنتظرة في جلال. وإذا بعقله خواء تام، إلى أن همس فيه صوت مفسّرًا كلّ شيء. رفع مايسا ديوي واضعًا إيّاها على الأريكة، وتناول قطعة قماش ملوّنة فغطّى بها جثة أنور السادات. في الوقت نفسه، رأى شخص في جانب ملعب الكرة مارجيو فصاح:

"يا إلهي، أحدهم أشبع مارجيو ضربًا".

سكنت الضجّة واستدارت الرؤوس. وسار إليهم مارجيو، مُرغِمًا الدرّاجات النارية على الصمت. حملق الناس فيه كمن يرون شبحًا في وضح النهار. سكنت الطيور، وتوقّف الصغار عن اللعب، وتجمّد الزمن. أحاطوا به، محافظين على مسافة، وكأنّهم يتحسّبون لانفجاره. بقيت ألسنهم معقودة في أفواههم إلى أن لان لأحدهم ـوهو آجونج بوداـ سؤال فسأله:

"من الذي ضربك"؟

وقف مارجيو هناك لا يردّ عليهم ولا يفهم ما يقولون. تلك الوجوه المحيطة به كان يعرفها وفي الوقت نفسه لا يعرفها. اقترب آجونج بودا ـالذي لم يكن رأسه الغبي ليلمّ بأرجح التفاسيرـ من صديقه، وأخذ يتشمّمه ليتيقّن أنّ ما يلطخه دم حقيقي لا طلاء جدران. وما كاد يقنع نفسه بأنّ الوجه الذي يراه أمامه لا هو بالعذب ولا بالمهذب، بل هو وجه ترتسم عليه مأساة، حتى وجد تفسيرًا بسيطًا، وما كاد يسطع ذلك التفسير في رأسه حتى أدرك أنّه تفسير ذكي فعلاً، فخرج على الناس بإعلان ذي شأن:

"إنه ليس مصابًا". وتلك كانت معلومة صحيحة.

حلّ على رؤوسهم ليلٌ، تطفو على صفحته النجوم ويتدلّى فيه قمر جريح. بدأت تضاء مصابيح أفنية البيوت الأمامية ومصابيح الشوارع، ولم تعد الوطاويط واضحة إذ ابتعلت الظلمة أجسامها السوداء. وجاء جوني سيمبولون، فاقتاد مارجيو إلى المركز العسكري

الثانوي، وكان هذا هو المتّبع دائمًا قبل إرسال مشبوه إلى نقطة الشرطة. فقد كان في ذلك تسلية لازمة للجنود في جمهورية لم تعد في حالة حرب. أغلقوا عليه زنزانة وألبسوه زيًا أسود تنضح منه رائحة النفتلين والخزائن الخشبيّة، وتركوه يتكوّر على نفسه فوق حشيّة وأمامه كوب من الحليب الدافئ لم يشربه، وطبق أرز بالتونة لم يمسسه.

زاره الرائد سِدْرَه بعد صلاة الجنازة ليطمئن أنّهم لا يُسيئون معاملته. وكان الجنود يتحرّقون دائمًا إلى معاملة الفريسة المعتقلة بأشدّ أشكال المعاملة فظاظة. وكانوا لا يزالون يحترمون المحارب القديم ويستمعون إلى كلامه. فسارع إلى هناك حيث تجمّع الناس محيطين بتمثال نمر سيليوانجي[8] وسارية العلم ضاحكين، وما كادوا يرونه حتى التفتوا إليه في ترقّب، راجين أن تتكشّف لهم قصة أكثر إثارة.

قال جوني سيمبولون: "لقد اعتقلته منعًا لثأر لا داعي له".

قال المحارب القديم: "كلام فارغ. ليس لأنور إلا ثلاث بنات".

ولكن كان هناك الأقارب، وغيرهم ممن يُحتمل أنّهم غير راضين عن قسوة ما وقع في حيّهم. طلب منهم سدره أن يُبقوه في الزنزانة حتى الفجر حينما تأتي الشرطة. وتساءل كيف سيكون ردُّ فعل مهراني حينما

---

٨. الملك سيليوانجي Siliwangi شخصية شبه أسطورية، كان ملك مملكة سوندا الهندوسية قبل دخول الإسلام إلى جاوة الغربية. ونظرًا لطبيعة الشخصية الأسطورية، يتعذر على المؤرخين الربط بينه وبين أي ملك معين، ويربط التراث الشعبي بينه وبين حيوانات مختلفة، منها النمر، ومنها الفهد ذو الخطوط البيضاء والسوداء.

ترجع إلى البيت في صباح الغد وترى أنَّ أباها قد قُتل، وأنَّ القاتل هو الصبي الذي أخذها إلى الفيلم. كانت الجريمة قد انتهت، ولكن القاتل كان مستهدفًا بسبب الروح الفاسدة الكامنة وراء الجريمة، وبسبب الدافع السرِّيِّ الذي لم يفهمه أحد بعد. كانت امرأته التي رافقته لم تزل وسط النساء المعزِّيات، وهمست بما أصبح معروفًا بين الجميع، وهو أنَّ الفتاة مجنونة بمارجيو. ولكن الرائد سِدْرَه لم يكن قد رأى بادرة على اعتراض أنور السادات.

قادته قدماه إلى الزنزانة، وقف مجاورًا الباب يشاهد مارجيو وهو يرتعش على الخشبَة، راجيًا أن ينكشف السرُّ بمجرّد طرحه سؤالاً بسيطًا. ولكن المرارة والشفقة ثقلتا عليه، ومنعتاه من الكلام، وبينما يجاهد نفسه استدار إليه مارجيو وفهم سؤاله المكتوم.

في هدوء، ودونما إحساس بالذنب، قال: "لم أكن أنا، إنما نمرة بداخلي".

اثنـــان

كانت النَّمرة في بياض بجعة، وضراوة أياك. رأتها مامه ذات مرَّة، بل لمحتها لمًا وهي خارجة من جسم مارجيو خروج الظل. ثُمَّ لم ترَها بعدها مرَّة أخرى. كانت علامة واحدة تقول إنَّ النَّمرة لم تزل بداخل جسم مارجيو، ولم تكن مامه تعرف إن كان أحد رآها. علامة لا تعدو بريقًا أصفر يلمع في الظلمة في بؤبؤي مارجيو. في أوَّل الأمر كانت مامه تخشى أن تنظر في تَينِكَ العينين، يُفزعها احتمال أن تخرج عليها النَّمرة بالفعل. لكن مع الوقت وكثرة التعرُّض لمارجيو، اعتادت رؤية ذلك النور في عينيه في الظلام، ولم يعد يثير في نفسها قلقًا على الإطلاق؛ فلم تكن النَّمرة عدوَّة لها ولم تكن لتؤذيها، ولعلَّها لم تكن موجودة إلا حمايةً لهما.

مارجيو نفسه صادفها ذات مرَّة، كان يستيقظ من نوم غلبه وهو وحده في المسجد قبل هروبه بأسابيع. مسَّ ذيل النَّمرة الراقص المزغب قدميه العاريتين فأقلق نومه. حسِب للحظة أنَّ ما سوما يربِّت عليه ليوقظه استعدادًا لصلاة الصبح. فتح عينيه لا ليرى بخار القهوة على

صينية أو طبق أرز مقلي، بل ليرى نمرة بيضاء مستلقية بجواره، تلعق أقدامها. كان ذلك بعد الفجر، وقد وضعت السماء في مواجهة العالم ما لا نهاية له من الرماديّ الرطب. بدا واضحا أنّ المطر ظلّ ينهمر طيلة الليل، وأنّ أحدًا لم يخرج من بيته لأداء الصلاة. ذهل مارجيو كما ينبغي له، ولم يملك إلا أن يحملق في الحيوان الهائل وهو رابض يتأنق في هدوء.

عرف أنّ الحيوان ليس حيًا بحقّ. كان على مدار أعوامه العشرين على هذا الكوكب قد دخل إلى الغابة القائمة على حافة البلدة كثيرًا، وخرج منها كثيرًا، ولم يرَ قط شيئًا كذلك. صادف في الغابة خنازير، وفهودًا صغيرة غائمة الفراءات، وكلاب أياك، لكن ما من نمور بيض في حجم البقر أو تكاد. ذكّره النمر بجدّه الذي وافته المنية قبل سنوات، اغرورقت عيناه ومدّ يده ببطء يتلمّس قدم النَّمرة الأمامي. كانت هناك بالفعل، بفراء ليِّن كأنّه منفضة من الريش. بدا أنّ في قبضها مخالبها بادرة صداقة، ولمّا رفعت قدمها، امتدّت إليها يد مارجيو من جديد، فربّتت عليها النمرة تربيتة قططية مرحة. حاول مارجيو أن يمسك بالقدم، فانقلبت النمرة مبتعدة عنه، ثمّ ربضت مستعدّة للهجوم. وقبل أن يبتعد مارجيو، كانت النَّمرة قد اندفعت وبدأ الصراع بين الاثنين. كان طريح الأرض، ممدّدًا على ظهره، مكتوم الأنفاس، حينما تراجعت عنه النَّمرة، وجلست بجواره، واستأنفت لعق أقدامها. فمضى مارجيو يربّت على كتفها برقّة.

قال: "جدّي"؟.

كان جدُّه يعيش في قرية بعيدة، فكان مارجيو يذهب بواسطة درّاجة ناريَّة أجرة إلى حافَّة الغابة حيث تصطفُّ أكشاك صغيرة تُعرف بسوق الجمعة، وتقوم مقام محطَّة لمركبات عديدة تقطع الطريق الترابيَّ الصاعد. كان بوسع عربة يجرُّها ثور أن تتقدَّم صاعدةً التلّ، في حين كان يصعب على الدرّاجات الناريَّة أن تفعل ذلك، وينفر من ذلك سائقو سيَّارات الأجرة. فكان مارجيو من أجل زيارة جدِّه يصعد التلَّ على قدميه في مسير مجهد وسط شجر الأليزيا وغابات القرنفل، ماضيًا في طرق على جوانبها شجر ماهوجني، متوغّلاً في أماكن من الغابة لا يألفها غير الصيَّادين. كان ينفق زهاء ساعة ليعبر التلّ المألوف لمارجيو بقدر ما هو مألوف للخنازير التي ستكون طرائد له في يوم من الأيام. وكانت من وراء التلّ قرية صغيرة تتاخم مدرسة فيها حقول أرز وبِرَك سمك. لم يكن جدُّه يعيش هناك، ولكنَّ مارجيو كان يجد الراحة في ذلك المكان. بات يعرف كثيرًا من أهله بعد أن مرَّ من هناك مرَّات ومرَّات، ولكنَّه ما كان ليملك أن يتسكّع هناك طويلاً. بل كان عليه أن يكمل رحلته قبل حلول المساء وتوقُّف عمل المعدّية. لم تكن المعدّية غير طوف من عيدان البامبو مربوطة إلى حبل مشدود عبر النهر. وكان المراكبي يقف في المقدِّمة ويشدُّ الحبل ساحبًا الطوف ببطء إلى الناحية الأخرى، فإن دفع التيار الطوف استعمل قضيبًا طويلاً في ضبط توازنه، ولكنَّ النهر كان عريضًا، والتيَّار فيه هادئ، وهو خالٍ من التماسيح، وإن تكن فيه روح النهر، وهي موجة هائلة غاضبة لم يرَها أحد قطُّ، وإن خشيها الأطفال ورهبوها رهبة عظيمة. لم تكن الأجرة تعدو عشرة

بنسات، وكان الطوف يحمل عشرات الناس، وكذلك الأبقار والماشية وأجولة الأرز وغير ذلك من المحاصيل. ولم يكن النزول من الطوف نهاية رحلة مارجيو؛ إذ كان عليه أن يصعد بعد ذلك تلاً آخر عبر طريق زلق. ومن قمَّة ذلك التلّ، كان يرى مساحة شاسعة تحته من حقول الأرز. وفي منتصف تلك الأرض قرية صغيرة، مليئة بالخضرة والبيوت، كأنها واحة في صحراء تكاد أشجار الجوز فيها تمسُّ السماء. وهنالك كان يعيش جدُّه.

قام مارجيو بتلك الرحلة وحده للمرَّة الأولى وهو في الثامنة. وبعد ذلك صار ينتهز كلّ فرصة ممكنة للذهاب إلى هناك، ورؤية جدّه، برغم استغراق الرحلة نصف يوم. كان دائمًا ما يطيب له الوقت هناك، ودائمًا ما يرجع إلى البيت بحزمة من الموز أو سلّة من ثمر اللانسيوم أو ثمر الدوريان، فتسرّ به مامه، وكذلك أمُّه وأبوه. وفي بعض الأحيان كان يرغب في الذهاب ولا يجد مالاً للدرّاجة النارية الأجرة فيمشي إلى سوق الجمعة، ويواصل السير من هناك إلى أن يصل إلى بيت جدّه، سعيدًا برغم إنهاكه. سلك ذلك الطريق كثيرًا، حتَّى صار بوسعه أحيانًا أن يغيِّر وجهته، وقد صاحب من القرية بعض أهلها، وصاحب من الغابة بعض الجنّ الذين يستوطنونها. وفيما بعد، لم يكن زملاؤه في صيد الخنازير يخشون أن يضلُّوا طريقهم في الغابة ما دام هو برفقتهم.

برغم رأسه ذي الشعر الفضي، لم يكن الجدُّ منحني الظهر، بل هو قوي البنيان موفور الصحَّة. وظلّ في كامل صحَّته إلى اللحظة التي مات فيها وهو في سريره، تاركًا جسدًا سليمًا معافى لمن يعثر عليه بعد ذلك

في الكوخ. كان في كلّ يوم يولي عنايته بحقل أرز ومزرعة إلى أن تبدّد ذلك كلّه ولم يبقَ منه أثر بسبب صفقة أبرمها والد مارجيو. كان مارجيو يحبُّ جدَّه بحق، وكان الشيخ يصطحب الصبيَّ إلى جدول يسمّيه مملكة الجان، ويقول للولد دائما إيَّاك إيَّاك أن تشاكس بنتًا من بنات الجنّ، لكن إن وقعت إحداهنّ في غرامك فخُذْها، فهي نعمة وبركة. كان جدُّه يقول إنّ بنات الجن جميلات جدًّا، فكم تمنّى مارجيو أن يأتي يوم يقابل فيه إحداهنّ وتقع في غرامه، وظلّ ذلك الوعد أسير المستقبل مهما تكاثرت زياراته إلى الجدول.

وأعجب من قصّة الجنيّات قصّة نمرة جدّه. تقول حكّاءة القرية "ما مواه" إنّ لكثير من رجال القرية نمراتهم. فمنهم من تزوّجها، ومنهم من ورثها عبر الأجيال. وجدي ورث واحدة عن أبيه، وكانت من قبل لأبي أبيه، وهكذا من أب إلى أب حتى أقدم أجدادهم. فلم يكن أحد يتذكّر مَن أوّل مَن تزوّج النّمرة.

في الليالي الدافئة، كانت ما مواه تحكي الحكايات في سقيفة بيتها، ويتحلّق الأطفال حول ساقيها متناوبين تدليك كتفيها. وإن كانت تغزل عند العصر فإنّ البنات يفلّين رأسها من القمل. وكانت لديها دائمًا قصّة جاهزة. لم يكن عليها أن تؤلّف أيَّ شيء، فكلُّ القصص كما كانت تقول قصص حقيقية. ومثل النّمرة كانت القصص تنتقل من الحكّائين إلى الحكّائين في سلسال ممتدّ عبر الأجيال. ولكنّ البعض كان قصصًا من الحاضر لا يفهمه إلا المختارون، وطبعًا كانت ما مواه هي الجدَّة المختارة.

بحسب ما يتذكَّر مارجيو، لم يكن لما مواه زوج أو ولد، ولم يكن لها كذلك عمل تعمله، إلا أن تُجري القصص على لسانها بلا نهاية. كان بوسعها أن تدخل مطبخ مَن تشاء فتأكل، أو يأتي إلى كوخها شخص بالطعام. كان الناس يحبُّونها، لا سيَّما الأطفال. وكانت لديها قصة عن امرأة عمياء في شعرها بدلاً من القمل عقارب وثعابين، ولا تأكل غير جذور بردي الجوز القرمزي. وقصَّة عن جِنيَّة من أميرات الجنّ تخطف الشبَّان الوِسَام وتمضي بهم إلى حيث تعيش. لم يكن الجانُ أشرارًا ما لم يقتحم المرء أماكن سكناهم. وكان مارجيو قد عرف تلك الأماكن، لا سيَّما الينابيع والبحيرات النهرية وقمم التلال والشجر الهائل ومآذن المساجد. ومع ذلك كله، لم يكن يؤجّج فضول مارجيو مثلُ النَّمرة البيضاء الحامية.

كانت ما مواه تحكي أن النَّمرات تعيش مع أصحابها وتحميهم من جميع الشرور. وقالت إن جدَّ مارجيو واحد ممَّن لديهم نمرة بيضاء، لكنَّه لم يحكِ لحفيده قط عن تلك النَّمرة وكان يقول إنَّ مارجيو لا يزال صغيرًا وقد لا يكون بوسعه أن يروِّض حيوانًا بتلك الشراسة. وكانت النَّمرة أضخم من الفهد ذي الفراء الغائم، وأضخم من النُّمور التي يراها الناس في حديقة الحيوان أو السيرك أو الكتب المدرسيَّة. ومن لا يستطيع من الناس ترويض حيوانه، فقد يفلت منه وينطلق عنفه، ولا يكبح جموح غضبه كابح.

قال مارجيو: "لكنَّني أريد فقط أن أراها".

"فيما بعد، ربما تكون ملكًا لك يومًا ما".

سمع الكثير عن بسالة جدِّه، وبسالة غيره من الكبار في القرى الأخرى، وكيف قاوموا مساعي الهولنديين إلى خطف أفضل الشباب وإرغامهم على العمل في أرضهم. لم يكن الرصاص ليؤثر فيهم ولا سيوف الساموراي التي جاء بها اليابانيون من بعد الهولنديين، وكانوا إذا غضبوا، طلعت النَّمرات البيضاوات من أجسامهم لكي تهاجم. بل إنَّهم طردوا عصابات دار الإسلام[٩] التي كانت تهيم في الأدغال. قالت ما مواه إن كلَّ تلك البسالة إنَّما هي بسبب الصداقة الأصيلة بين أولئك الكبار والنَّمرات، الصداقة التي تحولت برابط الزواج إلى قرابة.

لم يفهم مارجيو قط ماهيَّة تلك الزيجات ومعناها. ولا تخيَّل كيف يجلس رجل على منصَّة العرس بجانب نمرة ترتدي على رأسها طرحة الزفاف، وتجمِّل خدَّيها المزغبين بالبودرة، وخطمها بطلاء الشفاه، بينما يدعو الشيخ أن يبارك الله القدير زواج فلان ابن فلان من هذه النَّمرة. وفي مراهقته استغرب كثيرًا من ممارسة رجلٍ الجنسَ مع زوجته النَّمرة، وفكَّر في شكل الأطفال الذين قد يُولَدون من جرَّاء ذلك القران. فكان يرى فم ما مواه الخالي من الأسنان إذ تضحك ملء شدقيها كلَّما كلَّمها عن تصوُّرِه ذلك للزواج بين الإنسان والنَّمرة.

٩- Darul Islam جماعة إسلامية مسلحة، تأسَّست في عام ١٩٤٢، وسعت إلى إقامة دولة إسلامية في إندونيسيا.

قالت ما مواه: "الرجال فقط يتزوَّجون النُمرات، وليس جميع النُمور إناثًا".

كانت لجدِّه زوجة بالطبع، زوجة بشريَّة؛ وهو ما جعل النَّمرة أقرب إلى ضرَّة. ولم يتزوَّج جدُّه النَّمرة قطُّ، بل ورثها عن أبيه، ومع ذلك بقيت للأسرة زوجة أخرى، لها نصيبها من المحبَّة والاحترام، بل وكان نصيبها ذلك يفوق في بعض الأحيان نصيب الزوجة البشريّة. كانت الجدَّة أوَّل مَن مات مستسلمًا لجزيرة السُّلّ العاتية. خرَّب المرض لياليهم بسعال متواصل وحمًّى لا تنتهي فمضى جسدها يتضاءل حتى وصل إلى المقبرة. لم يتزوَّج جدُّه بعدها قطّ. فلعلَّه اكتفى بزوجته النَّمرة، برغم أنَّه لم يعِشْ طويلاً، وقد ثقل عليه الحزن لفراق الجدَّة.

وذات مساء، في آخر زيارة قام بها مارجيو قبل وفاة جدِّه، قال العجوز في جدّية: "النَّمرة في بياض بجعة".

أراد الجدُّ أن يعرف مارجيو النَّمرة إن جاءت إليه. أضاف إنَّها إن شاءت فقد تذهب إلى أبي مارجيو وتصبح ملكًا له. وحينئذ يكون على مارجيو أن ينتظر إلى حين وفاة أبيه لكي يحوز النَّمرة. لكن إذا لم يعجبها أبو مارجيو، فقد تأتي إلى مارجيو نفسه يومًا ما، وتصير ملكًا له.

سأل مارجيو في قلق: "وإذا لم أعجبها"؟

"تذهب إلى ولدك، أو حفيدك، وقد لا تعاود الظهور إذا نسيتها عائلتنا".

وجاءته النَّمرة، فاستلقت بجواره على سجادة المسجد الدافئة، بينما الكون كلُّه يتجمَّد بالخارج. ومثلما قال جدُّه من قبل، كانت النَّمرة في بياض بجمة أو غيمة أو قطعة من القطن. فرح يومها فرحًا لا يصدَّق، فقد كانت النَّمرة تفوق أيَّ شيء سبق أن حازه. فكَّر كيف أنَّها سوف تصطاد معه، وتعينه على محاصرة الخنازير البريَّة التي تخرِّب حقول الأرز، فإن فتر أو توانى أمام هجمة من خنزير أو اثنين، حمته هي من أسوأ ما قد يصيبه. لم يخطر لمارجيو قطّ أن تظهر ذات صباح قارس البرودة، فتسلِّمه نفسها شأن فتاة. مستلقية، لم تزل تلعق أطراف أقدامها، بلسان مرتعش. بدت لوهلة أشبه بقطَّة منزلية عملاقة، مهيبة، أرستقراطية، ضخمة. نظر في وجهها بعمق، فرآه بالغ الجمال، ووقع الولد في شرك الحب.

أحاط رقبتها بذراعه، معانقًا إيَّاها، مستشعرًا دفء فرائها على جسمه. بدا ذلك كعناق فتاة في صباح بارد، وكلاهما عارٍ تمامًا في الفراش، وكلاهما بالغ الرأفة بالآخر بعد ليلة طويلة من الحب. أغمض مارجيو، منتشيًا بعد طول انتظار، متخفِّفًا أخيرًا من الشوق، راضيًا وقد ثبت أنَّ الحكايات التي ظلَّ يسمعها منذ طفولته كلُّها حقيقيٌّ. وبغتة شعر بلطمة الفقد. لقد تركته الحبيبة دونما كلمة وانسرب معها الدفء. فتح مارجيو عينيه ورأى الحيوان وقد اختفى.

بات حينذاك أشدَّ اندهاشًا منه حينما رآها للمرَّة الأولى. وقف الصبي، ومضى يبحث عنها، لكن المسجد كان صغيرًا، فسرعان ما أدرك أنَّها ذهبت وأنَّه لن يعثر لها على أثر، ولا حتى قطعة من فراء.

كان المطر لم يزل ينهمر بشدَّة فيتذمَّر الأطفال الذاهبون إلى المدارس. وفي أوقات انصبابِ المطر بهذه الشدَّة تُنتزع أوراق شجر الموز لتكون مظلاَّت للاستعمال مرَّة واحدة، ولكن مارجيو لم يكُنْ يفكّر في شيء من ذلك. لم يكن يفكّر في غير نمرته. فتح فمه وهو واقف لم يزل في مكانه يريد أن يصيح بشيء فلم يصدر عنه صوت. لم يَدْرِ بأي اسم ينادي النَّمرة. جدُّه لم يخبره باسمها قطُّ، ولا مامواه. ربما كان يفترض به أن يسمّيها بنفسه، غير أنَّ ذلك أمر لم يكن ذا جدوى كبيرة وقد اختفت الحيوانة عن الأنظار.

ربما يكون قلبه قد انفطر إحدى عشرة مرَّة بسبب بنات أحبَّهُنَّ من أعماق قلبه، ومع ذلك كان الألم الذي استشعره في تلك اللحظة أقسى عليه ممَّا لو اجتمع كلُّ الرفض الذي سبق أن قوبل به. قاوم كي لا يبكي. وقال لنفسه، لا، لم يكن حلمًا. لقد جاءته لأنَّها ملك له. استشعر طراوة فرائها، لعبا معًا. كان الأمر أصدق من أن يكون حلمًا صباحيًا صامتًا. بحث عنها طويلاً طويلاً، حتى تيقّن أنَّها ذهبت، فتحوَّل انفطار قلبه إلى استياء. ارتعش وشدّ على أصابعه. لم يشعر من قبل بمثل ذلك الغضب الشرس العدواني، ولم يستطع أن يجد مهربًا منه، فبات عليه أن يحتمل الألم. لقد أوقعَتْه في الحب، في ذروة سنوات الشوق، ولن يقبل بالهجران على ذلك النحو.

أخذ يضرب الباب، ويخمشه، إلى أن تقشّر الطلاء الأخضر الداكن عن ألواح خشبه الماهوجني، واندفعت من فمه غمغمة ثقيلة فتناثرت في الهواء. أذهله عمق خشاته. وقف مارجيو ساكنًا صامتًا بينما

أخذ غضبه يفتر. شخص إلى ثلاث خمشات متوازية، كانت لتصبح جراحًا غائرة لو أنّها في ظهر إنسان، ثمّ تفحّص يديه. لم تكن أظافره طويلة؛ إذ كان يُبقيها قصيرة لكي لا تعوقه عن الإمساك برمحه في صيد الخنازير. ما كانت أظافره لتُحدث آثارًا كتلك التي تواجهه في الباب. ومع ذلك كان يرى قشور الطلاء وألواح الخشب تحت أظافره. شلّت الدهشة والحيرة مارجيو لحينٍ من الوقت إلى أن فهم ما لا بدّ أنّه قد حدث؛ هي لم تتركه. النّمرة موجودة، بل هي جزء منه، ما لأحد منهما أن ينفصل عن الآخر حتّى الموت. انحنى على الجدار يتحسّس بطنه عند السرّة، وقد استشعر النّمرة مقيمة أسفلها، غير مروّضة بعد.

قال لآجونج يودا هازلاً: "لم أعد أعزب".

فظنّ آجونج يودا أنّه يعني بذلك أنّه فقد بكارته، ولم يكن ذلك بالخبر الذي تهتزّ له الأرض فلم يُبالِ كثيرًا بقوله. تصوّر أنّ مارجيو يريد أن يتباهى بنومه مع الفتاة مهراني. ومَن غيرها؟ لقد رآهما معًا في الإجازة. وهكذا لم يكتشف أحد أنّ في جسمه نمرة، إلا مامه التي لمحتها لمحًا في إحدى المرّات، إلى أن اعترف مارجيو نفسه بُعَيد قتله أنور السادات.

في الليلة السابقة على لقائه بنمرته، كان قد قال لأخته مامه للمرّة الأولى إنّه يريد أن يقتل أباهما. وكانت مامه قد سمعت ذلك من قبل من شخص آخر. فقد كان مارجيو يلعن أباهما ويسبّه مرارًا في موقع كشك الحراسة، وقال في أماكن أخرى مثل قوله ذلك ـ كقوله إنّه سوف يقتل

قومار بن سايووِب إن سنحت له الفرصة. ولكنَّ شيئًا من ذلك لم يحدث، ولم يبدر ما يشير إلى احتمال وقوعه. فلم يعُدْ ذلك استياء ولد من أبيه، وغضبًا كذلك الذي يتلاشى بمرور الزمن. فلمَّا قال مارجيو ذلك لمامه، تجاهلته الفتاة أيضًا، أو لعلَّها كتمت في نفسها الأمل بأن يقدم حقًّا على تنفيذ ما قال.

في ذلك الوقت لم تكن قد رأت بعد ذلك البريق القططيّ في عيني مارجيو، لكنَّها كانت تستشعر الغضبة إذ تتصاعد كالنَّار حتى أعلى رأسه. واحتدم ذلك الشعور أكثر فأكثر في الأيام التالية التي أعقبت وفاة شقيقتهما الوليدة ماريان عن عمر أسبوع واحد. أبعدت مامه السكاكين والسواطير عن متناول مارجيو، وأبقت عينيها عليه طيلة الوقت. لم تكن في الحقيقة تبالي إن قتل أباهما فعلاً، ولكنَّ كلَّ ركن ممَّا بقي لها من رجاحة عقل كان يدفعها إلى كبح تلك النوايا الحمقاء.

غاضبًا من نفسه وقد أدرك أنَّه لن يقدر على تنفيذ تهديده، ترك مارجيو البيت. وفي ذلك الوقت كانت خيام مضاءة في ملعب كرة القدم، وبنات يبعن تذاكر، وصريخ فيلة يتعالى وزئير نمور. وحينما كان يأتي سيرك هوليداي إلى حيِّهم يظلُّ يقيم عروضه فيه طوال أسبوعين. وما كان بوسع أحد أن يتنبَّأ بوصوله، فقد كان يمكن أن ينقضي عام أو اثنان -بل وخمسة مثلما حدث في إحدى المرَّات- قبل أن يعاود الظهور. وكان مجرَّد حضوره متعة عظيمة لأهل البلدة، مهما ألفوا فقراته التي لم يتغيَّر منها الكثير على مدار السنين، فيما عدا البنات

الصغيرات اللاتي يُطلَق عليهن "البنات البلاستيكيات"، فأولئك استبدل بهن مضيفات أصغر وأكثر احمرارًا.

مضى وحده، فقطع تذكرة في هدوء، حاشرًا يديه في جيبي بنطاله الجينز القذر. لم يكن قد حضر إلى السيرك منذ زمن بعيد، فآخر مرّة له هناك هي التي اصطحبه فيها أبوه قديمًا وهو صبي صغير، ولكنَّه في هذه المرَّة لم يكن مدفوعًا برغبة في أن يرى ما يبهره، بل بالحاجة إلى نقع نفسه في نهر من الناس، وفقدان ذاته في الصخب، والاختباء. اختار كرسيًّا في أعلى صفٍّ، يوشك أن يلامس السقف، وجلس مُسندًا ذقنه إلى يده في انتظار أن يبدأ العرض.

كان عقله خاويًا حينما بدأ مدير السيرك، بسترته السوداء وربطة عنقه الفراشة المتصلّبة، يرحِّب بهم بابتسامة جامدة، مُلقيًا عليهم كلمة قصيرة أوجز فيها رحلة السيرك عبر الأرخبيل الإندونيسي. وصف السفينة التي قدَّموا عليها عروضهم في يوم البحرية، وجلجل صوته وهو يشرح خطوط عروضهم القادمة. وحتى حينما ظهرت امرأة جميلة ترتدي قبعة عالية مزيَّنة بريش طاووس، مرتدية صدرية حمراء لامعة، وجوارب طويلة سوداء، وحذاءً أحمر لامعًا، وجيبة في مثل لونه قصيرة تكشف عن سروالها، ومضت تتلو فقرات العرض عبر شفتين قرمزيتين قاتلتين، بقي مارجيو غافلاً في تأمُّله، بعيدًا عن الأفكار القذرة التي عادةً ما كانت تراوده كلَّما رأى امرأة جميلة في زيٍّ مثير.

مضيّقًا عينيه، مُسندًا ذقنه إلى قبضته، محصورًا من جانب بامرأة بدينة وابنها الصغير وهما يأكلان الفول السوداني مصاحبين الموسيقى بالقرمشة، ومن الجانب الآخر بشاب غير مريح لم تتوقف صديقته عن الاحتكاك به واستفزازه إلى معانقتها. لعلّه كان متحسّبًا لوجود مارجيو، الذي كان يغلي في هدوء، وتمنع لغة جسده أيَّ مجال للاقتراب.

كان مارجيو قد جاء راجيًا أن ينسى الغضب الذي خرج به من البيت، وأن يشاهد الفتيات البلاستيكيات، وألا يفكّر في شيء أشدّ فتنة من أولئك البنات الضئيلات وسيقانهن المتضافرة فوق مائدة مستديرة أو المتدلية من حبال متقاطعة. أغمض لكي لا يرى القرَدة وهي تدور مع دوائر النار على الدرّاجات الناريّة الضئيلة. ولمّا توقفت، كان يعرف أنّ المدرِّب سوف يدفع الدرّاجة في كآبة إلى الأمام. ولم يكُنْ مارجيو يريد أن يرى الببَّغاء على الدرّاجة، وهي الفقرة التي كانت تدفع الأطفال إلى التصفيق. كان المهرّجون يثيرون في نفسه الضيق أيضًا، ويجعلونه يتمنَّى لو أنّه قادر على إخفائهم بإشارة من أصابعه. وحتى حينما ظهرت لاعبات الأكروبات والفتيات البلاستيكيات، فمضت إحداهن تقفز على الأخرى لتشكيل هرم إنساني سرعان ما تهاوى على أبدع نحو يمكن تخيُّله، شاهد ذلك في برود. فلم يؤثّر فيه المنظر إلا أقلّ تأثير.

أوشك مارجيو على القيام والذهاب للشرب في كشك آجوس سفيان حين أخرجوا إطارًا حديديًّا مسطّحًا. عرف ما يعنيه ذلك. مغروزَ القدمين في مكانه، انتظر بقلب خافق متواثب. كان فريق السيرك يعمل بسرعة وحذر، وسرعان ما بات قفص هائل يبلغ ارتفاعه عشرين قدمًا

جاهزًا، وسمع مارجيو زئير حيوان جعل الدم يندفع في عروقه وقلبه يزداد سرعة على سرعة. لم يعد يسند ذقنه على يده. بل تهاوت يداه على ركبتيه، وأغرق العرق قميصه. وانتظر في منتهى الصبر، مشاهدًا باب القفص إذ يوصل بمؤخرة شاحنة، بينما يقف في الجوار مروِّض وحوش في زيٍّ فضيٍّ لامع، فاردًا سوطه الناهر. ثُمَّ انفتح باب الشاحنة وفي تمنُّع سار الحيوان البديع باتجاه القفص، مستديرًا بين الحين والآخر إلى الوراء، إلى أن أرغمه المروِّض على التقدُّم، ضاربًا بسوطه الأرض في تهديد، فوثب النَّمر وقد بدا عليه الضجر إلى منتصف القفص.

طغى عليه الحنين، وتدافعت عليه الذكريات القديمة وهو يشاهد الجسد المخطَّط يصعد ويجلس على مقعد خشبي دائري عالٍ. ثمَّة جثم وحكَّ أنفه. وللدقَّة، لعق قدمه ثُمَّ مضى يمسح بها وجهه. لعلَّه استيقظ قبل قليل، أو كان يتزيَّن لمواجهة السيِّدات والسادة من الجمهور. ولم يمضِ وقت طويل حتَّى دخلت وليفته، وبرفقتها اثنان من الأسود الهندية. لم يكن النَّمران في بياض البجع، بل هما بنيَّان، بلون صور الفوتوغرافيا القديمة. لكن برغم هذا، وبرغم أنَّهما لم يكونا في ضخامة البقر، لم يكن ينقصهما من البهاء شيء. شعر مارجيو بقرابة بينه وبينهما، وأهاجت رؤيتهما ـ على غير توقُّع ـ نفسه، وكأنَّما كان القدر يقود الأحداث فلم يكن عليه إلا أن يواصل الحركة.

لوقت طويل بعد وفاة جدِّه، ظل يهدر الأيام في انتظار نمرته البيضاء. وبدأ يشكُّ أنَّها ربما أصبحت ملكًا لأبيه. ولعلَّ ذلك كان سبب حذره من قومار بن سايووب، ومراقبته إيَّاه تحسُّبًا لظهور أيِّ علامة

تشي بوجود النَّمرة. على مدار كلّ تلك السنوات، لم يرَ أيَّ إشارة تلمح إلى وجودها، ولكن لم تظهر أيضًا أيُّ علامة على عكس ذلك. وخلال تلك الشهور الحافلة بالغضب، كان يحترق بغيرة لا كابح لها. وكالعفريت كان مارجيو يراقب قومار بن سايبووِب من الخفاء، من القريب والبعيد، ليرى إن كان يتواصل على أي نحو مع الحيوان. إلى أن تعب في آخر الأمر، فتقبّل فكرة أنّ النَّمرة إما صارت ملكًا لقومار بن سايبووِب أو أنّها لن تكون ملكًا لابنه إلى الأبد.

غيَّرت ليلة السيرك ذلك. حينما انتهى العرض وأخذ يشقُّ طريقه وسط الزحام، وقد أرجع من جديد يديه إلى جيبيه، كان عقله مليئًا بصور الأجسام غير المروَّضة. لم يستطع أن يصرف عن عقله عمًّا رآه، ولمَّا رأى رسمة النَّمر على جدار الخيمة، اجتاحه الشوق الهائج من جديد، كمَن رأى امرأة مُغوية. تحت مصباح مضاء، وقريبًا من طنين محرّك الديزل المجاور لشبَّاك التذاكر، استند مارجيو إلى السياج فأوشك أن يرجع إلى الداخل، ملهوفًا إلى لقاء آخر من النَّمرين، حينما أدرك أنّه لا يملك من المال ما يكفي لتذكرة ثانية. سار بمحاذاة سياج السيرك، راجيًا أن يلمح الحيوانات في قفصها في وسط ملعب كرة القدم، لكن بدا أنّ العاملين في السيرك قد أغلقوا عليها الأقفاص وأحكموا إغلاقها. كان دمه ساخنًا، وخطر له احتمال أن تكون نمرة جدّه قد دخلت إلى جسمه بالفعل، وأنّ ما كان يلزمه حقًّا هو أن يعثر على سبيل إلى إخراجها.

لم يرجع في ليلته تلك إلى البيت. أراد أن ينفرد بنفسه، لا ترافقه إلا النَّمرة في رأسه. مضى إلى المسجد قرب منتصف الليل، وثمّة رقد مشاهدًا النَّمرة على السقف، وفي المحراب، وتحت القبّة، وفي كلّ مكان. منذ أن كان ولدًا صغيرًا وهو ينام في المسجد أو في كشك الحراسة، فلعلّه كان يقضي من الوقت في هذين المكانين أكثر ممّا يقضي في بيته. حلم في تلك الليلة بأميرة من الجان تخرج من نبع، سائلةً إيّاه أن يتزوّجها، وبدت الأميرة في شكلها مثل مهراني. فلمّا استيقظ في الصباح التالي، كانت نمرة بيضاء مستلقية بجواره. وتلك كانت بداية كلّ شيء.

ليس بوسع مارجيو نفسه أن يفسّر سرَّ غضبه على قومار بن سايوبِ. كان الأمر بالنِّسبة له أشبه بدين يريد تحصيله. دين ظل يتعاظم حتى ثقل عليه وآلمه. ولعلّ الشيء الوحيد الذي حال دون انفجار غضبه وتحوُّله إلى العنف هو حبُّه العارم لأمّه وأخته. كان قومار هو عمود حياتهما، مهما يكن تعفُّن ذلك العمود واضطرابه، بل ومهما يكن ميله. كان مارجيو يريد أن يجهز عليه، ويعلم أنّ ذلك اليوم آتٍ لا ريب فيه، فلم تكن إلا مسألة وقت، ولكن ذلك اليوم لم يأتِ قطّ. وكان أشدُّ ما عاناه مارجيو على مدار حياته هو كبته رغباته، وانتظاره، شأن أي قرويّ نمطيّ، أن يأتي اليوم الذي يتغيّر فيه كلُّ شيء إلى الأفضل بدون أن يضطرّ هو إلى عمل أيّ شيء، وتذكيره لنفسه دائمًا بأنّ السبيل الذي يريد اللجوء إليه حقًّا لن يفضي إلا إلى كارثة.

كان يشبِّه نفسه دائمًا بنصف الإله كريشنا، الذي قد يتحوّل في ذروة غضبه العارم إلى المارد براهالا ذي الألف رأس والألف يد،

والغضب الذي لا حدود له. فلا يكون بوسع أحد أن يوقفه ـ ولا الآلهة نفسها. كان أكثر ما في كريشنا ـ أو الملك بحسب ما كان يسمِّيه مارجيو ـ جدارة بالإعجاب هو إطلاقه الوحش من قيوده بين الحين والحين، ولوهلة عابرة. ولاحقًا سوف يفكِّر مارجيو في أنَّ بداخله هو الآخر شيئًا ينتظر إطلاقه عندما يضطرم لهب غضبه، وأنَّ دوره هو أن يكبحه، ويُبقيه مكنونًا في صدره، لأنَّ كلَّ ما يجري إنَّما هو مسطور بالفعل في القصص التي كتبتها الآلهة. ومهما يكن عظم غضبه، فإنَّ عليه أن يحتمل عنته، مثلما سبقه كريشنا إلى ذلك.

لسنوات ظلَّ يقدر على احتواء نفسه، وبقي مثالاً للسيطرة على النفس إلى أن جاءت الليلة التي ماتت فيه أخته الصغيرة ماريان. ليلتها فقد السيطرة على نفسه وقال لمامه إنَّه يريد أن يقتل قومار بن سايووِب. كانت وفاة ماريان بالنسبة له أفجع مأساة يمكنه أن يتخيَّل وقوعها في بيتهم، فلم تبقَ في نفسه رغبة في كبح غضبه القاسي، غضبه الذي كثيرًا ما كان يطلق له العنان على الخنازير في موسم الصيد. فكلَّما كان يسوق حَلُوفًا برمحه، غارزًا إيَّاه بحيث يُخيف الحيوان على حياته ولا يُفقده إيَّاها، كان يتخيَّل قومار بن سايووِب تحت نصل رمحه. ثُمَّ صار الآن يريد أن يطعن الشيخ حقًّا، ولم يعد يقوى على كتمان ذلك، صار عليه أن يجد سبيلاً إلى التنفيس عن غضبه، ففعل ذلك بالكلام مُفضيًا بسرِّه إلى مامه.

ماتت ماريان قبل أسبوع من نصب خيمة السيرك في القرية. وليدة نحيلة ينقصها اللبن، عاشت حياتها القصيرة شبه ميِّتة، لم تصبها الحمَّى،

وإن بدا بوضوح أنّها مشرفة على الموت. ومضى الموت يحوم حولها حومان الذباب حول جثّة نافقة، وفهم الجميع ما كان يجري، وقد رأوه في عينيها، وصار مارجيو كلّما نظر إليها، تضاعف حزنه بسبب ما يرى على وجه أمّه من الحسرة. الوحيد الذي لم يَبدُ مباليًا هو قومار، كان ينظر إلى الصغيرة نظرته إلى وساخة، وأقسم الناس أنّه لم يلمسها. لم يلاعب الرجل ابنته ولو مرّة كما يلاعب الآباء بناتهم في مرح. وجاء اليوم الذي كان يفترض فيه أن يحلق قومار رأسها، ويقيم وليمة شعائرية يضمن لها بها الحظّ السعيد، ويسمّيها طبعًا باسم جميل، فلم يفعل من ذلك شيئًا.

ذبح مارجيو بنفسه دجاجة قومار بدون إذن منه، وأولم منها وليمة صغيرة لنفسه وأمّه وأخته مامه، وجاء بأدوات حلاقة أبيه، لاعنًا الحلّاق الهرم، بينما بقيت الصغيرة العاجزة عن البكاء منمكشة في حجر أمّها. أمّا الاسم فلم يكن قومار قد اقترح اسمًا، بل آثر أن يختفي تمامًا، وفضّلت أمّهم في نهاية المطاف اسمًا مفردًا لا مركّبًا.

"ماريان"

ولمّا حانت النهاية كان ثمّة مصدر للعزاء، فقد ماتت البنت وهي تحمل اسمًا ولها رأس حليق. تدبّر مارجيو حفر اسمها على شاهدة قبر صغيرة انتصبت أسفل شجرة الفرانجيباني التي زرعتها مامه حيثما تحضر رائحة بتلات اليلانج يلانج. أطلق موت الصغيرة كراهية مارجيو لأبيه، ففكر أنّه لو كان له أن يقتل قومار بن سايووِب فقد آن الأوان لذلك.

رجع قومار بن سابووبِ إلى البيت قبل الفجر، ولم يمضِ وقت طول على دفن ماريان، فلم يلح على وجهه إحساس بالذنب أو حتّى عبوس. ربما كان قد نام في الماخور أو في مقلب القمامة، لم يُبالِ به أحد، لم يحيّه أحد أيضًا، سواء من عائلته أم من الجيران. كان شيخًا هرمًا شبه ميت عديم السيطرة على نفسه، دخل البيت فلم يفكّر أن يسأل لماذا يغمر الحزن وجوه الجميع. لكن لا بدّ أنّه عرف بموت ماريان، فالوليمة الشعائرية هي التي أرجعته إلى البيت. جلس في المطبخ وتناول بلا حياء بقايا الدجاجة، ثمّ ذهب لينام مُطلِقًا شخيرًا كريهًا صاخبًا. ولم يقوَ مارجيو على الاحتمال أكثر ممّا احتمل، فانتزع طاسة، هي الطاسة الوحيدة التي في بيتهم، وأطاح بها على الأرض فأيقظ الصوت الزاعق قومار.

في تلك اللحظة انتهت الهدنة القائمة بينهما منذ سنوات كثيرة. فهم قومار أنّ صبر ولده قد نفد، فانسحب الشيخ بعدها إلى قوقعته، منفقًا الساعات الطوال ساكنًا في سريره، متظاهرًا بالغفلة عن كلّ شيء. تلك هي المرّة الأولى التي أطلق فيها مارجيو العنان لغضبه ـ فقبل ذلك لم يجرؤ ـ والآن فهم الأب أيّ أفعى هائجة تكمن وسط أحشاء ولده. والحقّ أنّ مارجيو كان مندهشًا ـ شأن أيّ أحد سواه ـ من هذه الانفجارة التي أطلقت كلّ شيء من جموده، وصار عليه أن يهيّئ نفسه. كان في العشرين من العمر، ولم يكن لديه ما يخشاه من أب في الخمسين. كان الشيخ ـ الذي لازم السرير ـ قد فهم الحدود التي يفرضها السنّ،

وأدرك بتسليم بائس حقيقة أنّ مارجيو لم يعد ولدًا صغيرًا، بل هو رجل، وأنّه لا يملك أمامه وسيلة للدفاع عن نفسه.

في الأيام التالية، بقيا على مسافة، يتأهّبان للمعركة وفي الوقت نفسه يتحاشيانها. كان قومار بن سايبوب قد بلغ من الضعف والذهول مبلغًا جعل مارجيو يرى بؤسه فيأخذ على نفسه ألا يعجّل بما ينتويه، وأن يمسك كراهيته مهما اضطرمت بداخله واصطلت، إلى أن جاء الصباح الذي التقى فيه نمرته، بل هي مارده براهالا.

رأت مامه النَّمرة في لمحة عابرة، تنسرب من مارجيو في سلاسة كما قد ينسرب الولد نفسه من قميص وبنطال. تقهقرت، وقد حسبت أن النَّمرة سوف تثب، ثمّ شلّها الخوف إلى أن رجعت النَّمرة إلى عرينها، عميقًا في صدر مارجيو. كان ذلك في مساء اليوم الذي رجع فيه مارجيو ليجد أباهما يذبح الدجاج. لم يطلب قومار عونًا من أحد، بل كان يثبّت أرجلها وأجنحتها تحت صندله، وبيدٍ يُحكم الإمساك برؤوسها، وفي اليد الأخرى سكّين المطبخ. وبضربة إثر ضربة قطع رؤوس الدجاجات واحدة تلو الأخرى، ثمّ رمى بقيتها في القفص فكانت تطير مقذوفة مرفرفة الأجنحة منفلتة من قبضة الموت.

سأل مارجيو مامه بدون أن يسمع قومار: "ماذا يفعل"؟

"يجهّز لوجبة اليوم السابع لماريان".

لعلّ ذلك ما دفع النَّمرة إلى الخروج. لم يستطع مارجيو أن يغفر للشيخ قيامه بأيّ أمر طيّب تجاه الفتاة الميّتة التي لم يلق لها بالاً على الإطلاق في حياتها. فقد بات مارجيو على قناعة بأن قومار قتل الصغيرة، أو عمد على أقلّ تقدير إلى تركها للموت. والآن يرتّب الشيخ اللعين لإقامة وليمة في سابع أيام رحيلها وفي أفكاره خاطب مارجيو أباه قائلاً: "تعفّنْ في الجحيم"، مؤكّد أنّ روح الصغيرة لن تقبل من هذا الرجل أيّ شيء. وإذ ذاك رأت ماما وجهًا شبحيًا محمرًا، مكسوًا فيما بدا لها بالفراء، ببريق مصفرّ في عينيه. سمعت صدى زئير ورأت ظلاً أبيض يتراقص في بؤبؤيه. وأوشكت صخرة أن تنفلت منها، قبل أن يختفي ذلك الذي رأته ويجثم من وراء باب قفص بدا محكم الإغلاق.

بعد واقعة الطاسة، حبس قومار نفسه في غرفته، فصار لا يغادرها إلا ليذهب إلى كشك الحلاقة، ويرجع ليكمن في سريره. وتلك هي الشهور التي كان يتصوّر فيها أنّ مارجيو سوف يعتدي عليه، ما لم يكن سوف يقتله فعليًا. ولكنّ الولد بغتة وقع فريسة الرعب، ووجد قومار نفسه يقيّم أرقام ولده، عمره الحالي، وطوله، ووزنه، وكأنما مارجيو مصارع يفكّر في المراهنة عليه، وأسوأ من كلّ ذلك أنّه بدأ يفكّر في احتمال أن يكون قد ورث عن جدّه النَّمرة اللعينة. وكان لدى الشيخ من الحكمة ما منعه أن يزيد الاحتكاك بينه وبين ولده؛ فمارجيو لم يعد ذلك الغلام الضعيف المستكين الذي يجلس هادئًا في ركن من البيت أو

يغادر البيت كلَّه بدون كلمة. صار بوسعه أن يدبِّر أموره، ولم يكن قومار بن سايووِب بالغِرِّ الذي يغفل عمَّا تملكه تلك العضلات الشابة.

بعد ذلك رأت مامه أباها يغادر غرفته، وقد بدا في غاية العذوبة والرقَّة. لم يعد ذلك الرجلَ الثرثار، بل ألزم نفسه بمهام كثيرًا ما كان يتجاهلها. تناول مكنسة سعف النخيل وبدأ يكنس الأرض المرَّة تلو الأخرى، وإن كانت نظيفة في الأصل، وفي الصباح والعصر ملأ لهم الحوض من أجل الغسيل. وفي اليوم التالي لم تجد مامه أن عليها أداء الكثير من مهامها المعتادة، إذ تكرَّم الشيخ فجأة وغسل بنفسه ثيابهم. وودَّت مامه أن تنهي تلك الرقة كلَّها، وقد ضايقها أن يكون متبقِّيًا لدى أبيها أيُّ قدر من الطاقة بعد عمله المضني في كشك الحلاقة. لا بدَّ أنَّه يكون منهكًا عند عودته، لكن لم يكن يبدي أيَّ قدر من المبالاة. تجاهل مامه تمامًا، ولم يترك لها شيئًا تقريبًا تقوم به.

بدأت تفهم نواياه حينما رأته يذبح بنفسه الدجاج من أجل طقس سابع أيام رحيل ماريان. لم يكن يلزمها أكثر من أن تنظر إليه حتى تعرف الحقيقة، وكأنَّه مصير محتوم مكتوب على جبينه. كان يحاول دونما جدوى أن يسالمهم، ويمحو الآثار الكريهة المحفورة بينه وبينهم منذ زمن بعيد. كان جهدًا بلا طائل. فلم يتأثَّر منهم أحد بتلك الطيبة المريبة. وكان جهدًا مؤسفًا في الوقت نفسه، فقد كان الجميع يعلمون أنَّ البداية الجديدة أمرٌ فات أوانه.

مارجيو كان الأقلّ غفرانًا. وما كان ضعف الأب إلا وقودًا يؤجّج نار كراهية الابن التي أخذت تصطلي كما لم تصطلِ من قبل لحظة أن اتضحت نوايا الأب. وكم حدَّث مارجيو نفسه قائلاً: "إيَّاك أن تتصوّر أنّي سوف أغفر لك" وترك البيت غير عازم على المعاونة في أيّ شيء ممَّا كان يفعله قومار، هائمًا على وجهه بين الأماكن، راكلاً جدران كوخ الحراسة، شاربًا في كشك آجوس سفيان، أو راميًا جوز الهند بالحجارة في المزارع المهجورة، بينما أبوه ينظّف الدجاج بنفسه، فينتف الريش، ويحمل الدجاج إلى المطبخ، ويسلقه ويقليه، ويطبخ الأرز أيضًا. وقبل المغرب، زار الجيران، داعيًا إيَّاهم إلى المجيء إلى بيته بعد صلاة العشاء، ليقرأوا معًا سورة يس نورًا ورحمةً على روح ماريان.

رجع مارجيو بعد أن ذهب الجيران، وكانت الحصر لم تزل مفروشة. وحتى ذلك الحين كان كلُّ شيء قد تمَّ على يد قومار بن سايووِب وحده، فلم تحرّك مامه أو أمُّها إصبعًا. دعا قومار مارجيو إلى الطعام -وكان دجاجًا مقليًّا وأرزًا وبطاطس مطبوخة- فلم يرغب مارجيو في لمسه، واجتاز المطبخ متوجِّهًا إلى غرفته، ثُمّ خرج منها فذهب إلى الحمام ليبول ثُمّ خرج إلى الشرفة ليقف أسفل الفانوس. خرجت إليه مامه تغريه مرَّة أخرى بالطعام، فلم يكن ردُّ مارجيو إلا أن أشعل سيجارة.

في الضوء الشاحب، رأت مامه اللمعة المضيئة والبريق المصفرّ في عينيه. كانت لم تزل تتذكّر أنّ مارجيو يريد قتل قومار. رأت عينيه تلمعان بحدّة، مصدرتين أشعة نافذة، ففكّرت أنّ نظرته تلك وحدها

كفيلة بقتل قومار بن سايووِب، ولكنّها رأت كذلك معاناة الولد أيضًا؛ كان مارجيو الرقيق في حرب مع مارجيو الشرير، حرب لن تنتهي ما لم تنتهِ حياة أبيه. رأته مامه منهكًا من محاربته نفسه. ولكنّ قومار بن سايووِب لن يموت على يدي مارجيو أو بمخالب نمرته الحبيبة، ففي تلك الليلة بعد أن أطاح بعقب سيجارته في الفناء، قال مارجيو لمامه: "سوف أرحل"، مضيفًا: "وإلا فإنّني سأقتل ذلك الرجل".

لم تأخذ مامه كلامه مأخذ الجدّ، فقد بدا لها أنّه يقول "أريد أن أرحل". في حين أنّه في الحقيقة كان قد قطع شوطًا بعيدًا؛ ففي السنوات القليلة الأخيرة، كان واضحًا أنّ مارجيو بات شديد التعاسة في البيت، وأنّ إقامته الدائمة الفعلية انتقلت من البيت إلى كوخ الحراسة والمسجد. فقد لا يرجع إلى بيت الأسرة، لكن سوف يمكن العثور عليه في أماكنه المعتادة تلك. ولاحقًا أدركت مامه كم حادت عن الصواب.

ففي صباح كصباح أيّ يوم فقدوا مارجيو فجأة. كان أصدقاؤه هم أوّل من أدركوا ذهابه؛ إذ انقضى يوم كامل بدون أن يروه. قال أحدهم إنّه كان في السيرك، ولكنّ تلك كانت آخر ليلة له في القرية، وقد جمع العاملون فيه أغراضهم ورحلوا، ولم يعرف أحد إلى أين كانت وجهتهم. كانت القرية كلّها على يقين بأنّ بنتًا من بنات السيرك قد أغوت مارجيو إلى مرافقتهم. وكان الجميع على يقين من أنّه لا محالة راجع إلى مسقط رأسه وحبّه الحقيقي، وكانوا يثقون من أن حبّه الحقيقي هو مهراني ابنة أنور السادات. وأخيرًا، عندما مرّ بعض أصحابه بالبيت ليسألوا عليه، أدركت مامه أنّ مارجيو قد هرب بالفعل.

أحزن اختفاؤه كثيرًا من الناس، لا سيَّما الرائد سِدْرَه الذي كان يخطِّط لقتل بعض الخنازير، وكذلك قومار بن سايووِب فيما بدا. حاول على مدار أسبوع أن يتجاهل غياب ابنه الكبير، فاستأنف روتينه المعهود في إطعام ما بقي من الدجاج وأزواج الأرانب الثلاثة، وصار يُخرج كلَّ صباح درّاجته التي أنحلها الصدأ، وبات لجنزيرها صوت صرير صاخب، ولم يكن لها شأن أغلب درّاجات القرية مكابح أو كشاف، ويمضي بها إلى السوق ليلملم من قمامة الباعة المعطوب من الجزر والكرنب ويرجع إلى البيت بعدما يمرُّ بطاحونة الأرز ليأتي ببعض النخالة. وكل ذلك كان من أجل حيواناته. كان ينبغي أن تُمزَج النخالة بماء دافئ، وتُقلَّب وتُوضَع في العديد من ورق جوز الهند لكي لا يجور بعض الدجاج على بعض، بينما يُرمَى المعطوب من الجزر والكرنب ببساطة في عش الأرانب. شغل قومار نفسه ـلا سيّما بالمهام الجديدة التي ألزم بها نفسهـ ليُظهر أنه لا يبالي باختفاء مارجيو، لكن مامه كانت تعلم حقيقة شعوره.

ذات صباح سأل قومار "هل رجع مارجيو"؟

قالت مامه في هدوء: "ليس بعد. صدِّقني سوف يرجع حينما يحين أوان زواجه".

لم يجد قومار عزاءً في هذا، وسرعان ما تدهورت صحته تحت وطأة العديد من الأمراض. ثقل عليه الإحساس بالفقد، ورجع يقضي أيامًا كاملة في السرير، وهزل هزالاً مريعًا، وصار يغمغم ويهذي.

توقّف عن الحلاقة، وبدلاً من ذلك صار يقصُّ روحه نفسها. وبدأ يشكو من مسمار في معدته، وتأكّد ذلك حينما تقيّأ دمًا. ازرقّ جلده وتورّم جسمه، وجاءت مامه بتومرجي من المستشفى فأشار عليها بحمله إلى المستشفى. اتصلت مامه بأخويْ أمّها الصغيرين فحملا قومار على النقّالة. كان لديه من الأمراض ما لا يتسع وقت الأطباء لمناقشته، فتُرِكَ نائمًا في عنبر بارد مسكون بالأشباح.

لم تشأ زوجته أن ترعاه في آخر أيامه، فكان على مامه أن تحتمل ذلك العبء. كانت ترى أن اللحظة الأخيرة قد دنت. وفي حين تسارع تفتُّح البراعم في شجرة اليلانج يلانج، تسارع كذلك في شجرة الشمباك، ونعقت الغربان في البعيد. وبعد يومين في المستشفى، طلب قومار أن يعاد إلى بيته وطلب من مامه في صرامة ألا تُحضِر المزيد من الأطباء "فأنا بخير، وصحتي جيدة بما يكفي لأن أنتظر حفر مقبرتي".

ذلك حين كان لا يزال بوسع قومار أن يتكلّم. فقد جاء صباح صار فيه عاجزًا حتى عن فتح فمه، انغلق الفم عصيانًا لرغبة سيّده، وتصلّب الفكّان بصورة لا يمكن تخيُّلها. وكان مثل ذلك قد حدث من قبل، ولم يُشفَ منه إلا بعد جلسات تدليك طويلة قام بها حكيم دعك الرقبة وأصابع القدمين بماء البصل، ولكن مامه في هذه المرّة لم تَدْرِ إن كان سيفتح فمه من جديد. حاول ثلاثة حكماء فلم يصادفهم النجاح في تدليك فكّيه وإعادتهما إلى الحياة، وكان ذلك نذيرًا شديد الوضوح بقربه من الموت. عانى قومار كثيرًا، وكان يتقلّب على الحشيّة، ضاربًا خدّيه، خامشًا فمه، مضيفًا من عذابه الذي يُنزله بنفسه على الآلام التي تنخر

جسمه. لم يكن يستطيع أن يأكل طعامًا إلا لو تحوَّل إلى عجين، فكانت مامه تُطعمه هريس الخضراوات ويدفعه قومار في فمه بسبَّابته، فيسعل، ويسيل لعابه على الحشية. وسرعان ما عجزت يداه أيضًا عن الحركة، كأنّما قطعت أعصابهما. وصار على مامه أن تُطعمه الشاي المحلّى بعدما لم يعد بوسعه أكل كثير من الطعام. ولم تمضِ أيّام قلائل إلا وأصبح قوامه المتضائل أشبه بسحلية منزلية ترتعش.

وذات ليلة سمعت مامه أباها يعوي، فذهبت إليه تسأله إن كان يتألّم. ولم يكن جسمه هو الذي يعذّبه ويرغمه على الخوار من جديد. كان يريد أن يتكلّم، فمالت عليه مامه وأجهدت نفسها عساها تميّز ما يقول، ولا جدوى. لم يكن من سبيل إلى إدراك غمغمة قومار. وخطر لمامه فكرة بارعة فناولته بعض الورق وقلم رصاص من أيام دراستها، فلم يزِده ذلك إلا يأسًا إذ لم تعد يداه قادرتين على الحركة. فخطرت لمامه فكرة أبرع؛ تناولت الورق والقلم وكلّما كتبت شيئًا مناسبًا، أومأ قومار بسرعة وتقلص فمه كأنّما يبتسم. استغرق ذلك نصف الليل وربما أكثر للخروج بجملة قصيرة بسيطة. وبتلك الطريقة، تمكّن المحتضر من إبلاغها بأمنيته الأخيرة: "ادفنوني بجوار ماريان".

واضح تمامًا أنّ قومار بن سايووِب أراد المصالحة قرب نهاية حياته، وأراد بصفة خاصة أن يعوِّض البنت التي ربما يكون هو السبب في موتها. سمعت مامه وهي مستلقية ليلاً في سريرها غرابًا ينعق فوق سطحهم. ولمّا طار، ظلّ صدى نعيقه يتردَّد في ذاكرتها. أرادت أن تتجاهل الخرافة، ولكنّ الجميع كانوا يُصرّون على أن الغراب إن حط

على سطح بيت، فمعنى ذلك أن البيت سوف يشهد وفاة. لم تنم حتى الفجر، وعند الفجر مات، وقد ثقل عليه ألم انتظار رجوع ولده الأكبر. وأكثر ما حزنت لأجله مامه هو شوق أبيها إلى رجوع ولده، مع أنَّها كانت على يقين من أنَّ مارجيو لو كان عاد قبل وفاة أبيه، لأنهى حياته بنفسه.

في اليوم التالي أبلغت مامه الرسالة إلى أمّها. كان وقت طويل قد مضى ولم تفتح المرأة فمها بكلمة إلا لمامه، لكنَّها سمعت كلام ابنتها فقالت: "أبلغي التُّربي".

في ذلك الصباح، رأت مامه أباها طريح فراشه، وقد تدهور جسمه حتى صار أشبه بكتلة لحم مجهولة، فلو رأته الغربان لعافت طعامها. لم يكن أحد قد نحر رقبته، برغم أنَّ قومار كان يرتاب في أنَّ يومًا سوف يأتي فيفعل أحد أهل بيته ذلك. ولكن حتى مارجيو نفسه عزف عن نحر عنقه. مات الشيخ ميتة طبيعية، وراح عقله. قال: "الوداع" وانسرب من خلال قضبان الشباك يسحبه ملاك الموت، ناظرًا وراءه إلى أيّامه الأخيرة، إلى الحشيَّة مقبضة الرائحة التي كان ينام عليها، إلى غرفة نومه الخانقة، وعالمه القاحل.

تلك كانت نهاية روتين منزليٍّ متَّبع لوقت طويل. كانت مامه أوَّل من يستيقظ في البيت رقم ١٣١ قبل طلوع الفجر، لتنهي -كمن تسير نائمة- من المهام ما لم يعد بوسع أبيها شبه البيت أن ينجزه بنفسه، فتذهب إلى غرفته ومعها دلو صغير فيه ماء دافئ تطفو فوقه منشفة وجه.

في الأيام الأخيرة، وبينما الآلام تشتدّ عليه باطّراد، ورائحة تراب المقبرة تزكم أنفه، شعر قومار بشيء من الندم وأرغم جسمه العليل على الصلاة. وكانت مامه تعينه على الوضوء، فتغسل له يديه وقدميه ووجهه، وتتركه يصلّي راقدًا، لخمس مرات في اليوم. كانت لمسة واحدة من يد مامه كفيلة بإيقاظه، وإعلامه بأنّ أذان الفجر قد اقترب، ففتح قومار عينيه، ولا يتحرّك أدنى حركة، فكأنّه ملتصق بالملاءة، غائص الرأس في ثلاث طبقات من المخدّات المنتنة، وجسمه العليل غائب أسفل بطانية المستشفى المخطّطة بالأبيض والأسود.

عندما طلع الفجر لم توقظ لمسة مامه قومار، فهزّته، وأيضًا لم يستجب. كان مفتوح العينين، وقد ذهب. ولمّا أدركت ذلك سارعت إلى وضع دلو الماء على الأرض قبل أن يقع منها، ضربت الفتاة صدرها برفق، وغمغمت في ذهول، وبدافع من مشاهد الموت في الأفلام أسبلت عيني أبيها، وقالت له: "وداعًا، سوف تشهد لك أمشاطك ومقصُّك". نظرت حولها لتتأكّد أنّ في الغرفة مخرجًا لروحه. كانت على الأرض سلطانية ماء استعملته في تبريد جبهة قومار في الليلة السابقة، وفي موضع آخر خضار مهروس، وموزة خضراء لم تُلمَس، وكوب شاي محلًّى قديم على المنضدة المجاورة للسرير.

هذه ابنة لم تحصل على مدار سنوات عمرها الثماني عشر على حلق من أبيها، فكان في ثقبي أذنيها خيطان من حشية غابتهما أن يمنعا الثقبين من الانسداد. عاشت عمرها في انتظار جرامين أو ثلاثة من الذهب. صحيح أنّ قومار في يوم من الأيام اصطحب مامه الصغيرة في

نزهة عند البحر، وكان يفتخر بأنه علّمها كيف تبني قلعة من الرمل، وصحيح أنّ قومار طلب من مامه ذات مرّة أن تذهب إلى الخيّاطة لتحيك لها فستانًا لعيد الفطر، واصطحبها مرّة إلى السينما لمشاهدة فيلم "باندوا ليما"، لكن من المؤكّد أنّ مامه لن تتذكّر بعد موته شيئًا من ذلك، وأنّ الميت كان يعلم ذلك تمام العلم.

تهادى صوت المؤذن من المسجد في الجانب الشرقي من بيت أنور السادات. وإثر صوت ما سوما الأجشّ ترامت أصوات أبواب الجيران وهي تنفتح، وتدار فيها المفاتيح أو تدفع مزاليجها إلى بيوتها، وحفيف النعال إذ تزحف على أرض الحارة الصغيرة في طريقها إلى المسجد، وأصوات نباح الكلاب إذ تفيق من نومها العميق، والديَكة إذ ترفرف أجنحتها قبل أن تصيح صيحاتها الأربع فتأتي الأخيرة بينها أشبه بتنهيدة طويلة. ذهبت مامه إلى الغرفة التي تنام فيها هي وأمُها، فأيقظتها قائلة "أبي مات". ولّما نهضت أمُها تأكّدت أوّلاً أنّ زوجها مات ميتة طبيعية، فلم تخنقه ابنتها.

بعد ذلك ذهبت تلك المرأة نوريني إلى المطبخ وجلست على كرسيٍّ صغير أمام الموقد، تتمتم لنفسها، وللموقد والطاسة، ولم يكن ذلك بالغريب عليها. كانت قد فقدت السيطرة على عقلها بعض الشيء، أو ذلك على الأقل ما بدا لابنتها. تبعتها مامه إلى المطبخ، لكنها وقفت في الطرقة، محملقة عبر العتمة، وانتظرت. لم تكن تعلم ما الذي ينبغي عمله مع أبيها الميّت. تمنّت لو يرجع مارجيو سريعًا ويشير عليهم بما يفعلون، أو يتركون قومار بن سايووب يتعفّن في سريره.

في ذلك السكون، سمعت مامه نشيجًا ما، أنينًا خافتًا بدا أنّه يرشح عبر غمغمة أمّها عديمة المعنى. كانت صدمة عظيمة لمامه أن تكتشف أنّ هذه المرأة يمكن أن تفتقد زوجها الذي قضى حياته كلّها معها وهو يضربها بسبب هذه الغلطة أو تلك، أو بلا سبب على الإطلاق. ثمّ اقتنعت مامه أنّ قلب أمّها لم ينفطر من حبّ لقومار؛ بل لأنّها ألفت الحياة معه، مهما بلغ عذابها.

أخذت الحيوانات التي احتبسها قومار في أقفاص بالفناء الخلفيّ تصخب طالبة الطعام. وكان المعطوب من الخضراوات والنخالة قد امتنع على تلك الكائنات الشقيّة منذ أن بدأت صحّة قومار في الاعتلال، فتولّت مامه أمر رعايتها وإطعامها بما كانت تعثر عليه في المطبخ من بقايا وفضلات. فكّرت أنّ هذه الحيوانات سوف تموت في إثر سيّدها، وقد تلحق به أيضًا قبل ذلك إن فكّر أحد في استنزال الرحمات على قومار بإقامة وليمة شعائرية له في وقت ما من اليوم نفسه. ولسوف يسرُّ مامه أن تنحر رقابًا مثلما كان مارجيو يفعل سرًا.

تواصل النشيج في المطبخ، وكانت مامه لم تزل واقفة في الطرقة، كأنّها في الفصل الأخير من مسرحية تنتظر إغلاق الستارة عليها. أرادت أن تلهي أمّها، وترغمها على القيام بشيء، لكنّها تقاعست، مذعنة لحقيقة أنّه ليس بينهما مَن لديها أدنى فكرة عمّا ينبغي عمله. أضاءت مامه بدلاً من ذلك مصباح المطبخ، وكان مفتاحه في مخزن الأرز. ولم يكن ذلك مخزن أرز بحق، بل أقرب إلى حجيرة كبيرة تحوي صندوقًا وُضعت فيه ثمار البابايا والموز حتى تنضج، وبجوارها ما لا يزيد عن

كيلوجرامين أو ثلاثة من الأرز الذي كان يأتي به قومار من السوق بعد أن يحلق للناس. أسفل شعاع المصباح الساطع، سكت لوهلة نشيج نورين، وإن بقيت في نشوة الحزن، وبقيت شاخصة إلى الموقد مديرة ظهرها لمامه.

إلهاءً لنفسها بشيء، وظنًّا منها بأنّ الأمور يمكن أن تسير على طبيعتها التي جرت عليها، تناولت مامه الطاسة التي كانت نوريني تحاورها، وملأتها حتى حافتها ماءً من البئر. أشعلت فتيل الموقد، فأشعّت النار الصغيرة مضيئةً وجه أمّها المنتفخ، فبدت فجأة متغضّنة كوجه دمية صغيرة وأشدّ شحوبًا من الجثّة نفسها. وفيما تضع الماء على النار، كدأبها كلّ يوم قبل إيقاظ أبيها لصلاة الفجر، تساءلت مامه لو أنّ وفاة قومار بن سايووِب مؤلمة حقًّا لأمّها كلّ هذا الألم، فهي من جانبها كانت مبتهجة بعض الشيء.

بقيتا صامتتين طويلاً إلى أن سمعت أصوات الراجعين من المسجد. خطر لها أن تخرج إليهم، فتحييهم، وتنبئهم بأنّ قومار بن سايووِب مات؛ عسى أن يقدّموا بعض العون في التعامل مع الجثة، لكنّها لم تدرِ كيف تشرح أمرها. كان أمرًا محرجًا وغير لائق أن تخرج فتقول "يا عمُّ، أبي مات"؛ لأنّ نبرة البهجة سوف تنفضح في صوتها. انتظرت إلى أن تلاشى صوت الخطوات، آملةً أن تشير عليها نوريني بشيء، كأن تذهب إلى بيت معيّن لإبلاغ الخبر. مارجيو هو الذي تدبّر الأمر كلّه عند وفاة ماريان، ولم تدرِ مامه إلى مَن تتكلّم.

تضاعفت أصوات الحياة من بيوت الجيران؛ إذ توقد المواقد الطينية ومواقد الجاز، ويبول الأطفال تحت شجر الموز. تراكمت الأطباق الوسخة في الأحواض، ورُفعت الدلاء الملآنة من الآبار، ومُلئت الأحواض. سمعت درّاجات تمرّ، مسارعة إلى السوق، حاملة السلال الخاوية، أو الممتلئة إن كان صاحب الدرّاجة ذاهبًا للبيع. وبعيدًا في الشارع أخذت أجراس عربات الخيول تصلصل متناغمة مع وقع الحدوات الحديدية. عادت الكلاب إلى النباح، قبل أن تتمدّد على الأرض الرملية لتغفو من جديد. أمّا في المطبخ، فلم يبقَ من صوت إلا بقبقة غليان الماء وحفيف كتفي نورِيني الخافت إذ يرتجفان. وخطر لمامه أنّ هذه هي المرأة التي كم ركبها قومار بن سايووِب بمنتهى القسوة.

كانت واقعة شديدة القدم، لكنّ مامه لم تنسَ قط ما جرى في تلك الليلة التي اشتدّت فيها البرودة وأيقظتها رغبة حارقة في التبوّل، ظلّت تقاوم الرغبة الملحة بسدٍّ من الرفض إلى أن هدّد الطوفان بالاجتياح، لم يعد بوسعها أن تمسك مثانتها فقامت على مضض من السرير، ولمّا لم تجد أمّها، ذهبت إلى غرفة أخرى كان مارجيو ينام فيها كأنّه ميّت. كانت الليلة حالكة العتمة فلم تجد مامه في نفسها الشجاعة لأن تذهب وحدها إلى الحمّام، ورأت مارجيو نائمًا في غاية الوداعة فأحجمت عن إيقاظه، وفكّرت أين أبواها، فتسلّلت إلى المطبخ، متحسّسة طريقها وصولاً إلى مفتاح النور.

لم تضئ المصباح. لكنّ مصباح شرفة الجيران كان يبعث شعاعًا يعبر النافذة الشبكية متسربًا إلى المخزن. وفوق الصندوق رأت جسمين

عاريين يصارع أحدهما الآخر مثل مصارعة الفارس والفرس التي رأتها ذات يوم في سباق الخيول الذي يقام يوم الأحد في مزارع جوز الهند. وبينما هي شاخصة إلى الجسمين المعتمين على الصندوق الكبير، كانت صور من السباق تعبر حيّة في ذهنها. كانت نوريني راكعة مثل حصان يثب، وقومار بن سايووِب يخرقها من الوراء. رأت كفلي قومار يتخبطان بعنف، ومضت تسمع إثر كلّ اندفاعة منه أنّة من نوريني كأنين بقرة تُنحر رقبتها، وتلك أيضًا كانت ذكرى ناصعة الحضور لدى مامه منذ أن رأت بقرة تُنحر في عيد الأضحى.

أوشكت أن تبول في ثيابها وهي واقفة هناك تحملق في الجسمين المنقوعين في العرق وتنصت إلى أنّات أمّها إذ تُخترَق بعنف. تسلّلت إلى الحمَّام، فأفرغت فيه مثانتها، ورجعت إلى غرفتها بدون رغبة في اختلاس نظرة أخرى إلى المخزن، ولم تنم على الفور. ولسنوات، بقيت الذكرى حيَّة في نفسها، مَعِينَ حزن على أمّها وقرف من أبيها.

حينها كانت مامه في الرابعة عشرة من عمرها، أي في السنّ الذي انزعجت فيه وافتُتنت أيضًا بتغيُّرات جسمها، وباللحم الذي "برز فجأة من صدري" ـعلى حد تعبيرها في كلامها إلى نفسهاـ كانت تنظر إلى حلمتيها وتفكّر فيما يشبه الزهو أنّهما "مثل رصاصتين"، وتغتاظ بعض الشيء من شكلهما غير المنتظم. وإن كشف قميصها عن ثدييها، مهما ضؤل ما كشفه منهما، كان الرجال يخرقونها بأعينهم فيكدّرونها. كان يبدو كلَّ صباح وكأنَّ حجم ثدييها تضاعف بالليل، فكانت تتساءل في

بعض الأحيان إن كانت امرأة أخرى، مختلفة تمامًا، توشك أن تخرج من جسم البنت المراهقة.

ولم تكن تفرح بجسمها قدر ما كانت تفرح به حين تغلق عليها باب الحمّام. كانت مرآة كبيرة تعلو حوض الماء، هي من بقايا خزانة وثبت عليها قطة فهشّمتها. تلك المرآة كانت نافذة سحرية إلى عالم بديل؛ فكان نصف وقت مامه في الحمّام يضيع وهي تقف عارية تتأمّل في إعجاب قوامها ونهديها الطالعين، فتشعر في الحمّام أنّها امرأة كاملة. أحبّت نهديها الجديدين، فكانت تمسّدهما، وتحتويهما في راحتيها وتقيس نموّهما بين كلّ اغتسالين، وفي بعض الأحيان تضرب أحدهما بالآخر متسائلة عن كنه ما يحتويانه. كان دافعها إلى الإعجاب بذلك ما كانت تراه في الشارع من منحنيات جريئة ناضجة في أجسام نساء الحيّ. ومع أنّها كانت أصغر منهنّ حجمًا، فقد كانت أمام مرآة الحمّام تحاكي حركات أولئك النسوة الناضجات.

ولكنّ العالم الذي كانت تلجه عبر تلك المرآة كان عالمًا شديد الهشاشة، فالمزلاج كان مفقودًا من باب الحمّام. وكل من كان يدخل ليستحم كان يفكّر في شراء واحد، ثمّ لا يكاد يجفّ جسمه حتى تتبدّد الفكرة. كان صوت الماء وحده هو العلامة على أنّ في الحمّام أحدًا، فحدث ذات مرّة، ولم تكن مامه قد لمست الماء طوال دقائق قضتها تتفحّص قوامها الجديد، أن انفتح الباب فجأة؛ وتوقّف الزمن.

وقف قومار بن سايووِب هناك في سرواله وقميصه الداخليين، وفي فمه سيجارة، ممسكًا بيديه رباط السروال لكي لا يقع، صرخت مامه، للحظة وعي طافية جانحة، قبل أن تتهاوى لتدفن وجهها بين ركبتيها. ستتذكّر مامه دائمًا أنَّ تلك الواقعة استغرقت وقتًا طويلاً، بل طالت أكثر من حياتها كلِّها. وبدون أن ترفع وجهها سمعت مامه قومار وهو يغلق الباب ببطء ويبتعد بدون أن ينطق بكلمة، بخطوات واسعة بطيئة وهو يجاهد رغبته في التغوّط. ولحظة أن مضى، بالت مامه على نفسها.

فكَّرت، ها هو أبي يعرف أن نهديَّ ظهرا وأنَّ بين ساقيَّ أكمة. كشف الرجل أسرار ابنته. وعلى مدار السنين كان قومار يعلم أن ابنته تتمنَّى لو أنّه ينسى ما جرى، ولكن قومار لم ينسَ قط، ولا أحد يعرف السبب. ولا مامه التي تحاشته في أوَّل الأمر قدر استطاعتها، حتَّى صار عليه أن يترك لها المصروف على المائدة. لم يكن من قبل يرغب في رؤية ابنته عارية، ولا صار يرغب في ذلك، برغم الطبيعة الشيطانية التي قد تسيطر عليه في بعض الأحيان. لكن مامه شعرت أنّها انتُهِكت، وكان يعرف أنّها انتُهِكت، فهيَّأ نفسه لليوم الذي تأتي فيه إليه وفي يدها سكّين المطبخ. ولكنَّها، مثل مارجيو، لم تفعل، بل مرَّضته في احتضاره.

كانت وفاة قومار حادثة سعيدة لمامه، وكان ينبغي أن تشعر نوريني بمثل تلك السعادة، أم كان نشيجها ضربًا من الاحتفال، ولونًا من التنفيس؟

طلع الصباح، ولم تفعل أيٌّ من المرأتين شيئًا للجثَّة التي كانت تيبس على السرير. بقيتا أسيرتين في المطبخ، تتحرَّك إحداهما بين الحين والآخر لتخفِّف عن مفاصلها. غلى الماء، وتعالى صفيره، وأطفأت مامه النار. ينبغي أن تطهو الأرز، لكن الدافع إلى إلهاء نفسها بالعمل فتر برؤيتها نوريني وهي متكوِّمة على نفسها فوق الكرسيِّ المقابل للموقد.

بالخارج، بدأ تلاميذ المدرسة يمرّون وارتفعت حرارة العالم وامتلأ بالغناء. وداخل البيت فقط كانت العتمة تزداد، والرؤية تغيم، وسط الأبواب المغلقة؛ حيث بقيت المرأتان على الحال الذي استيقظتا عليه، فلم تغسل إحداهما وجهها منذ طلوع الفجر، بل فقدت كلتاهما أيَّ رغبة في الاغتسال. توقَّف الزمن. استدارت مامه لتقف بجوار الباب، وشيئًا فشيئًا توقَّفت نوريني عن البكاء لكنَّها لم تتحرَّك. وبتقدُّم النهار تخفت رائحة الموت وتصبح أقلَّ طغيانًا مع انسلال الشمس عبر خروم السقف وشقوق النافذة الشبكية وصدوع الجدران.

حانت الساعة الواحدة بدون أن تعرفا ذلك، وذهبت مامه إلى الحمَّام لتبول، فتحت الباب بدون تفكير، فانهال نور النهار المدوِّخ على المطبخ، بينما تحرّكت قدماها بلا غاية، واتسع منخاراها يستقبلان عبق الفناء الأمامي وقد تفتحت فيه براعم الشجر. وقفت في الشرفة بثياب نومها المجعَدة وشعرها المهوش كأنَّها خيال مآتة صعقته عاصفة الأمس إلى أن اقترب من البيت جارهم جعفر وتوقَّف ليطمئنَّ وقد أثار منظر مامه قلقه. حلق كلٌّ في الآخر، وجال في عقل جعفر الحائر أنَّ البنت فقدت عقلها. كانت عيناها خاويتين منطفئتين.

قال جعفر: "ما الأمر يا ابنتي"؟

جاءه الردُّ من العدم، فلم تدرِ مامه ما الذي قصدته بقولها ما قالت: "أبي مات ويتعفّن".

مرّ وقت قبل أن يدرك جعفر معنى ما قالته.
"يا إلهي! مرّت أسابيع"؟
"ليلة أمس".

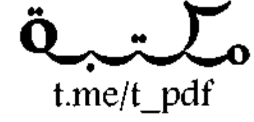
أخيرًا، صار هناك مَن يعتني بالجثّة الباردة العفنة قبل أن تبدأ بالفعل في التحلُّل. جعفر أخبر الشيخ جاهرو، ثمّ أذاع ماسوما خبر الوفاة عبر مكبِّر صوت المسجد، فتوافد على البيت مزيد من الجيران. جاء أحدهم بأريكة وأعدّ دلاءً من الماء لغسل الجثة. وقاس التُّربي جثمان قومار بعود من البامبو، واستقطع من الشيخ سيجارة. وقبل أن يغادر طلبت منه مامه أن يحفر القبر بجوار قبر ماريان. مرّة أخرى، أصرّت على احترام رغبات الميت.

دبَّ النشاط من حولهما، فحملت الجثة إلى السقيفة، ثمّ إلى البئر، ومن هناك إلى المسجد، وبرغم كلّ ذلك بقيت مامه ونوريني ذاهلتين، تحملقان بأعين فاترة في ما يجري، أو في لا شيء على الإطلاق. ربّما كانت مامه أكثر إشراقًا، وحديثًا إلى الناس وإلى بعض أعمامها، برغم أنّها لم تكن قد مشّطت شعرها بعد أو بدّلت ثيابها، أو اغتسلت، أو حتى غسلت وجهها. في المقابل كانت نوريني لم تزل في المطبخ. فالآن وقد أدركت أنّ لحظة دفن قومار بن سايووِب تقترب، انتكست مرّة أخرى

إلى الحزن والنشيج. لم يُبالِ بها أحد إذ كانوا يعرفون ميل عقلها إلى الاختلال، فتركوها كيف تشاء، ما دامت لم تصرّ على أن تُدفَن هي الأخرى.

وإذ ذاك رجع مارجيو، مشرق الوجه، فكأنّما أشرقت الدنيا كلُّها بحضوره. تولّى مراسم الدفن، ولدًا مهذبًا عائدًا بعد غياب، وذهب إلى المسجد لأداء صلاة الجنازة. ولم يخفَ على أحد مدى السعادة التي كان عليها. قطفت مامه من فناء بيتهم زهورًا سبق أن زرعتها جميعًا نوريتي التي كانت واضحة التعاسة في كلّ ما تفعله. تلك المرأة المجنونة كانت تعبّر تعبيرًا بارعًا ومعقّدًا عن حزنها ورفضها قطف الزهور من أجل زوجها. لكن مامه لم تأبه بها، وواصلت قطف الأزهار في سلّتها.

كُسي النعش بملاءة ذهبيّة ذات أهداب فضيّة نُقشت عليها الشهادة. ومضى الشيخ جاهرو يقود المشيّعين في دعائهم بينما تغادر الجنازة المسجد، وما كان أولئك المشيّعون غير قلّة أكثرهم أصدقاء مارجيو وزملاؤه الذين كانوا يصطادون الخنازير في الجبل ولم يكترثوا لثيابهم المتسخة بالطين. كان مارجيو وسطهم مجاورًا للنعش ينثر بتلات الزهور التي قطفتها مامه على طول الطريق. كان ينبغي أن يُدفن قومار بن سايووِب في مقابر بودي دارما العامة، بصحبة الفرانجيباني والشماك، حيث كانت ماريان الصغيرة الغاضبة تنتظره في الجانب الآخر.



خرجوا، وسكن البيت من جديد، إلا من أدعية الجنازة المتلاشية في بطء. رجعت مامه ونوريني إلى الصمت. خرجت نوريني من المطبخ وقد بدت جائعة متخشّبة، لكن لم يكن في البيت طعام، فجرجرت نفسها إلى الصالة، ومضت تترنّح حتى دخلت الشرفة وجلست على الأريكة التي غُسل عليها جثمان قومار. رأت أحبَّ زهورها وقد اختفت. تابعتها مامه بعينيها، ولم تزل عالقة في رأسها صورة أمّها البائسة في تلك الليلة الرهيبة، حين كانت نوريني مشرفة على الموت فوق الصندوق، جاثمة أسفل زوجها، تئنُّ أنين بقرة يُنحر عنقها. وبغتة خطرت لها فكرة، فمضت إلى أمّها وقالت بصوت حادّ:

"عليكِ أن تتزوّجي يا أمي".

أفاقت نوريني من ذهولها وصفعت ابنتها صفعة بثّت في خدّها السخونة والألم.

ثلاثة

انتقلوا إلى سكنى البيت رقم ١٣١ حينما كان مارجيو في السابعة، وكان انتقالهم إليه رحلة سوف يُطلق عليها في القادم من حياته "نزهة عائلة البقرة". كانت رحلة مثيرة استغرقت ثلاث ساعات إلى المكان الذي ما فتئ قومار يقول عنه "بيتنا الخاص"، عبر طرق ممهَّدة بالأسفلت تتحوَّل إلى مستنقعات للجاموس المائي، تحتَّم على الأسرة أن تعبرها مثلما عبر اليهود البحر الأحمر المشقوق في الحكاية التي سوف يحكيها ماسوما كثيرًا في المسجد بعد حصَّة القرآن.

ركبت الأسرة عربة تجرُّها بقرتان سمينتان استعاروهما بلا مقابل من صاحب طاحونة الأرز؛ فلم يكن في طاقتهم أن يستأجروا شاحنة. جلس الرجل في المقدِّمة، وإحدى يديه تطلق العنان في تراخٍ، ويده الأخرى تلوِّح في اهتياج بسوط لم تكن تلتفت إليه البقرتان. وبجواره جلست نوريني وفي حجرها مامه الصغيرة، تغطِّي رأسها بحجاب أخضر داكن منقوش بزهور وتحاول أن تُطَمْئِن ولديها المأخوذين بسبب ذلك الانتقال. كان مارجيو جالسًا على الحشية المبرومة، محاولاً أن يحول دون وقوع الطاسة والدلاء، شاعرًا باليأس كلَّما صادفتهم عثرة في الطريق

فأوقعت بعض أغراضهم على الأرض. حينئذ كان مارجيو يضطرُّ إلى النزول لالتقاط ما وقع بينما العربة ماضية في تراخٍ. ثمّ يجري ملاحقًا العربة، ملقيًا عليها ما وقع من أغراض، ثمّ واثبًا من جديد إليها فيجلس ثمّة أو يستلقي ناظرًا إلى الطيور.

كان ثمّة اختصار هو عبارة عن طريق أسفلتي يعانق الساحل، وتكثر عليه الحافلات والشاحنات، لكن قومار خشي أن تفزع البقرتان من المركبات فجعل الطريق يمضي بدلاً من ذلك في مسار متعرّج يخترق تلالاً وحقول أرز وقرى مؤلفة من صفوف من البيوت المحجوبة بعيدان البامبو وقد خرجت منها النساء يجفّفْن الأرز في الأفنية والرجال يوقدون الحطب. وفي كل قرية من تلك كان الناس يتوقفون عن أعمالهم ليحملقوا في العربة مندهشين، فتُحكِم نوريني الحجاب على رأسها، بينما يبقى قومار بن سايووِب منطلقًا لا يُخجله منهم شيء، بل كان يُلقي عليهم التحيّة، وإن سألهم أحد إلى أين هم ذاهبون لم يكن يتردّد في الكشف عن وجهتهم.

لم يكن مارجيو مكترثًا على الإطلاق بالأطفال الحفاة أشباه العراة المحملقين فيهم من جانبي الطريق. كان مستغرقًا تمامًا في قراءة بطاقات مهابهاراتا المصورة متمعّنًا فيها محاولاً تحديد أيها آرجونا وأيّها كارنا، ومحاولاً في يأس الفصل بين التوأم ناكولا وساديوا[10]. لم يكنْ يُشتّته إلا أن يفلت من الرباط إبريق شاي أو كيس ثياب لحظةَ أنْ تصطدم

١٠ـ من شخصيات ملحمة المهابهاراتا الهندية.

العجلات بغصن واقع أو صخرة بحجم رأس إنسان. كان شديد الاستياء من إرغامه على الرحيل عن بيته السابق، وخسارته أصحابه الذين كان يتبادل معهم البطاقات والكريّات الزجاجية، ويطلق معهم الطائرات الورقية، ويخرج لصيد الصراصير. ولم يكن يضمن أن يجد في المكان الجديد أحدًا فيه ولو نصف ما في أولئك.

كان بيتهم قائمًا عند تقاطع طريقين مسفلتين، يقام فيه سوق كلّ اثنين، فيغصّ المكان بالباعة الجالسين أمام سلالهم على جوانب الطرق أو في الشرفات أو يملأون الأراضي الخاوية، يبيعون جوز الهند والموز والبابايا والمنيهوت، ومنهم من يعلّق ثيابًا جميلة على أطر خشبية يضعونها فوق درّاجاتهم، وكانت تأتي عجوز فتبيع الورد على صينية، ومن يسوقون بقرًا وجاموسًا وماشية راجين بيعها. كان ثمّة دجاج يقيّد من أرجله في أرجل بَطّ، ودلاء سمك وأنقليس. كانت النساء تأتين للتسوّق، وفي بعض الأحيان تأتي شاحنات لتحمّل بالمنتجات فلا تكاد تترك في السوق شيئًا وراءها. ولو أنّ أحدًا كان يخرج إلى سقيفته في أيّ يوم عدا الإثنين، فقد كان ذلك هو قومار بن سايووِب الحلاق، الذي كان يجلس بمرآة كبيرة مسنودة إلى طاولة، وعدّة حلاقة وكرسيّ ومناشف، وقميص حلاقة قطني ممّا يلفّه على رقاب الزبائن، معلقة جميعًا على مسامير في الجدار.

لم يكن ذلك المسكن بيتًا حقيقيًا. فلم يعدُ مخزنًا لجوز الهند، ينتصب بجواره قصر مهيب ذو شبابيك زجاجية ضخمة وأرضيّات مكسوّة ببلاط برّاق عاجيّ اللون، تدعكه خادمة كلّ صباح، ومن حوله

بساتين التفاح الأحمر والبرتقال وشجر المانجو، فضلاً عن فناء تركن فيه شاحنتان كلَّ ليلة. وحدث في يوم من الأيام أن أقام صاحب القصر مخزنًا أكبر حجمًا وراء مصنع زيت الطعام المملوك له أيضًا، وبلا سبب واضح هجر زوجته وأبناءه، وخلا المخزن الأصلي وبقي شاغرًا إلى أن استقرَّ فيه قومار ونوريني -وكان مارجيو لم يزل رابضًا في بطن أمّه- واستأجراه بقيمة اثني عشر رأسًا على كرسي الحلاقة في الشهر، فضلاً عن التزامهما بمعاونة أهل القصر في رعايته.

كان بيتهما ذلك عبارة عن مربَّع خرساني واحد طول ضلعه بضعة أقدام. فرش الأبوان حشيَّتهما المبرومة في تلك المساحة التي وجب في البداية تنظيفها من ألياف جوز الهند والعقارب والحشرات والفئران. فكان فراشهما بجوار درّاجة وخزانة وحصيرة من القش كانا يجلسان عليها. لم يكن في المكان مطبخ، فوضعت نوريني الموقد والمطبقيَّة والدلاء أسفل شجرة ميلنجو وراء البيت. وتحتَّم أن تُحيط موقدها ذلك بسياج من حطب قصير متعفِّن لتمنع الريح اللئيمة من الهبوب عليه وإخماد ناره. وبعد الطبخ كانت تحمل أواني الطعام وأطباق الخضراوات وسلَّة الأرز إلى داخل البيت، باسطة إيَّاها جميعًا بجوار الحشية، وثمَّة يأكلان. وواضح أنَّه لم يكن لديهما حمَّام. ففي صباح كلّ يوم وآخر العصر كانا يذهبان إلى القصر حيث حالفهما الحظ فكانا يعاران حمَّامًا ومرحاضًا منفصلين عمَّا يستعمله صاحب القصر وزوجته وأبناؤه. هنالك وُلِد مارجيو ومامه، وتلك هي الحياة التي عاشاها، فطابت لهما.

في سنواتهم الأخيرة في المخزن، كان مارجيو مكلّفًا بملء حوض الاستحمام، وحمل ثلاثة دلاء ماء إلى المطبخ الخلفي المكشوف، فكان يفعل ذلك قبل أن يذهب إلى المدرسة، ثمّ يعود فيكرّره عند العصر قبل أن يذهب إلى الشطّ ليطيّر طائرته الورقية. كان له في الحيّ أصدقاء كثيرون، منهم ابن بائع الثلج الطيّب الذي كان يمدّه بالمثلّجات. ثمّ انتقلوا إلى البيت ١٣١.

كان صاحب القصر قد رجع بدون إنذار، تمامًا مثلما سبق أن رحل بدون إنذار. باع البيت والبساتين وبالطبع باع مخزن جوز الهند، وانتقل وأسرته بعيدًا. تفقّد قومار المناطق القريبة، إلى أن تاه على مقربة من ملعب لكرة القدم غير بعيد عن القاعدة العسكرية وسوق القرية، وتبيّن له أنّ المنزل رقم ١٣١ ليس مسكونًا منذ ثمانية عشر شهرًا. ظلّ يستقصي أمر البيت حتى توصّل إلى مالكه، ولمّا عثر عليه لم يلقَ عناءً كبيرًا في الحصول على إذن منه بأن يُقيم هناك، فقد كان المالك الشيخ يتوقّع انهيار البيت عمّا قريب. رجع بالخبر إلى المخزن، ولكن كان عليه في البداية أن يُقنع نوريني أن يرهن خاتم زفافها ليدفع ثمن البيت الجديد.

لم يكن من السهل إقناع الولدين بالانتقال، بل إنّ نوريني نفسها بدت عازفة، برغم السنوات التي عاشتها بدون مطبخ أو حمّام. كان مارجيو هو الأكثر عنادًا، توسّل من أجل البقاء، ولم يفهم أنّ مالك القصر الجديد لن يؤجّر لهما المخزن الذي كان يعتزم تحويله إلى محلّ لبيع فُرَش الأسنان والصابون والحلوى.

وأضاف قومار بن سايووِب "زدْ على هذا أننا سنعيش جميعًا في بيتنا الخاص".

لم يرق هذا لمارجيو. كان في السابعة من عمره، محبوبًا بين أصدقائه، يقودهم في صيد الأنقليس المبهج كلَّ أحد، ليبيعوا صيدهم في سوق الإثنين، ويعطي البقية لأمّه. وكان يذهب مع الأولاد لجمع الحطب من المزارع قبل أن يهمل الحطب وكان مارجيو هو الذي يتعيَّن عليه أن يستجمع شجاعته ويواجه كبير العمال إن رفع عليهم العصا لو أوقعوا بعض الثمار غير الناضجة وهم ينتزعون غصون جوز الهند الميِّتة. كان يبيع الحطب لأن موقد أمّه لم يكن يعمل بالحطب، وبما يجني من مال كان يشتري الكريَّات الزجاجية، وكذلك الورق والخيط لصنع الطائرات الورقية. كما كان لديه من علب الصراصير أكثر ممَّا لدى أيِّ ولد في سنِّه. فكان مارجيو يرى أنّه ملك في مكانه وينظر إلى الانتقال في ارتياب ونفور.

عبس الولد وهدَّد بالهروب والبقاء حيث هو ولو كان معنى ذلك أن ينام في سقيفة أيٍّ من الجيران، أو في كوخ مزرعة جوز الهند. وأخيرًا ساقه قومار إلى ركن المخزن واشتدَّ عليه في الكلام قائلاً إنه عيِّل جاحد. لم يردّ مارجيو، فأمره قومار بن سايووِب أن يردّ، ولمّا أوشك مارجيو أن يفتح فمه رأى أبوه على وجهه وقاحة فهوى عليه بصفعة لاذعة. احمرَّ وجه الولد ودمعت عيناه لكن مارجيو لم يسمح لدموعه أن تسيل. لم يردّ. واغتاظ قومار من صمته فشدَّ عصا المنفضة التي كانوا ينظِّفون بها

الحشيَّة وانهال بها على ربلة ابنه فتهاوى مارجيو على الجدار وإحدى ساقيه مرفوعة. كان بوسعه أن يقاوم، لكنَّها مقاومة نهايتها الخسارة.

وهكذا بُرِمت الحشية، وأُحكِم رباطها بحبل بلاستيكي ووُضِعت على العربة فوق فراش من حصير. رُبطت المطبقية في المؤخرة بينما وُضعت الأطباق والأكواب في سلَّة ملفوفة في قماش وموضوعة وسط المخدَّات. أمّا عدة الحلاقة فلُفَّت ودُسَّت تحت كيس ثيابهم القابع وسط الكراسي والطاولات، قريبًا من الطاسة والدلاء والموقد والأواني، وانحشر مارجيو وسط علب الصراصير والكريّات الزجاجية والمخدّات، بينما صُفَّت البطاقات المصوَّرة الملفوفة بالمطاط في جيوب بنطال الزيِّ المدرسيِّ القرمزيِّ القصير الذي كان يرتديه. وقف هنالك بجوار العربة والبقرتين مرتديًا قميصًا ينقصه زِرّان، بشعر متكلّس يميل إلى الحمرة، وفردتي شبشب غير متطابقتين، إلى أن طلب منه قومار أن يثب على العربة بمجرد إغلاق البوّابة الحديدية وانتهائهم من كلمات الوداع.

لو سُئل عن أتعس يوم في حياته لقال إنّه ذلك اليوم. رأى مارجيو وجه أمِّه الرافض من وراء الحجاب ـ الذي لم تلبسه قبل ذلك قطّ ـ وهي جالسة بجوار قومار، ولم يدرِ مارجيو أهي حزينة لانتقالهم أم لفقدانها خاتم زفافها. كان يرى في أمِّه حليفًا، لكنَّه أدرك من صمتها قلّة العون الذي يمكن أن تقدِّمه له، فصعد خائب الرجاء إلى العربة وأقعى على الحشيَّة، يشاهده أصحابه الواقفون في السقيفة التي كان قومار بن سايووِب لسنين طويلة يمارس فيها حرفته.

لم يكونوا في حقيقة الأمر يبتعدون كثيرًا، لكن إيقاع البقرتين المتواني واختيار الطريق أعاقا الرحلة، وفي قابل الأيام سوف يذهب مارجيو سائرًا على قدميه فيزور مراتعه الأولى وأصدقاءه القدامى، لكنَّه الآن صامت أغلب الوقت فوق الحشيّة، يستلقي حينًا على ظهره محملقًا في السحب أو البلشون العابرة، ويلتفت حينًا ناظرًا إلى الطريق المتعرّج من ورائه، ممتدًّا إلى البعيد، أو يسند ذقنه على يديه ناظرًا إلى حقول الأرز المتلاحقة نفّاذة الرائحة. نوريني هي الأخرى لم تقل شيئًا، وبقيت منكفئة على نفسها كمن يعذّبها العار. وحينما كانوا يمرُّون بشخص على الطريق، لم تكن تُبدي ما ينمُّ عن رؤيتها له. كان يمكن الظنُّ بأنَّها عروس حديثة الزواج حريصة على كرامتها لولا أنَّ ابنتها كانت على ذراعها، نائمة نومًا عميقًا برغم قعقعة العربة. وفي قابل الأيام، سوف يقول مارجيو لأخته إنَّها كانت سعيدة الحظ أنْ نامت طوال تلك الرحلة المهينة.

وحده قومار بن سايبوب جلس منتصبًا، وبين الحين والآخر كان يروّح عن نفسه بأغنية يدندنها. وكانوا كذلك يتوقّفون بين الحين والآخر ليريحوا البقرتين باديتي الإنهاك. وفي الوقت نفسه يشرب الركّاب ويأكلون الموز وقشر الأرز المقليّ.

عندما بلغوا الطريق الأسفلتي، أعلن قومار أنَّهم أوشكوا على الوصول. كان من ورائهم في الوحل آثار متوازية تركتها عجلات العربة الخشبية المكسوَّة بالمطّاط. بلغوا أطراف بلدة فيها طريق على جانبيه بيوت جميلة. كانوا لم يروا بعد بيتهم الجديد، ولكنَّ ذلك الترحاب

وتلك الأسيجة ذات الطلاء البرّاق المزخرفة بالحديد المشغول والمصابيح المضاءة وصناديق البريد، جعلت مارجيو يبدأ في الإحساس بالإثارة. التفت إلى أمّه راجيًا أن يرى على وجهها ما ينمُّ عن مثل مشاعره. لكن نوريني بقيت منكفئة على نفسها! غارقة فيها. نسيها مارجيو حينما نظر من جديد إلى الجالسين في سقائفهم ذات الأصص المعلّقة وفيها نبتات أذن الفيل وزهرات الأوركيد. عند أيٍّ بيت من هذه البيوت سوف تنتهي رحلتهم؟

لكنّهم بدلاً من التوقُّف هنا انعطفوا إلى حارة بالغة الضيق أوشكت ألا تتسع للعربة. فكان لزامًا على مارجيو أن يسحب المطبقية الناتئة التي كانت تصطدم بالأسيجة. تقدّمت العربة ببطء غير معتاد طوال الرحلة، متأرجحة أكثر من ذي قبل، عبر أكواخ متكدّسة وحدائق مهجورة، كانت مختبئة كلُّها وراء البيوت اللامعة التي سبق أن عبروا بها. وأخيرًا توقّفوا تحت شجرة كابوك كانت قد أسقطت زهورها للتو. كان البيت رقم ١٣١ قائمًا أمامهم.

قال قومار في فخر لم يلقَ ردًّا من أسرته: "ها هو البيت".

كان البيت أكبر من المخزن، قد يوشك أن يبلغ طول كلّ جانب فيه أربعين قدمًا، فكان لا بدَّ أنَّ فيه غرفة نوم ومطبخًا وحمّامًا. ولكن مارجيو قدَّر أنَّ عاصفة لعينة واحدة تكفي وزيادة لتطيح به في طريقها. أو أنَّ شجرة جوز هند قد تقع فتسوّيه بالأرض. فنظرة واحدة كفيلة بفضح ميل أحد جوانبه، وإشرافه على الانهيار. بدا كئيبًا مفعمًا برائحة

الموت، رطبًا، بائسًا. سطحه مبنيٌّ من بلاطات طينية حمراء باهتة اسودَّت بما عليها من طحالب أحرقتها الشمس. وكان مارجيو على يقين من أنَّ الماء ينصبُّ انصبابًا إلى قلب البيت عند المطر. وبدا أنَّ الأسوار المقامة من عيدان البامبو تهتزُّ أمام الريح، وأنَّ الطلاء الليموني مقشور عن مواضع القطع في كلِّ عود من أعواد البامبو.

فتح قومار القفل المعلَّق في الباب الأمامي بينما أسرته واقفة وراءه، وقد عقدت الخيبة ألسنها. كان الباب قد انتفخ بسبب رطوبة الصيف فلم ينفتح بسهولة. وما كادوا يفتحونه حتى استعصى الباب اللعين على الانغلاق. كان البيت من الداخل معتمًا مفعمًا برائحة عفن القمامة، مهملاً منذ ثمانية عشر شهرًا، ملاذًا للعناكب ومرتعًا للفئران التي سارعت بالجري لحظة أن سمعت أصوات خطاهم. فضلاً عن وطواط مفزوع أخذ يحوم في الغرفة قبل هربه منها. قليلاً قليلاً أخذت تتلاشى رائحة الوطواط الطاغية وروث الأبراص أمام النسيم بمجرد فتح الشبابيك.

لم تكن الأرضيَّة إلا ترابًا رطبًا حُبيبيًّا تحت أقدامهم. وكان مارجيو محقًّا بشأن انسراب المطر إلى البيت. فلم يكن بوسعهم أن يفردوا الحصير والحشيَّة على الأرض مثلما كانوا يفعلون في بيتهم السابق، بل كان لزاما عليهم أن يشتروا سريرين.

فتحت نوريني فمها للمرة الأولى قائلة "هل في الدنيا شيء أكثر خرابًا من هذا"؟

فقال قومار: "اخرسي! خرب أم غير خرب هذا البيت بيتنا".

كان ينبغي أن تدرك نوريني وضاعة ما يمكن الحصول عليه لقاء مجرَّد خاتم زفاف وزنه ستّة قراريط. كان البيت ملكًا لهم، وإن لم تكن الأرض التي يقوم عليها كذلك.

قضوا أسبوعًا كاملاً في التنظيف، وإزالة شبكات العناكب وصيد الفئران المتكاثرة في أعشاشها التي سدُّوها. استعار قومار مجرفة لتسوية الأرض وتنقيتها من أنواع الروث الحيواني المختلفة فيها. كما صعد هو ومارجيو إلى السطح لإصلاح البلاطات التي كانت الريح والحمائم تقلقلها. وازداد مارجيو سخطًا، ولم يكن بيده ما يفعله إلا أن ينفّذ تعليمات أبيه أو يواجه عصا المنفضة مرة ثانية. كان عليهم كذلك أن يقتلعوا السراخس والفطر، ويقلّموا شجرة المرجان المجاورة للبئر وراء البيت.

أسعدهم الحظ بأنّ لديهم بئرًا، وإن كان لزامًا عليهم أيضًا أن ينظّفوه هو الآخر قبل أن يضيفوا إليه الحبل والدلو. كان أكبر أسباب الرفاهية في البيت هو الحمَّام، فقد كان مُقامًا من الأسمنت وكسر السيراميك فضلاً عن مرحاض مسدود استغرق تسليكه شهرًا، فظلّ عليهم حتى ذلك الحين أن يتغوّطوا في مزرعة الكاكاو أو في مصرف صغير وراء مصنع الطوب. كان في البيت غرفتا نوم جاء إليهما قومار ذات صباح بسريرين خشبيَّين، أحدهما له ولنوريني وللصغيرة مامه والآخر لمارجيو. وفي قابل الأيام سوف يتغيَّر ذلك، إذ تصير غرفة

لنوريني ومامه، والأخرى لقومار بن سايووب. ويُزاح مارجيو إلى الأريكة في غرفة المعيشة، أو كوخ الحراسة، أو المسجد، أو كشك آجوس سفيان.

كانت أرض البيت نفسها ملكًا لامرأة عجوز اسمها (ما رابعة)كانت تملك . شأن كاسيا زوجة أنور السادات . أرضًا تمتدّ مخترقة حدود العديد من القرى. فالبيوت القائمة على أحد جانبي الطريق العريض كانت قد أقيمت على قطع أرض أمكن شراؤها من ملاك سابقين. وقد حدث ذلك قديمًا عندما كانت العائلات تحلُّ وترحل، حاملة هياكل بيوتها التي كان يبدو وكأن بالإمكان طيّها جميعًا وحملها في أكياس. وبعض الوافدين على الطريق الضيّق لم يُنبئوا ما رابعة بما كانوا يفعلون إلى أن رأت بنفسها البيوت البيض قائمة هناك وقد ازدانت أفنيتها الأمامية بشجرات الياسمين الجميلة. فإن عنَّ لأيٍّ من واضعي اليد أولئك أن ينتقل، كان يفكّك جدران البامبو، ويربطها، ويحملها معه برفقة هيكل البيت الخشبي، ويحلُّ محلَّه غيرُه.

وما كادوا يحيلون البيت إلى مكان صا لح للحياة حتى قالت نوريني: "ها نحن الآن، في انتظار أن تأتي ما رابعة لتطردنا؛ وحينئذ يكون علينا أن نحزم كل هذه الأغراض من جديد".

طوال حياتها، لم تطرد ما رابعة نفسًا واحدة. بل كان واضعو الأيدي يحلون ويرحلون كيفما يشاؤون. ولم يحدث مرّة أن حصّلت الجدّة العجوز إيجارًا أو جاءت تطلب العون لدفع الضرائب. كانت تحبّ

أن تتكلم في أمور أخرى وتقضي الساعات في ضحك مع النساء قبل أن نرجع إلى البيت. كانت أرملة عجوزًا طيِّبة لُمحارب قديم، وكان التعويض الوحيد الذي يقدِّمه واضعو الأيدي لمالكة الأرض هو علب الكعك التي يبعثونها إلى بيتها في كلّ عيد فطر. وحتى هذه لم تكن تطلبها، ولا كانت أسنانها المتهالكة تقوى على مضغها.

قبل سنين كثيرة، حين لم تكن المنطقة كلُّها غير دغل من الآكام باستثناء قطعة يعيش فيها صيادو السمك بمحاذاة الساحل، لم يكن لتلك الأراضي مالك على الإطلاق. فكان أوَّل من قطنوها جماعة بدو من الشرق قسَّموا الأرض فيما بينهم بأوتاد وعلامات حدودية. أولئك القوم -ويقال إنَّهم كانوا اثني عشر رجلاً جاؤوا ممتطين الحمير- هم الذين طاردوا الخنازير البريَّة وكلاب الأياك، وكانوا أوَّل من أقام المزارع والبيوت، وصاروا ملاَّك الأرض الممتدَّة إلى أبعد ممَّا تنتهي إليه الأبصار. خشيهم صيادو السمك فتجمَّعوا بمحاذاة ضفاف الأنهار. اقتلعوا الآكام، وزرعوا الأرز، وبقوا في الذاكرة بوصفهم مؤسِّسي القرية.

جاؤوا بالجميلات من قرى صيادي السمك ومن سواها، وتزوَّجوهنّ فأنجبوا منهنَّ أبناء ورثوا الأرض بما عليها من مزارع وحقول أرز ومزارع جوز هند. إحدى تلك الأسر المؤسسة أنتجت ما رابعة وأخرى أنجبت كاسيا. كاسيا تنتمي إلى الجيل الرابع من جيل الأوتاد الحدودية، أمَّا ما رابعة فكان يقال إنَّها من الجيل الثالث، ولم يكن من سبيل إلى إحصاء أملاكها أو تعيين حدودها حتى بعد تقسيمها الأرض بين أبناء عمومتها. وحينما جاء قومار بن سايووِب ليقيم

هناك، كان يقال إنَّ الأوتاد الحدودية لم تزل قائمة في أماكنها التي غُرست فيها أوَّل ما غُرست.

تزوجت ما رابعة جنديًا، وهي بعد فتاة صغيرة خلال السنوات الأولى للجمهورية، وعاشا معًا في شيء من الرغد بدون الاضطرار إلى الاعتماد على أرضها؛ إذ كان يكفيهما ما يدرُّه العمل في أنشطة التهريب العلنية الخاضعة لسيطرة الجيش المحلي. واستمرَّ ذلك طوال سنوات الثورة وما بعدها. وبوسع الرائد سِدْرَه أن يؤكد صدق ذلك كلِّه. وهكذا انتهت الأراضي المترامية إلى أن تجدب بين يدي اثنتين لعلَّهما نسيتا أنها ملك لهما. ارتدت الأرض أدغالاً مليئة بالآكام الشائكة والحلفا، إلى أن جاء اليوم الذي بدأ فيه الناس يصلون إلى البلدة وقد شرعت ملامحها تتشكَّل، فنظروا في دهشة إلى تلك الأراضي الشاسعة المهمَلة. جاؤوا إلى بيت ما رابعة طامعين في الاستئجار أو الشراء، ولمَّا لم تكن بحاجة إلى المال تركتهم يعيشون فيها بلا مقابل، لكن بعض ملاَّك البيوت القائمة على الطريق الكبير أصرُّوا على الدفع، خشية أن يأتي يوم يقلقلهم فيه من مكانهم أحد أو يُخليه منهم، ولأنهم كانوا يقدرون على الدفع.

كان لما رابعة وزوجها ثمانية أبناء، اشتُهروا جميعًا بين أهل البلدة ببراعة ماضية في التجارة. كان أحدهم هو أوَّل من أقام سينما تعرض ثلاث مرَّات في اليوم، طوال أيَّام الأسبوع. وآخر فتح متجر كعك وأعلن عن بيعه الكعك رقم واحد في العالم. وأقام آخر لتجميد وتعليب الجمبري، أو كان بالأحرى يشتري صيد نصف صيَّادي الساحل الجنوبي

تقريبًا من الجمبري والسمك ليُعيدَ بيعه للبلاد التي يأكل أهلها الجمبري، فكان الناس يصفون صهاريجه وثلاجاته العملاقة بالمصنع. وكان أولئك الأبناء جميعًا يتنقّلون في سيارات لامعة فصاروا مشاهير البلدة ونجومها، وكوابيس كذلك لواضعي الأيدي على أراضي أمِّهم.

لم يمضِ وقت طويل على موت أبيهم، حتى بدأ الأولاد يختصمون بعضهم بعضًا على الميراث، غير مُبالين مطلقًا بأنَّ هذه الأراضي جميعًا إنَّما هي ملك لأمِّهم التي لم تزل على قيد الحياة. طرد أكبرهم أسرة من أرض كانت تقيم فيها منذ ثمانية عشر عامًا، مُعرِضًا عن توسلاتهم جميعًا، من أجل أن يُقيم مصنعًا للثلج، فلم تجد الأسرة بدًّا من تفكيك بيتها والرحيل. وفي غيرة ممّا أقدم عليه الأخ الأكبر، طرد الأصغر أسرًا عديدة أخرى، مُخليًا الأراضي لمحلاًت ومصانع ومزارع سمكية تاركًا أراضي أخرى تتدهور حتى صارت مراتع للأرواح الشرِّيرة. وغرزوا أوتادًا حدوديَّة جديدة مقسِّمين الأراضي فيما بينهم بغير استشارة أمِّهم.

لم يفه أحد بكلمة شكوى لما رابعة، لكنَّها كانت تستطيع أن تقرأ ما تراه في أعين سكَّانها. وكانت دائمًا تستمتع بتفقد إمبراطوريتها، فتسير من كوخ إلى كوخ متحدثة إلى ساكنيها، حتى باتت تهدِّدها أفعال الثمانية الجاحدين. كانت توبِّخهم على غطرستهم وطردهم الناس بدون الرجوع إليها، ولكنَّهم كانوا أشدَّ عنادًا من الشيطان نفسه، وأبشع ممَّا كان بوسعها أن تتخيَّل. فما كانوا يرفضون الاعتذار عمَّا يقترفون وحسب، بل ويقابلون توبيخها بمزيد من الإخلاءات.

وفي غضب عليهم كانت تقول للكثيرين "هاتوا لي طريقة أحرمهم بها في وصيتي".

وفي يوم من الأيام ظهرت الخطّة في لحظة إلهام. كانت تتنقّل من بيت إلى بيت، مستأنسة بالجلوس مع الرجال والنساء، تقول لهم إنّها سوف تبيع أراضيها، وإنّ عليهم أن يدفعوا ثمن الأراضي التي يشغلونها. وكان الناس جميعًا، بمَن فيهم قومار، يتمنّون لو يشترون تلك الأراضي لأنفسهم، ولكن لم يكن يملك المال الكافي منهم إلا القليلون. وعند لحظة في تجوالها بالحيّ، توصّلت ما رابعة إلى الحل البسيط الواضح:

"سأبيعها بأرخص ما أستطيع".

وكان أرخص ما تستطيعه ذلك، يعني في حالة قومار أنّ عليه أن يحلق مئة وعشرين رأسًا ليشتري الأرض التي يشغلها بيته وحديقته الأمامية. كان ذلك في عامهم الثامن هنا، ولم يزل قومار يدّخر المال ليستردّ خاتم الزفاف الذي رهنه، وإن لم يتمكّن حتى يوم وفاته من استرداده. جاء بقية الجيران بمدّخراتهم الهزيلة واقترضوا المال من مكوجه مرابية القرية، ومنهم من باعوا الدرّاجات النارية أو العقود، فلم ينقضِ عام إلا وانتقلت الأراضي سريعًا من يد إلى يد.

حُرِّرت عقود نقل الملكية، ووُقِّعت، وكُلِّلت ببصمة العجوز، وخُتمت بالأختام الرسمية. وتبدَّدت مخاوف الناس. وما عاد للأيام التي يُقضَى عليهم فيها أن يطووا بيوتهم ويعبّئوها في الأكياس أن تأتي أبدًا. وضعوا تلك العقود في أطر وعلّقوها في غرف المعيشة كأنّها شهادات

دراسية، فكانت أعزَّ ممتلكاتهم على أنفسهم. وتنامى حبُّهم لما رابعة، وإن لم يعبِّروا عنه بأكثر من علبة كعك من الصفيح.

كانت المبالغ المدفوعة زهيدة، ولكنَّ عوائد تلك الصفقات الصغيرة التي أبرمتها ما رابعة وبصمت عليها تجمَّعت حتى صارت ثروة حقيقية. لم تحسب يومًا أنَّها قد تحقِّق هذا الثراء حقًّا، فإذا بالنقود تتكدَّس بكلِّ معنى الكلمة تحت سريرها. وحتى لو كانت أرادت أن تخبِّئها في موضع آمن لما عرفت أين يمكن أن تفعل ذلك. كانت تخشى أن يعرف أبناؤها بأمر تلك النقود المبعثرة في أنحاء بيتها، ثُمَّ عثرت على حلٍّ. وما فعلته كان حدثًا أثار أهل القرية لسنين تالية وحكاية أخرى سوف تتناقلها الأجيال شأن أساطير القرية الأخرى.

في الأيام القليلة الباقية من شيخوختها، أنفقت قرشين على حصانين، شديدي الرقَّة لدرجة أنَّ الأطفال كانوا يلعبون معهما إذ كانت تتركهما طليقين على الساحل. اشترت أيضًا حافلة فقد كانت منذ طفولتها حسبما يقول الناس مغرمة بركوب الحافلات. ولكن لأنَّها لم تكن تجيد قيادتها فقد بقيت الحافلة مركونة وراء البيت حتى صارت عشَّة للدجاج. وفي يوم من الأيام ذهبت إلى السينما التي يملكها أحد أبنائها بدون أن تخبره بذلك واشترت جميع التذاكر لكي تشاهد الفيلم وحدها. ولا يزال الناس يتذكَّرون أنه كان فيلم بوتري جيوك لأنَّها بعد ذلك اشترت مزيدًا من التذاكر لكي يشاهده الناس بالمجَّان على مدار يومين. ولم تكتفِ في بذخها بهذا، بل ذهبت إلى محلِّ ثياب واشترت خمسة فساتين زفاف، لم ترتدِ منها إلا واحدًا نامت به يومًا

حينما اشترته، ويومًا آخر حينما ماتت. اشترت جوال خبز واقتسمته مع بضعة أولاد، وانتهت من أكل نصيبها وهي راكبة درّاجة ثلاثية العجلات ظلّت تسوقها في عاصفة من الجذل والضحكات إلى أن بلغت البيت.

ولم يكتشف أبناؤها ما فعلته إلا بعد محاولات فاشلة لتفكيك العديد من البيوت؛ إذ أوقف المُلاّك الجدد عمليات الإخلاء رافعين في وجوه الشاحنات عقودهم المؤطّرة. إذ ذاك فقط رأوا الحصانين يخبّان في البرية وانتبهوا جزعين إلى الحافلة المليئة بروث الدجاج. والأدهى من ذلك كلّه أنّ مالك السينما وشى بها لديهم، فتآمر الأبناء في غضب للاستيلاء على البقية الباقية فكتبوا عريضة طويلة مفادها أنّها تترك لهم بقية أملاكها، وحاولوا إرغام مارابعة على بصمها، ولكنّ المرأة هزّت رأسها في أسى ورفضت أن تستجيب لهم.

في صباح ذلك اليوم الذي لن ينساه أحد، ارتدت ما رابعة أحد ثياب العرس للمرّة الأخيرة وقد رفضت مفاوضات أبنائها. جلست على أريكة صغيرة أمام البيت، تملأ يدها من تراب فنائها الأمامي وتأكل. حاول بعض الناس إيقافها، فأصرّت على أنّ أكل أرضها خير لها من تركها تقع في أيدي أبنائها الملاعين، ممّن يكترثون لثروة أمّهم لا لأمّهم. وفيما هي تحشو فمها بالتراب، نقل أحدهم الخبر إلى أبنائها وإلى الشرطة وإلى الضبّاط في القاعدة العسكرية. لكنّهم لم يصلوا إليها إلا وقد باتت طريحة الأرض في فستانها الجميل، باردة الجسم، خالية من الحياة،

وسط الساتان والدانتيلا. وقال قائل إنّ حصاة خنقتها. وبقي موت مارابعة دفاعًا عن أرضها حكاية تحكى.

هكذا إذن امتلك قومار بن سايووِب بيته بالأرض التي يقوم عليها. لم يفقد ذلك الحظ السعيد قدرته على إدهاشه قطّ. ومع أنّه بقي فقيرًا لا مراء في ذلك، فقد بلغ مستوى الوفرة الذي كان يراه على الدوام بعيدًا عن شواربه. لم يعد الآن يحلق للناس في السقيفة، بل في السوق، منتظرًا بدرّاجته أسفل شجرة لوز استوائية هناك، بجوار كشك الدجاج والمكرونة، في الموقع الذي يسلّمه لبائع يبيع فيه الباجيجور بالليل، فينعم الناس بحليب جوز الهند الساخن المحلّى.

برغم ذلك الحظ السعيد، لم ينسَ مارجيو ونوريني قط خيبتهما الأولى حين لم يريا في البيت رقم ١٣١ أكثر من مرتع للأرواح الشرّيرة، أمّا مامه فكانت بعد بنتًا صغيرة في الأسرة فلم تجلب لها ملكية البيت أيّ سعادة. في واقع الأمر لم يتغيّر الكثير في حياتهم طوال السنوات الثماني التي قضوها هنا، باستثناء أنّ مارجيو ومامه كبرا، وأنّ نوريني ازدادت نحولاً وغرابة.

كان بوسع من عرفوها منذ طفولتها أن يروا كم تدهور حالها. لم يكن عليك سوى أن تطالع بطاقة هويتها المنتهي سريانها منذ أمد بعيد، والصادرة في أول أيام زواجها، فترى صورة المرأة الجميلة فيها، متماوجة الشعر ريّانة الخدّين يشعّ الوهج من عينيها المدوّرتين. وتقارن ذلك بشكلها الآن، فترى أمامك جمالاً باهتًا، وعينين رماديتين

منطفئتين، وبشرتها الفاتحة وقد فقدت نضارتها وانطفأت كأنّها الجير. ولم يكن أكثر وأدقّ تعبيرًا عن سخطها من نظراتها الذاهلة. فلم يغب ذلك عن قومار بن سايووِب مطلقًا. وفي اليوم الذي أخبرها فيه أنّ الأرض صارت ملكًا لهم لم تفرح أكثر ممّا كانت لتفرح برجوعه إلى البيت بثلاثة كيلوجرامات من الأرز.

قال قومار محاولاً أن يثير حماسها: "بوسعك الآن على الأقل أن تزرعي زهورًا لا يأتي أحد ويقطفها".

لم ينَلْ منها الحماس مطلقًا. بل اكتفت نوريني بأن توارت في المطبخ، وذلك ما دأبت عليه في تلك الأيام لتتحاشى زوجها. كانت تجلس فيه على مقعد صغير مواجه للموقد. وانتبه قومار إلى تلك العادة التي طرأت عليها ولم يفُته معناها. أخذ يتابع حديثها إلى الموقد والطاسة، وقد حسب في البداية أنّها تئنُّ أو تتأوّه، وتغمغم بأصوات لا معنى لها، لكنّ الأيام مرّت وبات واضحًا أنّ نوريني تتكلّم فعليًا إلى تلك الجمادات، وأنّ بينها وإيّاهم حوارات ما لأحد أن يفهمها.

إذ ذاك استقرّ رأيه على أنّ زوجته فقدت عقلها. لكن لعلّها كانت تدّعي الجنون وحسب؛ إذ كانت في أغلب الوقت تبدو طبيعية في أفعالها، يمكن إغراؤها بالحديث. بقيت تشكو من هذا الشيء أو ذاك، وتوجّه الأولاد إلى القيام بواجباتهم، وتوبّخ مامه إن نسيت كنس البيت، أو تنادي مارجيو ليطرد بُرصًا. لكنّها في كثير من الأحيان كانت تفقد اتزانها ولا يبدو أنّها تعرف أحدًا إلا نفسها. ورأى قومار هذا

جنونًا، وبدا أنَّ جنونها يزداد، وذلك ما سوف يتبيَّن لمامه ومارجيو في قابل الأيام.

كان قد تزوَّج نوريني وهي في السادسة عشرة من العمر وهو في الثلاثين تقريبًا، زواجًا تقليديًّا مرتَّبًا له حسبما كان شائعًا في القرية، وبعد خطبة استمرَّت أربع سنوات. وفي اليوم الذي جاء فيه سابووِب بملء دلو من الأرز والمكرونة عاقدًا على رقبته وشاحًا أزرق داكنًا، يطلب يدها لقومار، كانت بنتًا لم يكد ثدياها ينهضان، ولم يكد يظهر لها بين ساقيها غير شعرات متفرقة. كان الوالدان بالطبع قد تكلَّما في الأمر من قبل، أي أن التقدُّم للخطبة نفسه كان مرتَّبًا له، بل تحصيل حاصل. اتفقا على أن يتزوَّج الاثنان في أقرب مسجد بمجرَّد أن تقوى نوريني على الحمل. وكان الحاضرون في ذلك اليوم هم سابووِب ووالد البنت، وزوجتاهما، وبضعة أقارب، أمَّا قومار نفسه فكان بعيدًا في أيِّ مكان، فلعلَّه كان في المدينة الكبيرة يبحث عن عمل، شأن أغلب شباب المنطقة، ولعلَّ نوريني كانت بالخارج تغسل الثياب عند الحنفية، أو تبحث مع صاحباتها عن المحار.

لم تعرف البنت بالأمر حتى المغرب. قال أبوها: "يومًا ما سوف تتزوَّجين قومار بن سابووِب".

لم تكن في الحقيقة تعرف الرجل على الإطلاق، ليس أكثر من كونه شخصًا من القرية، اسمًا لا تكاد تربطه بوجه. لم يدهشها الوجه الذي كان له، لأنَّها لم تكن تنتظر شيئًا، عدا أنَّها ـ شأن أيِّ بنت ـ كانت

تنتظر لحظةً يخبرها فيها أبوها بالرجل الذي سوف تتزوَّجه، ولم تكن تفضِّل شابًّا على غيره، فكان الخبر نفسه كفيلاً بإسعاد البنت ذات السنوات الاثنتي عشرة، برغم الخوف الحتمي الذي أعقب تلك السعادة. صار بوسع نوريني على الأقل أن تخبر أقرب صاحباتها بأنَّ لها خطيبًا. ولم يكن أدعى لحرج أيِّ بنت تجاوزت اثني عشر عامًا من عدم معرفتها بمن سيكون زوجها في المستقبل.

تغيَّرت الدنيا وتقلَّبت مرَّات عديدة، وأصبحت نوريني الصغيرة الآن المرأة الشابّة نوريني. اشترت لها أمُّها طلاء شفاه قرمزيًّا وقلم حواجب ولم تعد تسمح لثدييها الناهضين الصغيرين أن ينكشفا في الهواء الوادع إذ يهبُّ نسيمًا على القرية القائمة على سفح التلّ. وتدريجيًّا ترقرق الخبر حتى بلغ آذان الأهل والأصحاب، خبر ارتباط مصير البنت بمصير قومار بن سايبوب، ففرح أولئك جميعًا لها.

لم تعد تتبع أباها إلى حقول الأرز في الصباح وتقف على النورج ليغوص في الطين بينما تجرُّه الجاموستان ببطء في الأرض ناثرة عليها الوحل. ولا عادت تسوق نعجتيها إلى المرعى على السفح بصحبة غيرها من الرعاة الصغار، حاملة فرعين يابسين من شجرة جوز الهند ليكونا لها حطبًا تشعله في طريق العودة. لا، تلك مهامّ انتقلت إذ ذاك إلى إخوتها الصغار، بينما بقيت هي بجوار أمِّها. كانت في الصباح تضرم النار في الموقد لتطهو الأرز وتتعلَّم كل خطوة لطبخ وجبة اللوده[11]

١١ـ lodeh حساء خضراوات يُطبخ في حليب جوز الهند.

المثالية. وبقيت تذهب إلى حقول الأرز، لا لحرث الأرض، بل لبذر البذور بعد نقعها طيلة الليل. وحين كانت البراعم الصغيرة الخضراء تظهر، كانت تنضمُّ إلى بقية النساء لتقلعها وتغرسها من جديد في الأرض التي عزقها أبوها وإخوتها الصغار وجعلوها خطوطًا متقاطعة. وفيما كانوا ينتظرون الأرز أن يطول، كان والدها وإخوتها ينثرون السماد ويراقبون الماء لكي لا يركد، وتحمل هي وأمُّها عمود الغداء إلى كوخ عند الحاجز النهري. ثمَّ إنَّها كانت ترجع مع أمِّها إلى الحقول مرَّة أخرى حينما يحين موعد تنظيفها من الطحالب والأعشاب، وفي تلك الأثناء أيضًا كان يتاح لها وقت لجني البذور الناضجة بالسكِّين، فقد كان ذلك قبل زمان بعيد من استعمال القرويين للمناجل. وبعيدًا عن ذلك، كان على نوريني أن تعتني بجسمها حتى يستوي ويزهر، وأن ترقِّق لغتها، بعدما أصبح لها خطيب وصارت تتهيَّأ لزفافها.

أمّا قومار، فكان قد رحل عن قريته ـمراعاةً لأعرافهاـ بعدما بلغ العشرين، فلم يكن في القرية عمل كثير للرجال في مثل سنِّه. كانت لدى سايبوبِ أراضٍ كثيرة من حقول رطبة وجافَّة، ولكنَّه كان يقدر عليها هو وزوجته بلا عون من أحد، ويبقى لديه بعد ذلك من الوقت ما يجعله حلاَّق القرية الوحيد. وبعد درس قصير في كيفية حلاقة رؤوس الناس، وإعمال النصل في تشذيب شواربهم ولحاهم، وبعد محاولات عديدة لأن يحلَّ محلَّ أبيه، تبع قومار صديقًا له ومضيا يهيمان في الدنيا، مسلَّحًا بمعرفته كيف يحلق ذقون الرجال. بصورة طبيعية، لم يكن يرغب

أوّل الأمر في أن يعمل حلاقًا على الإطلاق، ويحلم بالحصول على وظيفة في مصنع، شأن غيره من الشباب.

كان يرجع إلى البيت مرّة في العام، قبل عيد الفطر، مثلما يرجع كثير من شباب القرية وأسرها الهائمة، فيتوافدون في موسم الرجوع العظيم ذلك صفوفًا تلو صفوف على طريق التلال، حاملين صناديق ورقيّة وأكياسًا في أيديهم أو على أكتافهم. كان شعره لامعًا بالدهان، ويرتدي قميصًا يرفع كمّيه حتى المرفقين، وبنطالاً من القطيفة المضلعة لم تزل تفوح منه رائحة صالون الحلاقة، ويرتدي ساعة أيضًا، وحذاء جلديًا أسود يدفعه دفعًا إلى الخطو بحذر وسط الحفر الموحلة في كلّ مكان.

كان معه في حقيبته الضخمة تبغ لسابووب، وجبة من القماش الملوّن لأمّه، وجبيات جميلة لأخواته الصغيرات، وهدية لزوجته المستقبلية هي الأخرى بعدما بلغه نبأ خطبته. كانت غريبة عليه، لكنّه كان يعلم أنّها جميلة فرحّب بالزواج. تذكّر يوم وُلدت تلك البنت وكان يلعب يومها بجوار بيتها ورأى الناس يجتمعون انتظارًا لولادة الطفل. وكان قد رأى نوربني مرّات عديدة وهي تلميذة؛ لأنّ المدرسة لم تكن بعيدة عن بيته. لكنّ معرفته بها لم تتجاوز كثيرًا شعرها الطويل الداكن المتماوج، المربوط في الغالب بشريط إلى الوراء، وأنفها الحاد، وخدّيها الريّانين، وعينيها المدوّرتين اللامعتين. وحينما أخبره شخص بأنّ أباه اختار له بنتًا، صار قومار طبعًا يحلم بها كلّ ليلة، إلى أن قرّر الرجوع إلى البيت قبل الأوان.

التقيا عشية عيد الفطر، أعطاها قومار علبة بسكويت وحقيبة يد وردية جميلة، وفي خجل أعطاها صورة له. كانت صورة له وهو واقف بجوار سيارة فولكسفاجن صفراء لامعة لم تكن بالطبع سيارته بل سيارة واضح أنها مركونة في موقف. بدا شكله عبيطًا وهو يضع إحدى يديه غائصة في جيبه، وبدا وجهه أيضًا مبتهجًا يحمل علامات الفخر كأنما ما كان لأحد أن يختار لصورته وقفة كوقفته أو مكانًا كمكانه.

قضيا يوم عيد الفطر كلّه معًا، يتنقّلان من بيت إلى بيت، مصافحَين الجيران والأهل، متباهيَين بأنّهما عمّا قريب سيكونان زوجًا وزوجة، وكذلك كان يفعل جميع الأزواج الذين لم يلتقوا إلا في ذلك اليوم. سار قومار ونوريني جنبًا إلى جنب، متوقفَين مرارًا لتحية العابرين، وقد تورّدت خدودهما بمزيج من البهجة والحرج. تشبّثت نوريني في حقيبتها الوردية، وقومار لم يدرِ بحقّ أين يذهب بيديه، ففي أوّل الأمر جعلهما في جيبي بنطاله القطيفة، ثمّ فردهما على صدره، وأخيرًا تركهما معقودتين وراء ظهره، فلم يكن الوقت قد حان بالطبع لأن يمسك أحدهما يد الآخر. بل كان من شأن أوهى لمسة أن تبعث الرجفة في بدنيهما والحمرة في وجهيهما.

اصطحبها قومار لتجرّب كريّات لحم وا دولاه في كشك المكرونة الشهير بجودته ورخص أسعاره. كان كشكًا على النهر وسط صفٍّ من الأكشاك التي يقف عندها الناس في انتظار المعدّية. احتشد الزبائن على الكشك ينتظرون طلباتهم، ولمّا جاء طلب الاثنين قصدا صخرة كبيرة وجلسا يأكلان عليها، وقد أمسك كلٌّ منهما السلطانية بيد والملعقة

بالأخرى. وعند لحظة انزلق قومار فانتثرت كريّة لحم في الهواء ليضحكا ضحكًا يُدفئه الحبُّ، وكذلك ينبغي أن تكون البدايات. عند العصر شويا سمكًا تحت تعريشة عند شجرة خوخ كبيرة بعدما قضيا بعض الوقت في الصيد مع الأصدقاء في برك وا حاجي. وكان دأب أهل القرية أن يأتوا بالأرز المطبوخ الملفوف في ورق الموز إلى سفح التلّ، ويصطادوا السمك هناك ويطهوا صيدهم بدون الرجوع إلى البيت. ومرّت أيام بدا فيها أنّ وقتهما معًا لن ينتهي إلى الأبد.

ذات يوم اصطحب قومار نوريني ومجموعة من الأصحاب لمشاهدة مسرحية في مسرح القرية. كان المسرح عادةً ما يغصُّ بالمشاهدين بعد عيد الفطر، حين لم يكن يوجد الكثير ممًا يمكن عمله بالليل ما لم يسافر المرء إلى بلدة بعيدة. سيظلُّ عنوان المسرحية عالقًا دومًا في ذاكرتيهما (تيتيان رامبوت دييلاه نوجوه)، وإن غامت بقية التفاصيل. كانت المسرحيَّة عن ولد عديم القلب، أشبه بالبطل الشعبي الوضيع مالين كوندانج الذي تهبط عليه ثروة كبيرة فيتغطرس على الناس حتى أنه يتنكّر لأمّه فينمسخ حجرًا. كانت فوق شباك التذاكر صورة لرجل يحترق في الجحيم. لن ينسيا تلك الأمسية أبدًا، فهي التي شهدت أوّل لمسة. في الظلام، وبينما هما جالسان على أريكة بسيطة، أمسك أحدهما يد الآخر، لم تعتصر الأيدي، إنْ هو إلا احتضان كان وحده كفيلاً بأن يتوهَّجا كمَن أضرمت في بطنيهما النار. وفي تلك الليلة رجعا إلى بيتيهما ليحلم كلٌّ منهما أن ثعبانًا لدغه.

لم يمضِ وقت طويل على عيد الفطر إلا وصار على قومار أن يستأنف تجواله في الدنيا مع أصدقائه كسبًا للمال، فصاحبته نوريني إلى قاعة القرية والدموع ملء عينيها. كانت تظنُّ أنّها تعيش حبًّا حقيقيًّا، وترجو أن يأتي الزفاف سريعًا. لكنَّ قومار أقنعها أنّه لا بدَّ أن يسافر، وأنّه بالقطع سوف يرجع في عيد الفطر من السنة التالية. تكدَّست الحقائب على أرضية القاعة، ممتلئة بالثياب والأناناس والموز الأخضر والوجبات الخفيفة التي أعدَّتها الأمَّهات لأبنائهنَّ كي يأكلوها في الرحلة. وقبل أن يقطع قومار التلال إلى المعدّية، تضرّعت إليه نوريني بكلمات قليلة نطقت مثلها كلُّ بنت من البنات المتروكات: "اكتب لي".

كانت الرسائل تصل عادة في العاشرة من صباح يومَ الإثنين. إذ يأتي ساعي البريد على قدميه، وحقيبته على كتفه، وحذاؤه ملطَّخ دومًا بطين أحمر، فيسلّم الرسائل في قاعة القرية حيث ينعم بالشاي الساخن المحلَّى ورقائق البطاطس طوال نصف ساعة، ثمَّ يقفل راجعًا من حيث جاء. كانت البنات ينتظرنه أمام القاعة، فمنهنَّ من يتلقَّينَ رسائل من خطبائهن، ومنهنَّ من يرجعنَ بالخيبة، فيبقينَ على أمل بأن يتغيَّر الحال في الأسبوع التالي. وبالطبع تأتي دائمًا رسائل لآخرين في القرية، لكن صدِّقوني حين أقول إنَّ عدد تلك الرسائل كان تافهًا.

في يوم الإثنين التالي لسفر قومار، شغلت نوريني نفسها منذ الفجر انتظارًا لرسالته. نظَّفت البيت ومسحت الأرض لكي يتسنّى لها الذهاب إلى قاعة القرية مبكّرًا. في تلك الأيام كانت أغلب البيوت تنتصب على أعمدة خشبية، ولها أرضيات من الجريد والغصون المجدولة التي يلزمها

المسح كلّ يوم لكي لا يتراكم السخام والتراب. عندما رجع أبوها من المسجد، كانت الأرض تتلألأ بالفعل في وهج مصباح الجاز. سارعت نوريني إلى المطبخ، فأوقدت الفرن بقشر جوز الهند وأخذت تنفخ فيه عبر قصبة من الغاب لتتوهّج ناره، مزوِّدة عليها قطعًا من الحطب حتى تراقصت ألسنة اللهب، سخّنت بعض الماء على الموقد، وفيما تنتظر غليانها، غسلت بعض الأرز وتركت لأمّها أن تكمل البقية، بينما رجعت هي إلى الحنفيّة لتغسل الثياب والأطباق الوسخة.

في ذلك اليوم، كانت الفتاة رشيقة سريعة الحركة في كلّ ما تفعله، فتحمل في يد دلو الملابس الوسخة وفي الأخرى دلو المواعين الوسخة من أطباق وأكواب. وكانت لأسرتها بركة سمك بجوار الحنفية التي كانوا يغتسلون فيها ويغسلون، بينما يتدفّق الماء من أنابيب البامبو الممتدة لأميال صعودًا حتى ينابيع التلال. كان يحيط بالحنفية جدار بارتفاع صدر رجل، ويعلوها سقف من ورق قصب السكر، فهي سقيفة بمثابة حمّام للبيت. وفيما كانت تغسل، كان أبوها يُطعم السمك بورق التارو الذي اقتطفه من حافّة البركة.

ارتفعت الشمس وقد انتهت نوريني من غسل الأطباق وألقت في البركة ما فضل في المطبخ من الطعام، فتنافس السمك على بقايا الأرز والطعام البائت مالئًا الماء بالفقاقيع، أغرق ضوء الشمس الأرض ومضى بعض أهل القرية في قمصان رثّة وسراويل قصيرة بالية حاملين فؤوسًا يصارعون بها الأرض، بينما مضى آخرون يتفقّدون حقولهم اليابسة أو يحتطبون بالسواطير. زحف الضباب صاعدًا باتجاه قمم

التلال، بينما تعالى صوتٌ حادٌ من فتيات يثرثرن عند الحنفيَّات فطغى على زقزقات العصافير ونقَّارة الخشب. احتشد تلاميذ المدرسة عند بركة السمك يرمون في مائه الحصى بينما تتمايل الحقائب على ظهورهم والقبَّعات تغطّي رؤوسهم الصغيرة.

خلعت نوريني ثيابها، ورمتها أعلى جريد الجدار، وفي احتشام غطّت بمنشفتها مدخل سقيفة الحنفية، وإن بقيت فرجات بين عيدان البامبو لا تكشف عن بعض جسمها. ممسكةً ركبتيها، جلست أسفل الماء المتدفّق الغزير المندفع من أنبوب البامبو وقد انسدل شعرها المبلول على جسمها. متخفّفةً من العرق، منتعشةً من الحمَّام، مضت تدعك جسمها بالصابون، مخلّلةً ما بين أصابع قدميها، مزيلةً ما علق من وسخ، غاسلةً شعرها بزيت الصبَّار، محافظةً على جلستها أسفل الحنفية حتى وهي تغسل أسنانها بالفرشاة.

خفت صوت ثرثرة الفتيات عند الحنفيَّات الأخرى، وهنَّ ينصرفنَ عن المكان، ولعلَّ بعضهنَّ كنَّ بالفعل يملأنَ شرفة قاعة القرية في انتظار وصول ساعي البريد المكدود من طول الطريق. خطت نوريني خارجةً من السقيفة، فجفّفت نفسها ولفّت جسمها بالمنشفة، مغطيةً أعلى فخذيها ونهديها المتبرعمين. عقصت شعرها ورفعته، ورفعت دلو الغسيل المبلول بيد ودلو الأطباق والأكواب المتلألئة بالأخرى، وتحرَّكت بخطوات قِططيَّة فوق ورق الشجر الساقط بين البرك، بهيَّةً تحت الشمس المشرقة، غافلةً عن مدى جمالها.

قبل العاشرة بقليل كانت نوريني في القاعة، بشعرها الرطب وقد ضفرته ضفيرتين منضبطتين، عقدت في نهاية كلٍّ منهما شريطًا أصفر فاتحًا. صدق تخمينها؛ كانت البنات الأخريات بالفعل قد ملأن الأريكة الطويلة وفوقهنّ لوحة الإعلانات وعليها آخر جداول رمضان ومعلومات أخرى أيضًا يسهل تجاهلها تمامًا. ومَن لم يعثرن من البنات على مكان للجلوس تجمّعن تحت شجرة موسيندا بجوار سياج البامبو، فانضمَّت إليهنَّ نوريني ليتبادلنَ حكايات عيد الفطر المرحة.

ومع ذلك كانت لم تزل تفكّر في الرسالة، إذ كانت تلك هي المرَّة الأولى التي تنتظر فيها رسالة من رجل. أخذ قلبها يخفق بشدَّة. أيُّ نوع من المفاجأة قد تحتويها تلك الرسالة الأولى؟ خطٌّ قبيح ربما. حتى ذلك كان كفيلاً بإذكاء حماستها. ربّما تأتي وقد نُثر عليها مسحوق معطَّر، شأن الرسالة التي تلقَّتها أقرب صديقاتها نباي سري من صاحبها.

ما حدث لم يكن متوقَّعًا على الإطلاق. وصل ساعي البريد المنهك برزمة رسائل مربوطة معًا برباط مطاطي، فردتها البنات على مائدة بينما جلس ساعي البريد يروّح على نفسه بجريدة قديمة. صاحت البنات إذ رأين أسماءهنَّ مكتوبة على المظاريف البيضاء ذات الحوافّ المؤطَّرة بخطوط عريضة زرقاء وحمراء، وأخريات شهقن في خيبة حين لم يجدن رسائل لهنّ. كانت نوريني من الباحثات اللحوحات اللاتي مضين يقلّبن الرسائل القليلة المتبقّية الموجَّه أغلبها لرئيس القرية وقليل منها إلى بعض الآباء من أبنائهم. وقفت ناظرة إلى المظاريف المبعثرة وقد أوشك الدمع أن ينفطر من عينيها. لم يكن أيٌّ من الرسائل موجَّهًا إليها. رجعت إلى

البيت محمرّة العينين مزمومة الشفتين تفكّر يائسة في الاثنين التالي. لم تكن من قبل قد ذاقت مثل تلك المرارة، وكلّ ذلك بسبب قومار.

ازداد عليها الحزن بسبب غياب الرسالة في الأسبوع التالي، والتالي، والأسابيع المتعاقبة. كان من البنات مَن لا تأتيها رسالة بين الحين والآخر، ولكن رسالة على الأقل كانت تظهر ولو مرّة في الشهر. ومنهنّ من كنّ يتلقّين هدايا جميلة، وواحدة أو اثنتان تلقّت مالاً لتشتري به خاتمًا، بينما أخريات كنّ يجدن آلات خياطة كُتبت عليها أسماؤهنّ، بل لقد بُعث إلى فتاة فستان زفاف، ولا شيء على الإطلاق من أجل نوريني.

بعد أسابيع قليلة مضنية، كفّت عن الذهاب إلى قاعة القرية. وصورة قومار التي يقف فيها أمام السيّارة، والتي أطّرتها ووضعتها بجوار سريرها، باتت الآن ترقد في علبة بالية تحت سريرها. ودّت في أوّل الأمر أن تمزّقها وترمي مزقها في موقد مضرم. ثمّ كفّت عن تمنّي أيّ شيء، ولم تعد لديها رغبة في الكلام، فضلاً عن السماح لخيالها بأن يقتحم أحلام يقظتها، وإن حدث وتسلّل قومار إلى نومها، كان الحلم يتحوّل إلى كابوس جاثم.

وبمرور الوقت بدأت تشكّ أنّ قومار لا يحبُّها حقًّا وليست لديه نيّة للزواج بها، وقالت لنفسها: "تذكّري فقط أنّه في عيد الفطر الماضي لم يصطحبك إلى ستوديو التصوير القريب من مدرسة القرآن"، كان واضحًا أنّه لم يرد صورتها في محفظته، وبدا له كافيًا أن يترك لها صورة

غائمة لنفسه، لعلَّها التُقطت من مسافة كبيرة بكاميرا فورية. انتابتها الغيرة من البنات الأخريات اللاتي ذهبن مع أصحابهن إلى ستوديو "الإخوة تان"، وهي الأسرة الصينية الوحيدة التي كانت تعرفها، وقد ارتدين أفضل ثيابهنَّ، وتجمَّلن بالمساحيق وطلاء الشفاه ووقفن أمام الضوء الغامر ـمثلما حكت البنات ـ لتُلتقط لهنَّ الصور على خلفيَّة فيها نجمات قرب بحيرة.

وبمرور الوقت تبدَّد كلُّ أمل لديها في أن يكتمل الزفاف. عادت من جديد بنتًا صغيرة، وإن لم تستأنف العمل في حرث حقول الأرز أو رعي الشياه، لم تعد تكترث بتزيين نفسها وباتت تتطلَّع إلى الوقت الذي يواتيها فيه الحظُّ الحسن فتنفسخ الخطبة؛ وحينئذ قد يأتي رجل آخر فيتقدَّم لها، رجل يبعث لها الرسائل، ويصطحبها للتصوير في الاستوديو، بل ربما يُهديها خاتمًا جميلاً وآلة خياطة فتحيك فستان زفافها.

مضت في حياتها كأنَّما لا خطيب لها، وفي ألم كان عليها أن تقنَع وضعها. لعلَّ صاحبات قليلات علمْن الحقيقة، لكنَّها حاولت إقناع نفسها بأنهنَّ مشغولات بحيواتهنَّ فلا ينتبهن إلى واحدة بينهنَّ استصغرها خطيبها واستهان بها. ولمَّا كان الناس يسألون عن أخبار قومار ـبل إنَّ سايبوبِ نفسه كان يزورهم ليتبيَّن هذا الأمر أو ذاك من أمور ابنه سيِّئ الخُلق ـ كانت نوريني تقول إنَّه بخير، لكنَّه لن يرجع إلى البيت قبل عيد الفطر التالي. شعرت كأنَّها ساحرة عليمة بالغيب تتلصَّص على حبيبها في مرآة صغيرة، ولو صحَّ ذلك لودَّت أن ترميه بالصخر وتنهال عليه

بهاون الأرز، فلم يكن لشيء آخر أن يبيِّن إلى أي مدى كانت تزدري ذلك الرجل.

وجاء عيد الفطر مرَّة أخرى، فلم تنتظره نوريني بقلب متفتِّح، بل بإرادة من ثلج. كانت قد عاهدت نفسها ألا تسأل عن تفسير، بل إنُها لم تفكِّر في الترحاب به، وإن جاء حقًّا فسوف تلقاه ملاقاة قريب بعيد مرَّ بالبيت لا يريد إلا تناول شراب. لن يكون له نصيب من حنين أو مشاعر ليِّنة، بل سيكون على قومار أن يدفع ثمنًا باهظًا لسوء معاملته إيَّاها.

وأخيرًا ظهر قومار. لم يتغيَّر شعره بدهانه، ولا ساعة معصمه القديمة، لكنَّه استبدل ببنطاله القطيفة بنطالاً من الجينز الأزرق حبكه على خصره بحزام من جلد صناعي، ولم يكن يرتدي قميصًا بل هو تيشيرت طويل الكُمَّين. وكان في ذلك العام قد أطلق شاربه ولحيته وتركهما غير مشذَّبين. لم يقدِّم تفسيرًا لصمته، مثلما لم يأتِ بحقيبة جميلة لنوريني، بل بمجرَّد علبة من الكعك. في العام السابق كان في غاية التهذُّب، يجلس متورِّد الوجه في توتُّر، لكنَّه رجع الآن جلفًا، يجلس في مواجهتها واضعًا ساقًا على ساق. ثُمَّ امتدَّت يده إلى علبة سجائر القرنفل، أشعل منها واحدة وترك شعلتها تطقطق، داعيًا نوريني إلى أن تسارع بوضع مطفأة أمامه.

بدون أن تطرح عليه سؤالاً، وضعت نوريني بجوار المطفأة كوب ليمونادة باردة وجلست في كرسيِّها منشغلةً عنه بأظافرها. لم يتبادلا

الأخبار، فضلاً عن الكلام الحلو، بل لقد فتح قومار علبة الكعك التي جاء بها وأكل منها كعكة بلا حياء بينما يهذي بكلام عن سمك واحاجي في السنة السابقة.

برغم نفورها في تلك الليلة، ذهبت نوريني معه إلى المسرح، لتبدِّد ما لعلَّ أباه وحمويه قد استشعروه من برودها تجاه زوج المستقبل. في هذه المرَّة شاهدا نياي داسيما، وعلق العنوان في عقليهما، دون أسماء الممثّلين؛ لأنَّ فرق التمثيل كانت تأتي إلى القرية وتروح. تلك كانت ثالث مرَّة لنوريني في المسرح. فقد سبق لها أن حضرت مسرحية مع صاحبات لها في ليلة العيد الوطني المزدحمة. لم يشهد ذلك العرض شيئًا خاصًا، إلا أنَّ قومار حاول أن يعتصر يدها، ثُمَّ وقع في طريق الرجوع إلى البيت أمر مقزِّز.

أبطأ الاثنان خطوهما جاعلين أصدقاءهما يتقدَّمونهما، وفي بقعة هادئة طلب قومار بلا حياء من نوريني قبلة. في فزع من طلبه المفاجئ، انكمشت نوريني على نفسها هازَّة رأسها في خوف، لكن قومار انتشل يدها وأصرَّ، قالت له: "لا"، فألحَّ قومار وتوسَّل إليها "هي مجرَّد قبلة. مجرَّد لمسة صغيرة"، ولم يَبدُ أنَّ ثمَّة خيارًا آخر. كان في الصراخ إهانة لكليهما، ولم تتصوَّر أن يتمادى قومار، فقد كان وراءهما من بعيد آخرون يسيرون في الاتجاه نفسه، فبدون أن تقول نعم أو لا، تركت له فمها يجتاحه بفمه، وهو يدفعها إلى شجرة خبازي. اعتصرت شفتاه شفتيها في قبلة طويلة، فاحت من فمه الرطب رائحة التبغ وهو يعضعض شفتيها بعضَّات لاذعة، حتى شعرت نوريني بالغثيان.

ضاع ما كان بينهما قديمًا من حميمية، وبقيت نوريني قطعة ثلج في اليوم التالي. واحترامًا للذوق فقط، ودَّعته في قاعة القرية بعد يوم آخر، لم تجد في القاعة عزاءً في ذكرى الرسائل التي لم تصلها قط، فلم تطلب منه أيَّ شيء، بل كان قومار هو الذي تكلَّم:

"أليس لديكِ فضول تجاه عملي"؟

ما الذي يجعلها تكترث بعمله وهو لم يكترث بها نفسها، ولا بألمها في انتظارها أسبوعًا بعد أسبوع أن يأتي خبر منه حتى باتت تشعر أنَّها بليت من داخلها واعتراها الصدأ؟! حملقت فيه بعينين حادَّتين لا تخلوان من قسوة، لاويةً الشفتين اللتين سحقهما بقبلته قبل أيَّام. مبديةً ازدراءها، سألته أخيرًا: "فما عملك"؟

قال قومار: "حلاَّق".

فكَّرت نوريني، "يقطع كلَّ تلك المسافة لمجرَّد أن يكون حلاَّقًا"؟!. لم تكن لتبالي أيضًا لو كان قومار قاطع طريق أو فتوَّة أو بلطجيًا أو لصًّا. كانت خيبة عام طويل قد أتت على حبِّها فلم يعد لعمله أدنى أهمية لديها. ولمَّا مضى قومار عنها، بحقيبته في يده، لينضمَّ إلى غيره من العمَّال الراحلين، لم تزد نوريني عن إيماءة خفيفة برأسها، لا تعدو اعترافًا برحيله، لكنَّه اعتراف لم تصحبه هذه المرة عينان محمرَّتان وخيط دموع تنهمر. ولم يكد قومار يختفي عند أسفل التلّ، حتَّى سارعت تستحم عند الحنفية. فقط حينما ذهب هو، عادت هي تهتم بمظهرها.

وبرغم كلّ هذا الذي جرى، سمحت لنفسها حينما بلغت السادسة عشرة أن تُساق للزواج بهذا الرجل. كانت هدية قومار لها خاتمًا ذهبيًا وزنه ستة جرامات حُفر عليه الحرفان الأولان من اسميهما، فكان يتباهى دائمًا بأنّه شغل صنايعي شهير بارع في النقش على الذهب. ارتدت نوريني القميص الأبيض المعهود، ولمّت شعرها في كمكة مرفوعة ورسمت على وجهها احتقارًا كان ليحبطها أشدَّ الإحباط لو عرفت أنّه زادها جمالاً. لبس قومار بذلة سوداء واستعار قبعة سوداء وقام واحاجي بدور رئيس القرية في عقد القران. ونحر والد نوريني إحدى نعاجه بعدما أنجبت له خمسة حملان باتت الآن تكبر وتسمن. وأتى كذلك بكلّ ما في خزانة أسرته من أرز، لم يُقِم عرضًا لمسرح العرائس، أو خيال الظل، لكنّ الطعام كان كافيًا لأن يأكل الجميع ويرجعوا بشيء منه إلى بيوتهم.

منذ الليلة الأولى، كان الزواج زواج كراهية. استلقت نوريني منهكة في السرير، ولم تزل ترتدي قميص عرسها، ولم يزل فخذاها وساقاها محشورين في جيبة من القماش الملوَّن. دعاها قومار منساقًا وراء شهوته إلى التعرّي حتى يمارسا الحب، فلم يكن من أمر نوريني إلا أن دمدمت، وهي بين الصحو والنوم، وبقيت ملتفّة بثيابها متأهّبة للدفاع. وبدون كلمة أخرى خلع قومار ثيابه فلم يستبقِ منها غير سرواله الداخلي القصير المتفخ بعضوه المنتصب ودفع عروسه يريد أن يوقظها. انكمشت نوريني وهي تئنُّ ومدّت يدها تريد أن تأتي بالمخدّة. في ضيق بدأ قومار يشدُّ جيبتها ويحاول معها إلى أن انبسط جسم زوجته مرّة أخرى في خرق. تخلّص من الجيبة فرأى سروالاً أخضر فاتحًا عليه تصميم زهري. ثبّتها

قومار، بعدما أنزل سروالها أولا ثمَّ سرواله ثمَّ اندفع والجًا إيَّاها. ظلاَّ يتناكحان بلا كلام إلى أن غلبهما التعب والألم فغرقا في النوم. استعادت نوريني الجيبة ـوقد فقدت بكارتهاـ فغطَّت بها نفسها وأدارت ظهرها لزوجها مباعدة بين ساقيها، مستشعرةً وخزًا فيما بينهما.

بعد أسبوع، ذهب قومار يبحث عن مكان يعيشان فيه معًا، وبعد شهر من ذلك أخذ نوريني إلى مخزن جوز الهند القريب من سوق الإثنين. جاء بحشيَّة وموقد ومواعين ومنضدة وكراسي وعدَّة الحلاقة. امتلكا كذلك درَّاجة هولندية اشتراها قومار من سوق المستعمل أمام سقيفتهما. وعرفت نوريني حياة أدنى من التي عرفتها من قبل، لكنَّها قابلتها بلا شكوى.

كان الجنس صعبًا دائمًا. فلم تتلهَّف عليه نوريني لهفة قومار الذي صار كلَّما استبدَّت به الشهوة حتى أوشكت أن تخنقه يأخذ زوجته بالقوَّة، ويقسو حينما يفعل ذلك؛ فيرميها على الحشيَّة وينكحها بدون أن يخلع عنها ثيابها. وفي أحيان أخرى كان يجعلها تستلقي على المائدة منفرجة الساقين أو يجعلها تركع له في الحمام، وإن حاولت نوريني أن تقاوم كان يضربها. فكثيرًا ما كان الضرب صفعة على الوجه، لكنه في مرَّات أخرى كان يركل ركبتيها الجميلتين، فترنَّح وتقع على الأرض. وحينئذ فقط يبلغ قومار ما بين ساقيها.

كانت معاملة قومار تلك موتًا بطيئًا في نظر نوريني، ولكنَّها لم تَدْرِ ماذا تفعل. لم تفكِّر قط في تركه والرجوع إلى بيت أبيها؛ إذ كان ذلك

كفيلاً بإغضاب أهلها عليها أشدَّ الغضب. لم يكن بوسعها إلا أن تنكفئ على نفسها، ولمّا كانت تلقى من قومار في بعض الأحيان شيئًا من العذوبة، لم يَمُت الأمل بداخلها تمام الموت. ومهما كانت الأوضاع تقسو، لم تسمح لنفسها قط بالإشفاق على نفسها، وتلك عزيمة وبأس سينتقلان منها إلى ولديها.

جاء مارجيو ابن اغتصاب، غير أنَّ الولد كان لنوريني عزاءً لا حدود له، وبوصوله لانت قسوة زوجها؛ فبميلاده خفتت شهوة قومار، ومن أجل ذلك أحبَّته أمُّه أكثر. كان مصدر بهجة لكليهما. لكن بمرور الوقت، وبينما بدأ الصغير يكبر، ويزحف، ويمشي، عاودت قومار رغبتُه، فكانت تستعر حتى تبعث فيه الرعشة، فيصطاد نوريني وهي غافلة ويثب عليها، وقد عاد همجيًا مثلما كان؛ فحرصت أبلغ الحرص ألا يراها في عريها، ولم يردعه ذلك؛ إذ كان ينتهز أيَّ فرصة لينزع عنها جيبتها ويُنزل سروالها، ثُمَّ يخرقها واقفًا لدى الباب مندفعًا فيها فيرتجُّ كفلاه. رجع النظام القديم، بكلِّ ما فيه من صفعات لا ترحم وضربات بمغرفة الماء. وحملت نوريني من جديد، فولدت مامه بعد سنتين من مارجيو.

ثماني سنوات من حياة المخزن سلبت نوريني شبابها وفتنتها، فلم تعُد الشابّة الغابرة تطفو على السطح إلا نادرًا، وازداد طبعها إمعانًا في الانكفاء والبرود، وحينها طلب قومار خاتم زفافها ليشتري بثمنه البيت ١٣١. كان عليها أن تُخفي وجهها في حجاب خلال رحلة الأسرة، بل أن تُخفي شقاءها.

أثار الانتقال إلى بيتهم الجديد تغيرًا في نوريني، صارت تتكلَّم كثيرًا فتنبع كلماتها إمَّا من سخط أو تعاسة. المشكلة فقط أنَّ تلك الكلمات لم تكن تقال لأحد، بل هي لموقدها وطاستها، رفيقيها الدائمين منذ يوم زواجها. كان الموقد ممتلئًا بالصدأ، وألسنة لهبه غير متساوية الارتفاع، وثقوب فتائله مضطربة. والطاسة أيضًا ظلَّت لغزًا بما فيها من خروم، إلى أن جاء لحَّام متجوِّل ولحمها. كانت تغمغم للموقد والطاسة في حزن طوال ساعات النهار، وكانت تفحش في القول أكثر ما تفحش كلَّما تكلَّمت عن جدران البيت المقامة من الجريد والغصون المجدولة، فهي في رأيها لم تكن خيرًا من جدران زريبة للبقر.

وفهم قومار الإشارة، فحدث في يوم بعد عام من عيشهم في البيت ١٣١ أن اشترى لفائف جديدة من جدران الجريد والغصون المجدولة، وبمساعدة من مارجيو أزال الجدران القديمة وثبَّت الجديدة. ظلاَّ يعملان بجدٍّ طوال أسبوع، يقطعان ويغرزان، ويؤمِّنان بأوتاد صغيرة ويطليان بالجير. وبعد ذلك صار البيت أكثر سطوعًا، بفضل عملهما، ولكنَّ ذلك كلَّه لم يترك في نفس نوريني أي أثر. وطبعًا لم يمضِ وقت طويل حتى زأرت عاصفة في مزرعة الكاكاو وانهالت على الجدران الجديدة، ومع تبدُّل الفصول انبعجت الجدران وتماوجت كأنَّها بحر تتلاعب به الزوابع. تقشَّر الطلاء الجيري وتساقطت رقائقه على الأرض، وكلُّ ذلك حكته نوريني في مرارة لموقدها وطاستها.

وطبعًا كان ثمَّة مواضيع أخرى. فبرغم إصلاحات قومار في البيت الجديد منذ اليوم الأول، تشقَّق كثير من البلاط القديم في السطح، محدثًا

فتحات للكثير من التسريبات. فلو لم تفرش نوريني الغرفة الوسطى بدلاء ومواعين لاستحالت الأرضية الترابية إلى وحل. كان على قومار أن يذهب إلى مصنع الطوب ليشتري بلاطًا جديدًا؛ بما يعني أن يضيع منه يوم عمل كامل. واستغرق الاهتمام بمشكلة الطين فترة، لكن عندما حلَّ موسم المطر تصدَّع المزيد من البلاط وظهرت من جديد الدلاء والمواعين في الغرفة الوسطى. وفي رفقة الموقد والطاسة، كانت نوريني تسخر من نفسها.

لم يستطع قومار قطُّ أن يجعل البيت في مثل جمال البيوت المصفوفة بحذاء الطريق الكبير، وكان يعلم ذلك. ولكي يسكت فمها المدمدم الذي لم يكن يعدم سببًا للشكوى؛ كان لدى قومار دائمًا عذر جاهز. "ليس بيدنا أن نفعل شيئًا ما بقيت ما رابعة تمتلك الأرض".

ولكن الوضع لم يتحسَّن كثيرًا بعد ذلك، حينما امتلكوا الأرض، فاستمرَّت حوارات نوريني مع أدوات المطبخ. وبدأ قومار يظنَّ أنَّ زوجته جُنَّت، ولكنَّه لم يسمح لتلك الفكرة أن تردعه كلَّما تعلَّق الأمر بإقحام اللحم في اللحم.

أربعة

نادرًا ما رأى مارجيو أمَّه سعيدة، وكثيرًا ما فكَّر أن يفعل ما يُدخل عليها البهجة. فكان يرجع إلى قريتهم القديمة ليبحث لها عن هدايا. وإن توافر له بعض المال من عمله في بعض الأعمال العارضة في بيوت الآخرين، كان يشتري لأمِّه عشرة قطع من الساتي[١٢] أو شبشبًا جديدًا، فيزيح الغمَّ عن وجهها لوهلة عابرة. لكن لم يكن شيء ينجح في إطالة أمد بهجتها، ولمَّا أدرك ذلك بدأ يصبُّ غضبه على قومار.

في تلك الأيام القديمة كان قومار كثيرًا ما يضرب نوريني أمام ابنها، ويضرب أي ينهال ضربًا. وكان مارجيو أصغر من أن يتدخَّل بل كثيرًا ما كان هو نفسه يتعرَّض للضرب. فيتَّكئ على الباب وبجواره مامه تعضُّ طرف فستانها، بينما تنزوي نوريني في ركن، وقومار واقف فوق رأسها ممسك عصا المنفضة؛ إذ لم يكن قومار يعدم سببًا ليعملها عليها.

١٢ـ satay طبق من قطع اللحم الصغيرة المشوية مع صلصة غالبًا ما تحتوي فول السوداني.

وفي بعض الأحيان كان الضرب يتمُّ خارج البيت؛ إذ تجري نوريني حول البيت ليراها جميع الجيران، وكان قومار يطاردها، وتحوم حولهما الشياطين لتؤجِّج غضبه عليها، إلى أن تجري نوريني داخلة البيت وتحصِّن نفسها وراء الباب، لكنَّ قومار كان يدفعه دائمًا ويدخل، حتَّى أنَّه في إحدى المرَّات حطَّم الباب نفسه. كان يطرحها أرضًا وينهال على فخذيها بالركلات، ويتحلَّق الجيران وهم يتفرَّجون، فيدير مارجيو وجهه بعيدًا، مامه كانت الوحيدة التي تبكي، وتنشج لوقت طويل بعد ذلك بين ذراعي أمِّها.

بدأ عناد أمِّ مارجيو يتجلَّى في مارجيو الذي ما كان ليقوى على الشجار مع قومار فيعمد إلى استفزازه، وإثارته إلى أن يعمل المنفضة. وفي بعض الأحيان لم يكن قومار يرضى عن رحيل مارجيو إلى قرية جدِّه، ولكن الولد كان يصرُّ على ذلك؛ ففي عصر يوم السبت كان يرحل بدون أن يقول كلمة، ويرجع في ليل الأحد لمواجهة غضب قومار، وفي اليوم التالي يذهب إلى المدرسة بقدم عرجاء بعد ضرب قومار له وإغراقه إيَّاه في الحوض وسحبه من أذنيه ورميه بقشر جوز الهند. كان قومار كثيرًا ما يحقد على الولد حينما يراه يلعب بالكريَّات الزجاجية في هدوء، أو ببطاقاته المصوَّرة، أو يلعب الكريكيت، وكان مارجيو يمعن في تجاهله تذمُّر قومار، ويسرف في تبديد صبر الرجل إلى أن يتعرَّض للضرب. لم يتشاجر مارجيو قط مع أبيه، وذلك أمر عرفه الجميع، بل كان يبقى هادئًا بصحبة ألعابه إلى أن يصادرها منه قومار ويرميها في القمامة. ويستعيدها مارجيو، فيطارده قومار، ثمَّ يجرُّه جرًّا

من إحدى قدميه، ويحتك في الأرض جسم الصغير المنبطح. ويُرفَع مارجيو ليُلقَى به داخل البيت محطِّما ساق كرسي. ويرتسم العبوس على وجه الولد، فيعود قومار الساخط إلى مطاردته من جديد، جاذبًا إيَّاه من شعره وينهال عليه ضربًا بعصا من خشب. وفي إحدى المرَّات اندفق الدم من جبهة الولد، ولكن مارجيو ما كان يخضع قطّ.

حتى مامه ذات الطبع الرقيق نالت نصيبها من عصا المنفضة، بمثل ما كان لقطَّة ضالة أن تنال نصيبها إن مرَّت بقومار. وهكذا لم يكن البيت يعرف السلام إلا في الفسحة التي تبدأ من رحيل قومار على درَّاجته للحلاقة في السوق ثمَّ رجوعه.

وحينما اشتروا أخيرًا أرض البيت من مارابعة، قرَّر قومار أن يكسو أرضية البيت بالأسمنت. وكان ذلك آخر سعي منه لتهدئة نوريني، وأمر مارجيو أن يساعده. مارجيو آنذاك كان في الخامسة عشرة من عمره، شابًّا انضمَّ مرَّة إلى فريق الصيد التابع للرائد سدره، ولديه من القوة ما يكفي لخلط المونة. كانا يعملان في أيَّام الأحد، فيخلط قومار الأسمنت بالجير ليزيد من قدرته على الالتصاق، بينما يُقلِّب مارجيو العجين. وتأتيهما نوريني بالشاي المحلَّى والموز وقطع البطاطا، ولكنَّها لم تكن راضية عن خطَّة قومار كلِّها.

لم تظهر الأرضية كلُّها في يوم واحد، بل تكشَّفت شيئًا فشيئًا. ففي أوَّل الأمر ظهرت في غرفة المعيشة حيث وُضعت ألواح الخشب إلى أن يجفَّ الأسمنت، وفي يوم الأحد التالي غطَّوا الأرضية في غرفتي النوم،

وبعد أربعة أسابيع كانت للبيت كلّه أرضية صلبة وصولاً إلى المطبخ بل والسقيفة. وصار بوسع مامه أن تجلس على الأرض لتلعب بالألعاب اللوحية ـ مثل المنقلة ـ مع صاحباتها أو تفرش حصيرة تتقلّب عليها. وأبدى قومار المزيد والمزيد من الحنان على مارجيو، فكان يثني على عمله، في حين بقيت نوريني باردة تجاه زوجها، غير متأثرة باصطناعه.

مضت خمسة شهور ثمّ وجدوا شرخًا في الأرضية، فظنّ قومار في أوّل الأمر أنّ السبب فيه هو الجير الخام وأيقن أنّ الوضع لن يسوء أكثر من ذلك. لكنّ الشرخ تنامى، حتى أصبح في نهاية الشهر أقرب إلى هوّة فكأنّ كرة حديدية من خمسة أطنان تواثبت على الأرضية. وقال جارٌ: "إنّ ذلك يحتمل أن يكون بسبب الرطوبة"، وقال آخر: "إنّ ذلك الموضع ربّما كان فيه ذات يوم حفرة قمامة أو بئر". وكثرت الحفر؛ فواحدة في غرفة المعيشة، واثنتان في المطبخ، وواحدة صغيرة في إحدى غرفتي النوم.

ومثلما فعلت في حالة جدران البامبو وبلاط السطح، احتفلت نوريني بانهيار عمل قومار بالنميمة عنه مع مواعينها العديدة في المطبخ. وبعد الإصغاء إلى هذيانها، لم يكن بوسع مارجيو إلا أن يبتعد، وقد عرف أنّ صبر قومار حينما ينفد، فإنّه سوف يجرُّ نوريني إلى غرفة النوم ويصفعها، أو يرميها على الموقد.

كان البيت مكانًا هائجًا، وكان مارجيو يسلّم بأنّه على مدار سنوات عمره لم يفهم طبيعة العلاقة بين أبويه. كيف لاثنين تفانى أحدهما في معاقبة الآخر أن ينتهيا إلى العيش معًا على هذا النحو؟! فلو كان

مارجيو وضع نفسه مكان قومار ما احتمل سخريات نوريني وهمساتها اللاذعة. وقومار كان جديرًا كلَّ الجدارة بالازدراء؛ فهو لم يتردَّد يومًا في استعمال قبضتيه على أهله حتى ليصل بهم إلى شفا مقابرهم كلَّ يوم. ولكنَّ قومار استسلم في النهاية وصاح في نوريني قائلاً "إن كلَّ ما في هذا البيت هو مسؤوليتك أنت"، وذلك ما كان. ازداد انهماك قومار في تربية الدجاج والأرانب. كان لديه ديك مسابقات يأخذه إلى مصارعة الديكة، وبدأ يربِّي الحمام للسباق في ملعب كرة القدم أو في محطَّة القطارات المهجورة.

بعدما توقَّف قومار عن الاكتراث، بدأت نوريني تعتزُّ قليلاً بالبيت، برغم أن مارجيو ومامه أدركا سريعا أنَّ فكرتها عن الديكور شديدة الغرابة. ففي أحد الأيام قطعت بعض التقويمات وثبَّتت صورًا لتاج محل والممثلة مريم بِلينا على الجدار فوق كراسي الصالة الخشبية التي كانوا يستقبلون فيها الضيوف. قطعت كذلك رسومات من كراسة مارجيو بعدما عثرت فيها على رسماته الخرقاء للمناظر الجبلية وبعض التدريبات على الخط، ولصقتها بجوار الباب. ولم يعلِّق أحد على ذلك، لا مارجيو ولا مامه. وقد خشيا ألا يكون لتعليقهما أثر إلا المزيد من الحزن لأمِّهما، ومع ذلك كان واضحًا أنَّ ذلك الذي كانت تفعله لم يكن يزيدها سعادة أيضًا.

ثمَّ حدث في أحد الأيام أن تلقَّت من جارة عجوز شتلة شجرة الألامندا. كان فناء البيت دائمًا قاحل الأرض، لا يعدو مكانًا يلعب الأطفال فيه بالكريَّات الزجاجية، لكنها أخذت الشتلة وغرزتها فيه.

فرح مارجيو أن صار لديها ما يشغلها، مهما تكن تفاهته، برغم أنّه فقد الموضع الذي كان يلعب فيه بالكريّات الزجاجية. صارت نوريني تروي نبتتها كلّ صباح، ولمّا حان الوقت واشتدّ عودُها وكفّت أوراقها عن التساقط، جاءت بحزمة من نبتات قطر الندى الذهبية، فجعلت منها سياجًا حيًّا حول الفناء الأمامي تاركة فراغًا ضيّقًا يعبر الناس منه إلى البيت. كانت تروي قطر الندى الذهبي حتى ظنّت مامه في بعض الأحيان أنّها تبدو أكثر اعتناءً بزرعاتها من اعتنائها بابنيها.

وواحدةً إثر واحدة جاءت نبتات مزهرة أخرى، بينما كانت الألامندا وقطر الندى ترسخ في الأرض وتشتدُّ خضرتُها. زرعت الياسمين قرب جدار المطبخ، والورد في مجموعات أربع قرب قطر الندى الذهبي، ثمّ جاءت الموسيندا. أينعت شجيرات القطيفة بمحاذاة القناة المتاخمة لأحد جوانب البيت. نمت شجيرات اللانتانا الشوكية بجوار جدار الشرفة المتداعي. وأزهر السوسن البريُّ قرب حفرة القمامة، ومن شجرة الألامندا العالية أخذت بذورًا وزرعتها في جانب الفناء الشرقي. صارت لهم أغنى حديقة زهور في القرية كلّها، يخجل منها أيُّ بائع زهور؛ إذ كانت نوريني تزرع حتى الأتشيوت مع الساكا سيري، وكلتاهما كانت تحتاج قدرًا عظيمًا من رطوبة التربة. وتُرك بهاء الصباح الساحلي ليزحف على عود من البامبو مستند إلى شجرة كابوك. وجاء المزيد من النباتات من الخبازيات ولهب الغابة، فأضفت كثافة على مساحة الفناء المحدودة، جنبًا إلى جنب الجهنمية التي جاء مارجيو ببذورها من المدرسة. وفي النهاية زرعت أوركيدات عديدة في قشور جوز هند أدليت من

عوارض البيت. وفي روعٍ كان قومار يتابع انتشار الزهور، ففكّر أنّ زوجته تجمّل بيتهم راجيًا أن يحسّن ذلك من حالها. طابت النباتات مع مجيء الموسم المطير، وبدأت براعم بعضها في الظهور. فظهرت ألوان وسط الدغل الأخضر، وشأن أبيه، كان مارجيو يتلصّص على نوريني راجيًا أن يراها مبتهجة لنموّ حديقتها الفادح.

صحّت النباتات أكثر ممّا ينبغي، وإذا بالفناء الذي تصوّروا أن يكون حديقة جميلة تزيّن بيتهم الصغير يتحوّل إلى دغل تبرز منه الزهور والأغصان في كلّ اتجاه. ومرّت الشهور وبدأت شجرة الألامندا تعلو، حتى مضت أعلى أطرافها تزحف فوق سطح البيت ويظهر زهرها الأصفر اليانع ومن ورائه السماء زرقاء في تجاور حادٍّ اجتذب الفراشات، وصار الياسمين المجاور لجدار المطبخ بياضًا ناصعًا على خلفية خضراء داكنة فكأنه النجوم في السماء الحالكة. وانتشر كلُّ شيء بسرعة انتشار قطر الندى الذهبي الكثيف الذي نما حتى صار سياجًا متينًا.

لم يعد من فارق بين الحديقة والدغل، حتى صار مارجيو يسمّيها البريّة. وصار الورق إمّا يذبل أو يتدافع طلبًا للضوء. وأدرك قومار أنّ تصوُّراته عمّا كانت تفعله نوريني خاطئة تمامًا، فمضى يعامل النباتات بازدرائه القديم. فحينما يرجع من الحلاقة كان يترك عجلتي درّاجته تدهسان بعض قطر الندى الذهبي، أو يندفع بها في أكمة ورد؛ ومن سوء معاملته مات بعض النباتات وذبل البعض مضيفًا بذبوله فوضى إلى الفوضى. وفي غضون سنتين لم يعد بوسع أحد أن يرى واجهة البيت، إذ باتت مغطّاة تمامًا بورق الشجر الأخضر اليانع. فصار على الضيوف حين

يجيئون أن يسألوا أين باب البيت، وكان ما يموت من النبات يتحوّل إلى سماد في الأرض، وما يبقى من النباتات يطيب ويزدهر.

ذات يوم رأت مامه ثعبانًا يزحف في الشرفة فصرخت إلى أن جاء مارجيو وأمسك به. كان ثعبانًا شجريًا صغيرًا ومألوفًا، من نوع عديم السمّ غير مؤذٍ إلى حد كبير. ومثل تلك الثعابين كان الأطفال يلعبون بها، تاركين إيّاها تنساب بين أصابعهم، وكان بوسع السحرة أن يُدخلوا أحدها من فتحة في أنوفهم ليخرج من الأخرى. ولكن ذلك الثعبان التافه جعل مامه تفكّر في قطع زهور أمّها، أو إعادة الفناء على الأقلّ إلى الحديقة الجميلة التي كان عليها في يوم من الأيام، بأشجار نخيلة مشذّبة. تزوّدت بمنجل وعصا، لكن نوريني ضبطتها وقالت بحزم: "لا". لم تجرؤ مامه على مجادلتها وقد رأت التعبير المرتسم على وجه أمّها يقول إنّها لن تتسامح مع من يمسُّ بريّتها. فاستسلمت مامه وأرجعت المنجل والعصا إلى المطبخ.

لم تفهم مامه، إلا في قابل الأيام، ما الذي كانت تريده أمُّها. نوريني كانت تريد أن تجعل البيت أقبح ما يمكن، وأن تصل به إلى الخراب الذي تكلّمت عنه في أوّل يوم لوصولهم. تلك المرارة العميقة التي ظهرت على ذلك النحو الملتوي - إذ عمدت إلى تخريب البيت بالزهور - بثّت الرعب في نفس مامه.

لم تحاول قطُّ أن تمسَّ النباتات مرّة ثانية. ومهما احتدمت بداخلها الرغبة في قطف الياسمين المتألّق أو الورد الأحمر حمرة الدم، كانت تتراجع

خوفًا من أمِّها. لم تكن مامه قد رأت نوريني مهتاجة الغضب من قبل؛ إذ كان الغضب امتياز قومار، ليس إلا حينما حاولت لمس الزهور. وأفزعها ذلك. فكَّرت أنَّ نوريني لو فقدت بالفعل سيطرتها على نفسها، فسوف تكون العاقبة أوخم كثيرًا من قسوة زوجها اليوميَّة.

صار دغل الزهور أقرب إلى عشٍّ للثعابين واليعاسيب، ومخبأ للثعالب واللصوص، صار أضحوكة للجيران، وواصل قومار دهس الزهور، وإن سأل سائل عن الغاية من تلك الزهور، كانت نوريني تسارع بقولها "هي من أجل جنازتي".

لم ترَ مامه نوريني وهي تقطف الزهر إلاَّ مرَّة واحدة فقط، ولم يكن مضى وقت طويل على موت ماريان، كانت تغنِّي مواويل حزينة لا تعرفها مامه، لعلَّها أغنيات من أيام أن كانت أمُّها بنتًا. تدفَّقت تلك الأغنيات الأسيانة، بينما تنتزع أصابعها برفق الزهرة تلو الزهرة لتضعها بحرص في سلَّتها. بدا وكأنَّ قطف الزهور وقتلها سواء، وبدا حزنها عليها في مثل جسامة الخواء الذي خلَّفته الصغيرة.

حين مات قومار بن سايووِب حذت مامه حذو أمِّها وقطفت زهورًا للجنازة. حسبت في البداية أنَّ أمَّها سوف تسمح لها بذلك، إذ لم يحصل الرجل الميت على شيء يذكر، لكنَّ النظرة التي بدت على وجه نوريني أوضحت تمامًا عدم رضاها. كانت قد منحت الكثير بالفعل لذلك الوغد. ولكنَّ مامه كانت إذ ذاك شابَّة، ولم تكن تمتثل طوال الوقت لرغبات أمِّها، فبقيت تقطف الزهور على الرغم من ألم أمِّها.

بحلول ذلك الوقت، كان مارجيو قد انتهى إلى أنّه ما لشيء في الدنيا أن يُسعد نوريني، ليست الزهور بالقطع، ففيما كانت تستولي على الفناء، محيلة إيّاه دغلاً جنونيًّا، لم تتوقّف حوارات نوريني الهرائية مع الموقد والطاسة علامةً على حزن لم يبرحها قطّ. لكن حتى لو لم يسعدها الدغل الزهري، فقد وجدت فيه شيئًا من العزاء، ومن أجل تلك النعمة البسيطة كان مارجيو ـ المهمل بطبيعته ـ شديد الاعتناء بتلك النباتات، بالغ الحرص عليها. فلم يكن لشيء سواها أن يضبط مزاج أمّه.

إلى أن جاء يوم سهر فيه طويلاً يشاهد عرضًا لمسرح العرائس عن موت سيمار إله المنبوذين القويّ الغامض. كان قد رجع إلى البيت ليبحث عن شيء يأكله في ذلك الوقت المبكّر من الصباح، بعدما نام قليلاً في كوخ الحراسة، ورأى أمّه مشعّة، لم يكن قد رأى أمّه على حال ذلك من قبل، كانت الحمرة مشعّة من خدّيها، وعيناها المدوّرتان تلمعان. وما هذا؟ كان على شفتيها طلاء، وعلى وجهها مسحوق، وتبدو مستحمّة منتعشة أيضًا.

وضعت له على المائدة أرزًا ساخنًا وسمكًا مقليًّا وجوز هند وحساء خضراوات. لم يكن معتادًا أن تبدأ أمُّه يومها مبكّرة هكذا. فلم يكن ينتظر أن يجد في المطبخ إلا ما فضل من طعام الليلة السابقة. أدهشه ذلك التغيُّر المفاجئ في البيت. همس لمامه يسألها ما الذي حدث في البيت، فوجدها لا تقل حيرة عنه، برغم أنّها تقضي أغلب وقتها في البيت. تحقّقا من التقويم ومن قائمة ويتون للإجازات، فوجدا أنّهما في يوم

عادي تمامًا. يئسا واستسلما للظنّ بأنّ مزاجها الرائق ذلك لن يطول إلى ما بعد الغروب، ولم يصدق ظنُّهما؛ ظلّت نوريني تزداد سعادة كلّ يوم، وإن احتفظت بكلّ أوقية من مرارتها كما هي من أجل قومار.

ومع الوقت، بدأ بطنها يظهر، وأدرك مارجيو ما الذي كان يجري بحقّ؛ نوريني كانت حبلى. شعر أيضا أنّ في بطنها بنتًا، فالمرأة كما يقول الناس تزداد جمالاً حينما تكون ما في بطنها بنت. وسيثبت أنّ هذه الحكمة الشعبية أصابت الحقيقة حينما تولد ماريان.

صارت نوريني تشتهي أطعمة غريبة، كالكاكاو الخام، فجاب مارجيو المزرعة المفلسة طولاً وعرضًا يبحث عن شجرة لا تزال تحمل بعض الثمار. وفي مرّة أخرى طلبت حساء قلب الموز، وكانت مامه هي التي طبخته لها.

الحقّ أنّ حمل نوريني أثار الضيق في نفس مارجيو ومامه. قال مارجيو لأخته: "انظري إلى الوضع، أنا في العشرين تقريبًا، وها أنا بغتة سيكون لي أخ رضيع أحمر جديد"!. لكن إشعاع وجه أمّه أقنعه بأن يبذل قدرًا استثنائيًا من الرعاية. كان يخشى أن تكون قد كبرت على حمل طفل بأمان، كم كان عمرها آنذاك؟ قدّر مارجيو أنّها في الثامنة والثلاثين على الأقل، لم تزل شابة بعض الشيء، وبريق عينيها استردّ لها بعض شبابها. فكّر الولد أنّ بوسعها أن تحمل مرّتين أو ثلاث مرّات إضافية.

لم يتغيَّر سلوك نوريني تجاه قومار، كان لم يزل يراها وهي تكلّم الموقد والطاسة، وبرغم أنّ نبرتها صارت مبتهجة وجذلة، فقد كان عدم

اكتراثه بها هائلاً إلى حد أنَّه لم يلحظ شيئًا غير معتاد؛ فكان آخر من علم بالأمر.

منذ وقت طويل، كانت تذهب إلى بيت أنور السادات للمساعدة في شغل البيت، ولم تتوقَّف عن ذلك حتى موعد الولادة. وكان قومار قد سمح لها بالمساعدة في بيت أنور السادات بسبب قلَّة الشغل في بيتهم هم. كما كانت زوجة الرائد سِدْرَه تطلب من نوريني المساعدة في الطبخ حينما يزورها أبناؤها أو يحلُّ ببيتها ضيوف عسكريون على العشاء، وتسمح لها بأخذ بعض الطعام معها إلى البيت. كذلك كانت تعمل في متجر تطبخ فيه وتخبز الفطائر، ولكنَّ أكثر عملها كان في بيت أنور السادات، المجاور لبيتهم. كانت كاسيا تذهب إلى المستشفى كلَّ يوم، وتكون دائمًا مشغولة عندما ترجع إلى البيت، أمَّا بناتها فلم يكنَّ غير عالة على البيت؛ فكانت نوريني تساعد في طبخ الأرز ووجبات الخضراوات، وغسل الثياب وكيِّها، وكنس الأرضيَّات والفناء، والاعتناء بالطفلة الصغيرة مايسا ديوي.

كلَّ يوم، بعد أن يتناول قومار إفطاره وينطلق بدرَّاجته إلى ظلِّ شجرة اللوز الاستوائية في السوق، كانت نوريني تسارع إلى بيت كاسيا وتدخل دونما طرق على الباب، فتبدأ بأن تحمِّم الطفلة الصغيرة، ثمَّ تحمل الثياب الوسخة إلى الحمَّام بينما تكون مايسا ديوي وليلى مستلقيتين على الأريكة تلوكان رقائق البطاطس، وأنور السادات يتأرجح في مقعده الهزَّاز، وهو يدخِّن سيجارة القرنفل. بعد ذلك تطبخ نوريني الغداء، بينما الغسيل منقوع في الماء والصابون. ولم يعُقْها الحمل

عن القيام بكلّ تلك المهام؛ ولذلك السبب لم يدرك قومار أنهم في انتظار طفل ثالث.

في الحقيقة كان مارجيو أوّل من تردَّد على بيت أنور السادات، إذ كان يكلَّف بين الحين والآخر بمهام عارضة هناك. بدأ ذلك بمجرَّد أن انتقلوا إلى سكنى البيت ١٣١. طلب قومار من مارجيو أن يتعلَّم قراءة القرآن على يد الشيخ ماسوما، فكانت تلك الدروس مبرِّرًا جميلاً لأن يهرب مارجيو من بيته المضجر، مثلما منحته مكانًا يعثر فيه على أصدقاء جدد. فضلاً عن اكتشافه مصدر جاذبية آخر.

بعد صلاة العشاء، كان وبعض الأولاد الصغار يجتمعون في سقيفة بيت أنور السادات، بجوار الشبابيك الكبيرة. لم تكن في أغلب بيوت القرية أجهزة تليفزيون، لكن السادات كان لديه واحد، وكان يسمح لمارجيو وبقية الأولاد بمشاهدته، بل كان شيوخ في بعض الأحيان يأتون لمشاهدة التليفزيون جالسين على مقاعد من خشب جوز الهند مصفوفة في السقيفة وهم ينفثون غيومًا من دخان التبغ. كان الأولاد الصغار يخشون دخول البيت، فهناك كانت الأسرة تجلس في هدوء وثبات أمام التليفزيون بينما تمضغ البنات البازلاء الخضراء. ولم يكن يليق بأحد أن يقلقل وداعة تلك الجلسة، فكان التلصُّص عبر الشبابيك أقرب ما يصلون إليه.

غير أنَّ أنور السادات كان يسمح لهم بدخول البيت في مناسبات معيَّنة، وبنبرة آمرة كان يطلب منهم الجلوس على حصيرة مجدولة

توضع في موضع الكراسي، أو يطلب منهم الجلوس على أريكة. وفي بعض الأحيان كانوا يطيعونه ويدخلون ما لم يكونوا مكلَّفين بمهام عليهم تأديتها، غير أنهم كانوا يمتثلون قطعًا حينما تشير البوادر إلى أنَّ أنور السادات سوف يعرض فيلم فيديو. وكان الرجل كثيرًا ما يذهب إلى محل لتأجير شرائط الفيديو في الفندق المطلّ على الشطّ، لا سيَّما في ليالي السبت، ثُمَّ يسمح للأولاد الذين يدرسون القرآن في المسجد بالفرجة. وهكذا عرف مارجيو كونج فو شاولين، مثلما عرف رامبو.

ذات مساء كان مارجيو جالسًا وحده خارج شبَّاك أنور السادات، وكان المطر يهطل بغزارة، فرجع بقية الأطفال جريًا إلى بيوتهم، باستثناء مارجيو. كان قومار يضرب نوريني طوال عصر ذلك اليوم، فلم يشأ مارجيو أن يظلّ يشاهد ذلك حتى حلول الليل. وخطَّط أن يبدأ ليلته بمشاهدة التليفزيون وينهيها بالنوم في المسجد. ظلَّت أسرة أنور السادات تثرثر إلى أن قال أحدهم إنَّه يشعر بالجوع، وفهم مارجيو أنهم لم يجهِّزوا شيئًا للعشاء. رأى أنور السادات مارجيو جالسًا في السقيفة، فاقترب منه وسأله إن كان يمكن أن يذهب ليشتري طعامًا من السوق. وبرغم أنَّ الوقت كان قد تأخَّر، فقد كان معتادًا أن يبقى بعض الباعة في السوق، يبيعون التمبه المقلي وساق الدجاج بل والسمك المشويّ. وقبل أن يتسنَّى لمارجيو قول "نعم"، خرجت مهراني صغرى البنات من البيت وقالت لأبيها إنَّها سوف تذهب هي الأخرى، واشتركا في مظلَّة واحدة تحميهما من المطر والظلام.

وتلك كانت بداية قيام مارجيو بالمهام العارضة لحساب أنور السادات، والأهمُّ أنَّ تلك كانت بداية علاقته السحرية بمهراني. وكان كلاهما في عمر واحد.

لَمَّا لم يكن لأنور السادات ولد، فقد كان هو الذكر الوحيد في البيت، فكلَّما كانت تطرأ مهمَّة تحتاج إلى جهد بدني كان يذهب إلى البيت رقم ١٣١ ويطلب من مارجيو المساعدة فيها. فكان مارجيو يحمل أجولة الأرز إلى غرفة الخزين، ويصلح مزراب السطح عند تسريبه، ويشذِّب آكام الشجر في فناء البيت الأمامي. وفي مقابل تلك المهام كان أنور السادات يعطيه نقودًا، بل ويطلب منه أن يتناول الطعام معهم، وفي عيد الفطر كان يعطيه بنطالاً وحذاءً جديدين. وأخيرًا سأله أنور السادات في أحد الأيام إن كان يمكن أن يستدعي أمَّه للمساعدة في الطبخ، فأحضر نوريني.

وهكذا أتاح أنور السادات مهربًا لفرد آخر من أفراد الأسرة، مطلقًا سراح نوريني من حياة أسريَّة لم يكن من سبيل إلى تقويمها. حتى لو أنَّ كاسيا لم تكن تدفع لها، كان يروق لها الذهاب إلى بيت أنور السادات، مهما يكن حجم العمل الذي يلزم القيام به هناك. كان يكفيها مقابل عملها وعاء من الحساء وبضع شرائح من اللحم. وفي بيت أنور السادات كان بوسعها أن تنصت إلى الأغنيات الحزينة التي يديرها في مكتبه وتستمتع برؤية بناته الجميلات المستغرقات في أنفسهن. لم تكن تضجر مطلقًا من أولئك البنات، لا سيَّما ليلى ومايسا ديوي، مهما يكن ما تطلبانه منها. ليلى كانت تطلب التدليك دائمًا، ومايسا

ديوي كانت تطلب المكرونة، ونوريني كانت تستجيب عن طيب خاطر. في ذلك البيت لم تكلّم نوريني الموقد مطلقًا، بل كانت تستعيد نزرًا من عذوبة روحها القديمة.

مع الوقت أصبحت تلك المهام جزءًا من روتينها فلم يعد يلزم كاسيا أو أنور السادات أن يستدعياها، بل كانت تحضر فجأة وكأنّها وقعت عليهم من السقف، فتأتي فجرًا في بعض الأحيان، وتسأل إن كانت كاسيا تريد مساعدة في الطبخ في ذلك الصباح، وكان دأب كاسيا أن تنفرد بالمطبخ في وقت الإفطار، لكنَّ الكسل قد يغلبها فترحِّب سعيدة بمساعدة نوريني.

متباهيةً أشدَّ التباهي بذلك البيت كما لو أنّه بيتها، كانت نوريني تلمَع الأرضية حتى تتلألأ على نحو تعجز عن الوصول إليه صاحبة البيت نفسها، وتدعك حواف كلِّ بلاطة بقماشة صغيرة لتتأكُد أنّه لم تفلت منها ذرّة من غبار، تدعك دعك قطّة تلعق مخالبها، وكانت تمسح زجاج الشبابيك إلى أن يتلاشى من فرط شفافيته، وتنخدع فيه الهوام والفراشات فترتطم به. لم تكن قد فعلت ذلك قطُّ في البيت رقم ١٣١ بشبّاكيه اللذين غام زجاجهما برذاذ من الجير بأثر من طلاء قومار ومارجيو للجدران. ولم تكن نوريني أيضًا تسمح لزهور الفناء الأمامي أن تذبل، خلافًا للزهور في دغلها الزهري، فسُرَّت بذلك كاسيا مزيدًا من السرور. احتفظت بنوريني كما لو كانت أوتيت خادمة وفية مستعدّة للعمل حتى لو لم تحصل على قرش واحد مقابل عملها.

كانت جاذبية ذلك البيت في مقابل بيتها تنبع من الرقّة التي كانوا يستقبلونها بها هناك، في مقابل فظاظة قومار وقسوته. كان واضحًا أنَّ نوريني تجد السعادة في ذلك البيت، فشعر قومار بالغيرة من ذلك، وصار عند عودتها يعاقبها مُنزلاً عليها شتَّى أنواع القسوة المعهودة، فيجلدها بيد المنفضة أو يغتصبها فور أن يحلَّ الليل. كان يمعن في احتقاره جسمها. ولكنَّه لم يستطع قطّ أن يمنعها من الذهاب، فقد كان عليه هو أن يخرج دائمًا للعمل. ولمّا علم أنَّ أنور السادات وكاسيا يعطيان نوريني ومارجيو نقودًا لم يكن هو يكسب مثلها، فهم أنَّ سلطته عليهما تتلاشى. لم يستطع أن يمنعهما، ولم يكن بيده إلا أن يقابل طيبتهما بالفظاظة والبغض.

في النهاية جاء الخطر من حيث لا ينتظر. ظلَّت المعاملة الحسنة التي تلقاها نوريني تحرّكها وتؤثر في مشاعرها إلى أن فقدت حكمتها. فلم يكن تفانيها شبه المطلق هو الذي أجهز عليها، ذلك التفاني الذي كانت تهبه لذلك البيت في مقابل هبة يسيرة من الطيبة، بل كانت طبيعة أنور السادات صيّاد النساء، وقد أثارته بقايا جمالها وفضلة شبابها، وكلاهما لم يكن يجده في الزوجة التي كانت لديه.

في أحد الأيام، كانت نوريني تخرّط البصل، واقفةً إلى المائدة المجاورة للموقد، وكان يتصاعد منه أزيز ماء يغلي. سار أنور السادات بجوارها وقرصها في مؤخرتها، جفلت. كانت قد سمعت نمائم عن الرجل الذئب الذي لا يقوى على لمّ يديه، وفيما كانت تستدير لتردعه بنظرتها، اتسعت عيناها المدوّرتان؛ فما رأته لم يكن شهوة، وإنَّما

ابتسامة بريئة على وجه رقيق، كوجه طفل صغير. ولم تطاوعها نفسها على الغضب؛ ففي مواجهة ذلك التعبير العذب، لم يكن بوسعها إلا أن تُبعده عنها قائلة إنّ ما فعله لا يليق، خاصّةً لو رأته إحدى بناته.

ندر حضور بناته في أثناء وجود نوريني. فكثيرًا ما كانت ليلى تخرج وتفضّل مايسا ديوي البقاء في السرير. ولمّا لم تغضب منه نوريني، فقد باتت عادة لدى أنور السادات أن يقرص كفلها أو يربت عليهما كلّما سنحت له الفرصة. لم تعد نوريني تدير رأسها ذا العينين المتسعتين، إنّما يتورّد خدّاها، وترتسم على شفتيها ابتسامة مكتومة يصعب فكُّ شفرتها. كانت لمساته تبدو لها ودودة، تعبر عن اهتمام لم تلقَ مثله من قبل. كان خدّاها يتورّدان إعجابًا بما يفعل، برغم أنّها كانت ترى الوقاحة فيه أيضًا. وفي كل مرّة ظهر فيها الرجل، ماشيًا نحوها بابتسامته الموحية، كان صدرها يقشعر وتنتظر في خوفٍ امتداد يده عليها.

وفي أحد الأيام تجاوز أنور السادات قرصة المؤخّرة، كأنّما كان يختبر ثمرة، إذ وقف وراء نوريني وهي تنقّي حزمة سبانخ من الورق الذي أكلته الديدان. في هذه المرّة شعرت بأنفاسه في شعرها وعلى مؤخّرة رقبتها. أغرقها طوفان خوف شلّ جسمها، بينما تشبّثت يد أنور السادات في فستانها، جاذبةً إياها إلى الوراء. لم تدرِ ما الذي يوشك أن يفعله، وكيف ينبغي أن يكون ردُّ فعلها. دفع أنور السادات جسمه إليها ببطء، ضاغطًا نوريني بالراحة إلى المائدة. لم تجد في نفسها الشجاعة لتدير إليه رأسها، فلو كانت فعلت ذلك لتلاقت نظرتاهما وأصبحت عينا أحدهما في عيني الآخر، ووجهه في وجهه، ولتلامس الأنفان. ارتجفت

نوريني، وتدلَّت يداها الثلجيتان إلى جنبيها، وتناثرت على المائدة سيقان السبانخ. مال أنور السادات على ظهرها، مستندًا على مؤخِّرتها. وتراخت قبضة إحدى يديه، وتحسَّست يده الأخرى نهديها بلمسات خفيفة أسْرَت فيها قشعريرة ساخنة، إلى أن اخترقت اللمسات المنتظمة كلَّ خليَّة فيها. حبست نوريني أنفاسها بينما يداه تجوبانها.

تقدَّمت بلا مقاومة. ولمَّا أدرك أنور السادات أنَّ جسمها بات ملكًا له، حرَّك يديه إلى أسفل ضاغطا نسيج فستانها على بشرتها قبل أن يرفعه ليتلمَّس فخذيها السخيَّين. وما كاد الفستان ينحسر ويصبح طرفه معلَّقًا على سبَّابته، حتى مضت يده تنسلُّ بلا عجلة، فانتصبت شعرات جسمها من أثر لمساته. كان يحرِّك أصابعه إلى أعلى وإلى أسفل ويديرها. وبغتة، ارتدَّ إليها رشدها، وامتلأت عروقها ثلجًا، وارتجَّ جسمها كلُّه ينذرها.

فردت الفستان على جسمها وأزاحت يدي أنور السادات، ووكزت الرجل وكزة خفيفة بمرفقيها مبعدةً إيَّاه عن ظهرها. كان رفضًا رقيقًا، شبه غامض، وانتهز أنور السادات الفرصة فتحسَّس مؤخرتها مرَّة أخرى. ثمَّ تراجع، قابلاً أنَّ وقته لم يحن بعد. كان بجميع المقاييس عاشقًا فذًّا.

استدارت نوريني وقد استشرت الحمرة في خدَّيها. لم تنمّ الحمرة عن غضب، إنَّما هو الخجل. ابتسم أنور السادات في بساطة واختفى

وراء قناعه البريء، ثمَّ انسحب تمامًا تاركًا إيَّاها تستأنف دور الخادمة المثالية في مطبخه.

بعد ذلك عملت نوريني بسرعة، ورجعت مبكّرًا إلى البيت ومعها وعاء فيه حساء السبانخ. وبقيت بعيدة عن بيت أنور السادات، لكنَّ كاسيا جاءتها في اليوم التالي تتفقّد سبب غيابها. تظاهرت نوريني أنّها مريضة. وكانت بالفعل تشعر أنّها ليست بخير، فقد كانت الرجفة تنتاب جسمها كلّما تذكّرت ذلك الجسد الذي كان يلامسها، وتلك اليد التي كانت تتحسَّس أعلى فخذيها، موشكة أن تنفذ إلى أخصِّ أجزاء جسمها. وظلَّ اللقاء يعاودها، فتستشعر لسانه، ساخنةً حينًا وباردة حينًا. وكلّما أجهدت نفسها في المحاولة، شقَّ عليها النسيان واستعصى.

بعد ثلاثة أيّام، أمكنها أن تتغلّب على تلك الحمّى. صار بوسعها أن تتذكّر ما جرى بلا فزع ولا ألم، وبدأت ترى فيه جانبه المذهل الحميميَّ، بل دفئه الاستثنائي. وبرغم العار المكتوم، استوحشته نوريني وتاقت إلى لمسه مؤخرتها، إلى تسلُّله حتى يصل إلى داخلها. فرجعت، خائفة هذه المرَّة، متقهقرة للحظة لدى الباب، كأنّها ضيفة تزور البيت للمرَّة الأولى، ودخلت المطبخ لتعمل، برغم أنَّ أفكارها كانت تحوم بلا هدف. سمعت شخصًا يقترب وعرفت في زحف الشبشب صوت خطواته. لم تكن بحاجة إلى الالتفات لتفهم أنَّ أنور السادات كان يتسلَّل نحوها. ومع ذلك نظرت. لم يكن يرتدي غير سرواله التحتيِّ وقميصٍ أزراره العليا محلولة، مبتسمًا ابتسامة لم يبقَ فيها أثر لخداع، بل هي ممتلئة بالنيَّة. جاء ردُّ فعل نوريني خجولاً، فابتسمت في خفر، وطأطأت

رأسها ولم تزحزح عينيها عن الجسد المقترب. فهم أنور السادات أنَّ حصون هذه المرأة قد اختُرقت، وأنّه موشك أن ينالها.

مرَّة أخرى وقف وراءها محيطًا جسمها بذراعيه، مقيِّدًا إيَّاها، مخرسًا كلَّ صوت. بدا وكأنَّ الهواء يتصلَّب من حولها. حوصرت، ولكنَّها كانت تعي أنها أظهرت رضاها، وتخشى ممَّا قد يعنيه ذلك، ولا تعرف إن كان سيقسو عليها. شعرت بوجهه يغوص في شعرها، دافئًا يتحرك في مؤخرة عنقها. سمعت في أنفاسه صوت لهاث، وقد تنافر إيقاعه المنتظم مع شهقاتها هي. حرَّك يديه يحيط بخصرها مسيطرًا بأصابعه على فخذيها.

تمايلا معًا، وقد عثرا على إيقاع يجمعهما في صمت المطبخ. وللحظة كانا أقرب إلى عروسين متعانقين. مضت يدا أنور السادات تنزلقان عليها ببطء، بمنتهى البطء، مراكمة التوتُّر شيئًا فشيئًا، فقد كان يعرف أنَّ العجلة قد تخرِّب كلَّ شيء. كانت أصابعه على خصرها، تتحسَّسها صعودًا، وراحتاه ملتفَّتان على نهدي نوريني، تدعكانهما برفق. نهداها اللذان شاخا ورضع منهما طفلان، وأنزل عليهما قومار عقابه بيديه، صارا أكثر صلابة في هواء المطبخ الساخن، وتحت أصابع أنور السادات الملتهبة. أينع الشباب من جديد تحت لحمها.

أدرك أنور السادات أنّه لو كان وضع يديه على تلك المرأة قبل سنوات، لاكتشف فيها جسدًا أقرب ما يكون إلى الكمال. لقد ظلَّت لشهور تأتي إلى بيته فيرقبها، ويأسى على كلِّ دقيقة تأخَّر فيها عن

الاقتراب منها. خلال تلك الشهور تفحّص جمالها، وأدركه من وراء حزنها، وبرغم صمتها وانهماكها المَرَضيّ في شغل البيت. لم يكن قبل ذلك قد اقتربَ من جارة قريبة هذا القرب، امرأة يعرفها جيدًا، وزوجة صديق، فضلاً عن أنّها امرأة تستطيع أن تتجوّل في بيته كأنّها قريبة أو نسيبة. لكنّ نظرتها الغائمة، وقدرته على الحدس بما عانته في حياتها، جعلتا منها امرأة لا يملك التراجع عنها. أسَرَتْه فكرة توقها إلى لمسة عاشق فذّ، وذلك ما كان يشعر أنّه قادر على توفيره لتلك المرأة المحرومة.

شعر أنّه يزن معاناتها وهو يمسك نهديها ويصغي إلى انحباس أنفاسها في حلقها. كان بوسعه أن يفهم وضعها، ومع ذلك بقي وجلاً. صانت جسمها برغم كلّ شيء. كان يشعر برغبتها، وبدا أنّ نهديها يزدادان صلابة كمن يُثبتان له تصوُّره أنّ هذه المرأة بحاجة إلى مثل هذه اللمسة، لمسته هو، لتحييها بعد موات.

كان يعطيها الدفء الذي أذبلها غيابه. بيديه المدرَّبتين اللتين أقامتا التماثيل الطبيعية أمام البيت، ولعبتا بالألوان في تقليد فاجر لفنّ رادين صالح، وبعثت النشوة في أجساد نساء عديدات تحت جسمه، بدأتا تتحرّكان بسرعة، فترتفع أصابعه قبل أن تغوص، وترسم أشكالاً على جلدها. لم يخفَ عليه أنّ نوريني بدأت تضمّ نفسها إليه، شاخصة إلى السقف بعينين خاويتين، وتجاهد كي تتنفّس من بين شفتين منفرجتين. شدّها أنور السادات إليه بمزيد من القوّة، وشدّ يديه على نهديها، مديرًا راحتيه كمن يفتح برطمانًا. ومرّة أو اثنتين، جعلهما ذلك كلّه يلتفّان على أحدهما الآخر، وكأنّ عقليهما فرغا، وبدأت سيقانهما تتحرّك من

تلقاء نفسها، وأغرق العرق جسميهما. كان فستان نوريني مغلقا بزرّين من الخلف، فحلّتهما يدا أنور السادات ببطء، وقد أعمل فيهما ثلاثة أصابع كأنّ لها عيونًا ترى بها، قبل أن تنسلّ اليد من وراء الفستان لتنفذ من حمالة الصدر.

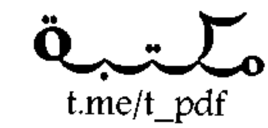
انتشيا، وازدادا جموحًا من كلّ لمسة، وفجأة انفتح بابٌ في مكان ما من مقدمة البيت، مُنهيًا ما هما فيه من نشوة. ولمّا دخلت مايسا ديوي المطبخ، كانت نوريني مواجهة للمائدة، وفي يدها سكّين ليس أمامها ما تخرِّطه به، فهي واقفة فقط لا تجد من الشجاعة ما يجعلها تلتفت. فقد تقع عينا مايسا ديوي على طوقها المفتوح وحمالة صدرها الظاهرة. أمّا أنور السادات فكان بجوار إبريق الشاي يصبُّ الماء في كوب قبل أن يشربه، وهو أيضًا لم يستدر. شيء ما في سرواله ذبل سريعًا. حملقت فيهما مايسا ديوي للحظةٍ قبل أن تندفع إلى الحمّام وتبول في صخب. غادر أنور السادات المطبخ بدون أن تقال كلمة.

لو كان مارجيو ومامه منتبهين بحق، لأرجعا تاريخ التغيُّر الذي طرأ على أمّهما إلى ذلك اليوم. صارت تتوهّج كلّ مساء، وصارت في عينيها نظرة غابت عنها منذ أن كانت بنتًا، كانت تستحم لساعات وتلبس أجمل فساتينها الذي اشترته قبل أربع سنوات في عيد الفطر وتلاعب القطة بجانب الموقد إلى أن يستوي الأرز. ولم يكن دأبها من قبل أن تبالي بالحيوانات الأليفة، فصارت تمسِّد فراء القطة، تاركة لها أصابعها تعضعضها، وتغنّي لها برفق كما لو كانت تدلّلها كي تنام. لاحظت مامه هذا، وشهده مارجيو، ومن بعدهما بدأ قومار ينظر غير

مصدّق ما يراه، ولكنّهم جميعًا عدّوا ذلك كلّه شكلاً آخر من أشكال الجنون.

فكّرت نوريني طويلاً في ما جرى في عصر ذلك اليوم. لم تكن ترى شيئًا يفوقه جمالاً، وصارت تشتاق إلى لمسات أنور السادات أعنف الشوق، لم تكن تستطيع أن تفكّر في شيء عدا تلك اللحظة وما كان لا يزال بانتظارهما، فقد كانت تستشعر أنّ الأمر لم ينتهِ بعد، وأنّ المزيد لم يزَلْ في الطريق.

سارت إلى بيت أنور السادات في العاشرة من صباح اليوم التالي، وهي ترتجف من فرط الترقّب. ارتدت قميصًا بصفّ من خمسة أزرار وجيبة فضفاضة، في إيماءة استسلام، لتتيح لأنور السادات أن يصل إليها بصورة أسهل. كانت تريد أن تكرّر ما قاما به في الأمس، وخفق قلبها بسرعة، لكنّها خشيت أن يتبيّن أنّ مايسا ديوي شيطانة متطفلة. دخلت البيت تخطو برفق على البلاط، متّجهة إلى المطبخ، متخفّية وراء قناع محكم من البراءة. ثبّتت عينيها على الفضاء المواجه لها بينما مضى عقلها يعيث في جنبات البيت، آملاً في علامة تدلّ على حضوره. وقفت في منتصف المطبخ، والموقد عن جانبها، والمائدة والخزانة فوق إحداهما الأخرى في الجانب الآخر. وقفت بين الجانبين، لا تريد أن تمسّ أيّ شيء، لا المقلاة ولا الطاسة، لا السكّينة ولا البطاطس. وقفت هنالك تنتظر يديه على جسمها.



سمعت الباب يُفتح. وقفت نوريني ساكنة، ولم تنظر. ولكنَّها مرَّة أخرى ميَّزت خطواته الزاحفة، خطوات الرجل الذي كانت تقف في انتظاره. ولمَّا رأى أنور السادات المرأة المستسلمة في منتصف مطبخه، عرف أنَّ هذا العصر لهما. كانت تقول له بلا كلمات "افعل ما تشاء، وامزجنا معًا".

تناول يدها، وفي خطوات مضطربة مضى بها إلى غرفة النوم. أغلق الباب وراءهما. عالم حميمي حقًّا، لم يعد لأحد أن يصل إليهما هنا، حتى مايسا ديوي وكاسيا.

بقي أنور السادات واقفًا بجوار الباب، ملتهمًا من البعد نوريني بكلِّ حيائها. كانت مطرقة الرأس، لا تدري إلى أين تنظر. تراجعت إلى أن اصطدمت بحافة السرير فتهاوت على الحشيَّة. تحسَّست بيديها الملاءة وكانت بيضاء بياضًا زنبقيًا، ليِّنة، سميكة، مرسوم عليها بخيوط بنيَّة داكنة طائر طنَّان يتكرَّر. كانت حشية الفوم من تحتها متماسكة وليِّنة في الآن نفسه. كانت تريد نومًا دائمًا دافئًا مع رجل لا يضرب زوجته أو يستأسد عليها، وبلا مخاوف. سار إليها أنور السادات. رأت ساقيه تتحرَّكان، فتوقَّفت أحلام يقظتها وهي ترفع عينيها إلى الوجه البريء للرجل المستعدِّ لغزوها.

تبادلا نظرة سريعة، وابتسمت نوريني في حياء وقد لمحت سرواله القصير المنتفخ. تجمَّدت لوهلة، مرَّة أخرى، لكنَّ أنور السادات لمس كتفها، معيدًا الدفء من جديد يسري في جسمها. استلقت تاركة

ساقيها تتدليان على الأرض، وتناثر شعرها حول وجهها غزيرًا، وأخذ نهداها يرتفعان ويهبطان بأثر من أنفاسها العميقة. باعد أنور السادات ما بين ساقيها ووقف بينهما قبل أن يرمي نفسه عليها، ضاغطًا بجسمه جسمها. كان ثقله مثيرًا، وممتعًا، كأنّه يقول لها "إنّ ما سيحدث الآن لا يمكن تأخيره أكثر ممّا تأخّر".

كان واضحًا منذ البداية أن أنور السادات سوف يكون عاشقًا صبورًا مراعيًا. دفن في شفتيها شفتيه، بينما أحاطت يداه بخصرها، غير سامح لها بالتملُّص. في البداية تخشّبت نوريني، تاركة شفاههما الجافة تتلامس، شاعرة بالتيه وهي لا تراه في نومه عليها. لكنها كانت تشعر بفم الرجل يرضع فمها مثل سمكة على سطح بركة، باعثًا عبر شفتيها المنفرجتين تيّارًا بليلاً. ظلّ يستحثُها على الاستجابة، بعضّه شفتها السفلى وشدِّها برفق، ثمّ إفلاته إيّاها قبل استعادتها في قبلة كاملة، حتى لانت له، أخيرًا، بحركات خفيفة، وانطلقت فجأة تبادله قبلاتها بقبلات عنيفة.

بعد ذلك مضى كلُّ شيء في سلاسة. تشرَّب أنور السادات عبق رقبتها، وانساب وجهه على وجهها، مقبِّلاً ما وراء أذنيها، أذن بعد أذن، واصلاً مرَّة أخرى إلى شفتيها. وفيما هما يتلويّان دفعت نوريني قدميها في الأرض رافعة ساقيها المتدليتين عن الحشيّة ليستويا كما ينبغي إلى السرير. لم يفقدا سيطرتهما، بل تراخيا قليلاً، شأن عاشقين خبيرين بفن الهوى. فكّ أنور السادات أزرار قميصها الخمسة في تأنٍّ ورقّة وبلا وعي فلمّا انفتح كلُّ شيء لم يَعِ أحدهما بشيء. كانت نصف عارية،

فاعتدل أنور السادات جالسًا فوق فخذيها وخلع قميصه التحتي معرِّيًا صدرًا كثيف الشعر الأسود المختلط بالأبيض. حدَّق كلٌّ في الآخر إلى أن وضع أنور السادات يديه على نهديها وصبَّ قبلات محترقة بالرغبة على شفتي نوريني بدون أن يبدِّل موضعي يديه. انزاحت جيبتها وسرواله بدون أن ينفصل جسمه عن جسمها، أزاحتهما الأيدي المتمرِّسة ورمتهما على أرض الغرفة. والآن صارا عاريين تمام العري وقد رفعت نوريني ركبتيها وأحاطت جسمه بساقيها. واستغرقا في ممارسة الحب هناك، يتعرَّقان ويلهثان، أعلى ملاءة انبعجت طيورها الطنَّانة.

كانت اللحظة صادقة صدقًا يكاد يستحيل معه على الذاكرة أن تستحضرها. استلقيا عاريين، لم يقولا أيَّ شيء، فعَنْ أيِّ شيء يتكلَّمان والرغبة في غنى عن الكلام؟ بجسدين منهكين وروحين منهكتين، استلقيا متجاورين، تحملق أعينهما شبه المطفأة في سقف الغرفة. لم يكن من ضوء حولهما إلا الذي يتسلَّل من ستارة على الشبَّاك بسبب شمس الظهيرة المضطرمة. كانت نوريني لم تزل مندهشة من جرأة جسمها، ومنتشية نشوة تمنعها من الكلام. ولم يكن من داعٍ لسؤال الرجل عمَّا يشعر به. وأخيرًا وبلا تردُّد، انقلبت المرأة على جنبها، فأراحت فخذها على جسم أنور السادات، وبابتسامة رقيقة أغمضت عينيها.

في عصر ذلك اليوم رجعت نوريني إلى البيت فلم ينتبه أحد إلى تغيُّر سلوكها. ربما برعت في إخفاء بهجتها، أو أنَّ بقية أهل البيت ما كانوا ينتبهون كثيرًا إليها. أنور السادات وحده هو الذي رآها، وافتُتن

باكتشافه تلك العروس الصغيرة في تلك المرأة، فمضى يتيح نفسه لها مع ازدياد أيّامهما سخونة وجموحًا، في السرير نفسه، وفي أماكن أخرى بين الحين والآخر. ففي بعض المرّات كانت مايسا ديوي تخرج، فيغلقان معًا الأبواب ويسدلان الستائر ويطفئان المصابيح ويتناكحان على الأريكة أو على مائدة المطبخ أو في حوض الاستحمام، أو على أرضيّة مرسمه في إحدى المرّات.

ولمّا حملت، لم تكن نوريني بحاجة إلى قابلة تؤكّد لها الخبر أو طبيب. لم يصبها ذعر على الإطلاق. بل استبدّت بها البهجة، ومضت تجلس فتتأمّل الطفل المنتظر، مربّتة على بطنها الذي لم يكن قد برز بعد، وكأنّ هذا أول طفل حقيقي لها. بدا وكأنه وليدها الأول الذي طال انتظارها له، وكانت عيناها تفيضان بالدموع حينما تتخيّل اليوم الذي تأتي به فيه إلى الدنيا، وتسمع صوت بكائه، وتراه يكبر، موقنة أنّها سوف تحبُّه. كانت كثيرًا ما تدندن، وكأنّما وُلد الطفل وهي تهوّن عليه بالفعل أوجاعه الصغيرة.

إذ ذاك بدأ مارجيو يشعر بالتغيُّر الذي طرأ على أمّه. كانت أفضل ثيابًا، وأكثر حيوية، وأحلى ممّا سبق أن رآها في أيّ يوم من قبل. وبعد فترة طويلة سوف يدرك أنّ الوهج نشأ من جنين فتاة عشّشت في رحمها. همس لأخته مامه قائلاً إنّ أمّهما حامل، فانتظر الاثنان في رهبةٍ الوليد القادم. في ذلك الوقت كان مارجيو لا يزال يتصوّر أنّ الجنين من أبيه، وإن تساءل كيف أمكن قومار أن يفعلها. فلسنوات، ربّما منذ أن ظهر الدغل الزهري، كانت نوريني تنام في غرفة مامه، وفي ضوء تقدُّمه في

السنّ وشكواه مرةً من تورُّم في قضيبه، اندهش مارجيو حين عرف أنّ قومار لم يزل قادرًا على التخصيب.

تخيَّل مارجيو أن يكون قومار في ليلة من الليالي قد جرَّ نوريني من غرفة مامه ورماها في السرير أو على الصندوق في غرفة الخزين ومارس فيها قسوته المعهودة. لا بدَّ أن يكون قد فعل ذلك مرارًا وتكرارًا حتى حبلت زوجته المحاصَرة، برغم أنّ طفليه الموجودين بالفعل كانا يعانيان بصفة عامَّة من سوء التغذية. لم يتكلَّم في هذا الأمر مع أخته، بل احتفظ بشكوكه لنفسه، حتى اندهش لمَّا تكوَّر بطن نوريني وازداد استدارة أنّ قومار لم يلحظه. فلم تُنطَق كلمة عن الأخ القادم، ولم يُبدِ أيَّ اهتمام خاص بزوجته.

لَمّا اكتشف قومار بن سايووِب أخيرًا أنّ زوجته حبلى، غضب غضبة لم يغضب مثلها من قبل. وأذهل عنفه مارجيو ومامه، فقد كان قومار يتجاهل زوجته منذ عهد بعيد، برغم أنّه ظلّ يضربها بين الحين والآخر، ولكنّ عنفه إجمالاً كان قد انحسر. أمَّا هذه العاصفة فكانت أشدَّ قسوةً من أيِّ شيء شهداه منذ وقت طويل، كان غضبًا طال كبته فلمَّا انفجر أطاح بكل شيء. جرَّها من المطبخ إلى وسط البيت، ومضى يصفعها بدون أن ينطق كلمة. وكانت نوريني تصرخ في غضب، كأنَّما تريد أخيرًا أن تردَّ ضرباته، فلعلَّها كانت تدافع عن طفلها الحبيب الساكن رحمها. وصَفَته بالحيوان، وبالبهيمة، وبالخنزير، وردَّ قومار بالمثل. رأى قومار نوريني تواجهه وتردُّ ضرباته، فازداد عدوانًا وعنفًا، ولم يعد يصفع براحتي يديه، بل يلكمها بقبضتيه في وجهها وجبهتها.

ارتطمت نوريني بالجدار، فاهتزَّ بنيانه الهشُّ المقام من عيدان البامبو. وتبعها قومار، راكلاً إياها في ربلتيها، وحوصرت نوريني فتهاوت على الأرض، وفيما هي بلا حيلة، مضى يركلها في وركيها أيضًا إلى أن أمسكت نوريني قدمه. غضب قومار وقد رأى المرأة تأبى الاستسلام والقبول بالهزيمة فشدَّها من شعرها، حتى أوقفها على أصابع قدميها، وفيما هما واقفان وجهًا لوجه، لكمها في فكّها فترنَّحت هذه المرأة متهاوية إلى الركن وقد احمرَّ وجهها وتورَّم، ومع ذلك أبت أن تذرف دمعة واحدة، بل بقيت تدافع بيديها عن بطنها بينما قومار ينهال عليها ضربًا.

صاح قومار "أيتها العاهرة"، ورمى عليها المطفأة الصفيح، ثمَّ ابتعد عنها.

كان مارجيو ومامه يشاهدان، في فزع، وقد امتقع وجهاهما. ولَمّا تمالكا نفسيهما وصار بوسعهما أن يفعلا شيئًا، كان قومار قد خرج. اقتربت مامه من أمِّها تساعدها على النهوض، واقتادتها إلى الحشيَّة. كانت مامه دائمًا هي البنت الهادئة، ثقيلة الدموع، لكنَّها وقد رأت أمَّها تلقى ما لقيت من الضرب انفجرت في بكاء مخنوق، وأخذت تروِّح عن نوريني وتربِّت على رضوضها، وتلبِّي احتياجاتها، فتسألها: "هل تحتاجين إلى إسفنجة؟ قماشة مبلولة"؟ بينما يسيل الدمع على خدَّيها. ولم تزد نوريني عن هزِّها رأسها وإمساكها يد ابنتها.

الآن فهم مارجيو أنَّ الجنين ليس ابن قومار. غضبُ أبيه الساطع أضاء عتمة الحقيقة، وللحظة لم يعرف الولد في صفِّ مَن يقف. كان من

المستحيل عليه أن يصدق أن تحبل نوريني من رجل آخر. لم يستطع عقله أن يتوصّل إلى كُنه ذلك الرجل الثاني.

كان العار الذي شعر به عميقًا غائرًا. شعر أنّه يريد أن يتقيّأ فخرج مترنّحًا من البيت إلى كوخ الحراسة، فظلّ يفكّر هناك في كلّ ما جرى. ومهما جنح به عقله لم يكن يجد مفرًا من الحقيقة الصارخة العنيدة. لم يستطع أن يكلّم أصحابه في الأمر برغم أنّ بعضهم سأله لماذا يبدو عليه كلّ هذا الشقاء. لم يكن واردًا أن يناقش أحدًا في الأمر، فلو حكى لأصدقائه سرعان ما سيعرف كلّ شخص في العالم أنّ أمّه حملت من غير أبيه. ودّ جزء منه لو يرى أبويه يحترقان. لقد تآمرا على تعذيبه هو وأخته. ولكنّه في أعماقه لم يكن قادرًا أن يدين أمّه بعد كلّ الذي لقيته واحتملته، ولا كان يستطيع أن يستنزل اللعنة على أبيه الذي طُعن بالخيانة طعنة شديدة القسوة.

أمّا قومار بن سايووِب نفسه، فلم يكن في الدنيا أصعب ممّا كان يراه أمام عينيه، زوجته حبلى بطفل رجل آخر، رائحةً غاديةً بين الناس. طغى ذلك على إدراكه المؤلم بأنّه جعل أسرته تعاني لسنين. كان يعمل في رؤوس الناس صامتًا مشتّت الذهن. فأوشك أن يقطع أذن أحد زبائنه، وترك شعر آخر في فوضى أسوأ من التي جاء عليها. اغرورقت عيناه من أساه على نفسه، وهو يستدعي ذكريات كلّ سنوات اليأس محاولاً أن يرجع إلى منشأ الخطأ الأوّل.

لقد مرّت السنوات سريعة للغاية، فكانت الحياة تنحسر في البعيد مثل قطار يفوتك على لحظة. تذكّر شبابه المضني حينما كان يهيم من

قرية إلى قرية بحثًا عن عمل في المصانع. كان يقيم في كلّ قرية لشهور قليلة، يقطع جلود الأحذية، ويحمل أكوام القمح. وبعد سنين من ذلك كلّه وجد نفسه مريضًا وفقيرًا؛ فلجأ إلى عدَّة الحلاقة وبحث عن مكان ظليل تحت شجرة لينتظر الزبائن فيحلق رؤوسهم، برغم معرفته أنّه لن يجني المال الوفير من جرّاء ذلك. وحينما طلب منه سايبوب أن يرجع إلى القرية ليتزوَّج، لم يكن يملك من حطام الدنيا غير سوار زفاف ذهبي، وهو ما لم يكن يدعو للفخر.

جاء يوم الزفاف فرأى بعينه مدى فتور زوجته. لم يكن قد كتب لها رسالة ممّا تاقت إليه، ولا اعتذر عن ذلك. ولم يكن السبب أنّه لم يُرِد أن يكتب هراءً على ورقة ورديَّة معطَّرة بمسحوق التلك، بل أنّه بالفعل لم يكن يدري عن أيِّ شيء يمكن أن يكتب. لم يكن في حياته شيء مثير تحت ظلّ شجرة ينتظر الزبائن المشغولين بمنظر شعرهم الأشعث. وفكَّر أن المرأة برغم ذلك امرأته. "بالزواج هي امرأتي، أنا نصيبها. ولو لم تكن متاحة لي حينما أريدها، فلي الحق أن أغضب".

جالسًا على مقعد الحلاقة، مسح قومار عينيه بقماشة الشغل خشية أن يراه أحد في كشك الدجاج والمكرونة وهو يذرف الدمع. ومن جديد عاودته الحسرة على العمر الذي مضى شديدَ السرعة، فلم يتح له فرصة. حلق مذعورًا في يديه اللتين أوجعتا زوجته مئات المرَّات، وابنيه كذلك، ومرَّةً أخرى فاضت عيناه بالدمع. كان هو مَن ارتكب جميع الأخطاء. هو الذي نحت لنفسه بيديه حياته المؤسية. لكنَّه لمَّا فكَّر في المرَّات الكثيرة التي رجع فيها إلى البيت وإلى زوجته الكئيبة، والشيطانين

الضئيلين اللذين شاركها في تكوينهما، رأى أنّه ما كان لرجل في مكانه أن يفعل خيرًا ممَّا فعل. كان ينبغي على أهله أن يروا أيَّ حياة بائسة عاشها فيمدُّوا له يد العون. ولمَّا لم يكن من سبيل إلى أن يحدث ذلك، فعليهم أن يغفروا له غضباته.

جاء رجل فطلب منه أن يحلق له شعر ولد صغير، فكان على قومار أن يشيح بوجهه كي لا يرى الرجل عينيه المغرورقتين بالدموع. دعا الولد إلى الجلوس في المقعد، وفيما يتهيَّأ للبدء في عمله، حاول أن يصالح بين نفسه وبين واقع وجوده الجديد. نوريني سوف تلد طفلاً ليس من صلبه.

لوهلة عابرة، بدا مهيَّأً للاستسلام لهذا الكون الجديد ولمصيره المأساوي فيه. لكنه رجع إلى البيت، فكان عليه أن يرضخ لرؤية بطن زوجته، وعلى الفور تبدَّد كل إحساسه بالاتزان، ففقد رُشده وانهال عليها ضربًا واصفًا إيَّاها بالعاهرة، ضاربًا إيَّاها بمغرفة الماء، جالدًا جسمها بعصا المنفضة. ولم يهدأ قلبه إلا حينما رأى زوجته جاثية في ركن من البيت مستسلمة. حينذاك ذهب قومار إلى غرفته ليستلقي في سريره وحيدًا. ولمَّا حلَّ الليل وأنزل عليه فرَج العتمة، بكى بلا صوت داعيًا الله أن تتنزَّل الملائكة من عليائها فتسجِّل كلَّ شقاواته في وثيقة إعجازية من الشفقة المقدَّسة.

أخذ الجنين ينمو لا يردعه رادع في رحم نوريني المهتزِّ، محتملاً الضربات التي كانت تنهال على أمِّه، بل لعلَّ إحساسًا تكوَّن لديه

بوجود زوج لأمّه بالخارج عاقد العزم على الحيلولة دون ميلاده. كانت مامه بجوار أمّها دائمًا، وقد باتت هشّة طريحة الفراش، منكمشة أمام القسوة الدائمة. كانت البنت تحمّم نوريني بالإسفنجة، داعكة برفق كدماتها الحمراء بالصابون ماسحةً لحمها بدهن الأرز والخولجان اللذين طحنتهما في فمها. وبرغم الألم، بقيت نوريني أسعد ممّا سبق لابنيها أن رأياها من قبل، فأوجع ذلك مارجيو ومامه اللذين نادرًا ما رأيا ابتسامتها، ولكنّها الآن صارت تشركهما في بهجتها الصغيرة، شحّاذة تتصدّق بقروشها القليلة المكتنزة. وكانت تقول للولدين في همس:

"إنْ وُلد فسوف يأتي بانتقامه، ويقتل قومار بن سايووِب". فتبكي مامه، ويرى مارجيو في تلك الكلمات خلاصة رغبته الجارفة في قتل أبيه.

ولّما كبر بطن نوريني وانتفخ كثيرًا، منع عنها مارجيو المزيد من العمل. فلم يدعها تذهب إلى بيت أنور السادات أو تقوم بأيٍّ من شغل البيت. ظلّ يخزيه أنّ أمّه تعرّت لرجل آخر غير أبيه، لكنّ روح مارجيو اطمأنّت لرؤية سعادة أمّه بحملها. كان يراعي البيت ويطبخ الطعام. وفي ذلك الوقت كان الأخوان قد أكملا الدراسة الثانوية؛ فكان بوسع مارجيو أن يلزم البيت لحماية أمّه من أبيه، ونادرًا ما كان يخرج مع أصدقائه. قومار نفسه بدأ يجد بعض سلام النفس في الرضا بقدر حياته البائس. لم يعد يبالي بالمرأة التي تحمل من الحرام جنينًا في بيته، واعتاد أن يقضي مزيدًا من الوقت في غرفته. وفيما بعد عوّد نفسه أن يرجع إلى البيت في آخر ساعات الليل ويخرج في أولى ساعات الصباح فلا يدري

أحد أين يقضي وقته. لعلَّه كان يقضي مزيدًا من الوقت في الحلاقة، أو لعلَّه انصرف عن عمله تمامًا وصار يكمن في أيِّ مكان. ومهما يكن أمره، تجاهلته أسرته، ولم تكترث قط بما كان من شأنه. كانوا سعداء ببعده عن أبصارهم، ويرجون أن يجد في نفسه من الحكمة ما يجعله يرحل إلى الأبد؛ فمن يترك زوجته للضلال لا ينبغي أن يظهر وجهه في بيته.

لمَّا توقَّفت نوريني عن الذهاب إلى بيت أنور السادات، سألت عنها كاسيا وعرفت بأمر حملها. فانتظمت بعد ذلك في زيارتها وتفقُّد صحَّتها. أقلقتها الكدمات، وكثيرًا ما كانت تأتيها بالموز واللبن، وكلاهما يفيد الحوامل. وكثيرًا ما كانت تشعر نوريني بالحرج أمام اهتمام القابلة. لم تكن كاسيا تعلم أنَّ الجنين الذي ينعم بخدماتها إنَّما هو ابن خيانة زوجها وفسقه. كان حضور كاسيا شاقًّا، ولكنها كلَّما كانت تودِّع نوريني، كانت تبهج روح الأم بتقرير عن صحة الجنين، فيختلط رضا نوريني بالشفقة.

في الشهر السابع، حمَّمت مامه أمَّها بالماء وبتلات الزهور. ولم تكن الزهور مقطوفة من الدغل المنزلي؛ إذ كانت مامه لم تزل على قناعة بأنَّ أمَّها لم تعرف البهجة إلا في ذلك الجنون النباتي. فاشترت الزهور من امرأة عجوز في السوق، وزادت عبقها بإضافة زيت عطري عليها.

وفيما كانت نوريني تنعم بعبق الزهور القوي، كان مارجيو نائمًا في كشك الحراسة، متكوِّرًا على نفسه بجوار أجونج يودا، سكران من

عرق الأرز، مضى مارجيو يهذي "أمي حامل، وسيأتي إلى البيت ولد آخر يأكله الإهمال". وغلبه النوم بدون غطاء برغم هواء الليل اللاسع. اشتدَّ هبوب الرياح وهو نائم، منهالةً على مزارع الكاكاو المنهارة وهي تعصف آتية من البحر، لكن مارجيو بقي طريحًا على الحصيرة غافلاً عن كلِّ ما يجري. ولمَّا استيقظ، كان جعفر، الجار المسؤول عن النوبة الصباحية، يتكلَّم. صوته كان ينمُّ عن أمر طارئ، لكن مارجيو كان مهزوزًا نصف سكران فلم يستوعب كلامه. كرَّر جعفر الكلام "أمُّك توشك أن تلد". وكان على مارجيو أن يُحضر كاسيا لتساعدها في الولادة.

خرج مارجيو مترنِّحًا بدون أن يفوه بكلمة. سلك طريقًا مختصرًا يدور حول المسجد فإذا به أمام بيت أنور السادات، محاولاً أن يستجمع ذهنه. كان مصباح السقيفة يضيء المنزل المعتم، ومصابيح أصغر منه تسرِّب أضواءها من شقوق الباب ومن خلال الستائر المسدلة. كانت ليلة برد لعين ومن المؤكَّد أن يكون أهل البيت كلُّهم نائمين، لكن لا بدَّ أن يعتني بأمِّه أحد. سار إلى الباب، وهو يهزُّ رأسه كي يفيق، وطرقه. لم يجبه سوى الصمت. عاود الطرق، بمزيد من القوَّة.

هنالك سمع صوت شخص يتحرَّك، فتوقف مارجيو عن الطرق. انفتح باب غرفة النوم الأمامية، ليملأ بالنور صالة البيت، ثمَّ أزيحت ستارة. من وراء زجاج الشباك رأى وجه ليلى. لم تكد الفتاة تعرف مَن بالباب حتى فتحت له. كانت ترتدي قميص نوم جعل مارجيو يحاول ألا ينظر إليها. تشمَّمت رائحة العرق في أنفاس مارجيو، فسألته:

"ما الأمر؟ أنت سكران، وتطرق باب بيت آخر".

قال مارجيو: "لا، أمّي توشك أن تلد الآن".

لوهلة حملقت فيه ليلى، وهي لا تدري بأيِّ هذيان سكارى يتكلّم مارجيو. ثمّ تركته وتركت الباب مفتوحًا ومضت تبحث عن كاسيا. وقف مارجيو يتململ في السقيفة، وينفخ راحتيه ليشمّ رائحة أنفاسه ثمّ يسعل محاولاً طرد رائحة العرق من فمه.

جاءت كاسيا ومعها لفائف قماش وما يشبه صندوق معدّات جعلت مارجيو يحمله عنها. وبدون أن تُكثر من الكلام، مضت مسرعة، ومارجيو في عقبها. برغم تقدُّم سنِّها، كانت تسير بإيقاع منتظم. أغلب أطفال القرية جاؤوا إلى الدنيا على يديها، ولو كان مارجيو ومامه وُلدا في القرية لكانت كاسيا هي أوّل من لمس بدنيهما.

كانت مامه وزوجة جعفر واقفتين بجوار نوريني المستلقية على الحشيّة تئنّ. لم يكن قومار في البيت، ولم يكن ذلك غريبًا. كان قد دأب على ألاّ تُرجعه إلى البيت إلا الضرورة، كأنْ يتمكّنَ منه التعب أو يغلبه الجوع. "الوغد". كذلك غمغم مارجيو حينما تبيّن غياب أبيه. سمعت كاسيا ما قاله فوبّخته بحدّة. لم يكن المقام يسمح مطلقًا بأيِّ بذاءة. وأضافت أنّ فُحش الكلام خطر على الوليد. تراجع مارجيو إلى كرسيٍّ خشبيٍّ في الصالة في حين انتظرت مامه وزوجة جعفر بجوار باب غرفة النوم إذا ما احتاجت كاسيا إلى شيء أو طلبت منهما مساعدة.

كانت ثلاثة أيّام فقط قد مرّت منذ أن حمّمت مامه أمّها بالماء وبتلات الزهور. لقد بكّر الطفل في قدومه، وبرغم أنّه ربما كان لا يزال على قيد الحياة، فقد كان خيرًا له لو تريّث قليلاً. انتظر مارجيو في توتُّر كمن ينتظر ابنه. وجد في جيبه بعض سجائر القرنفل فمضى يشعل سيجارة من سيجارة طوال تلك الدقائق المحتدمة، منصتًا إلى صوت كاسيا وهي تواسي نوريني وتشجّعها، وصوت أنّات أمّه وهي تحاول دفع الوليد إلى الدنيا.

عند قرابة الثالثة صباحًا، وبينما كان مارجيو يراقب الساعة نافد الصبر، علت صرخات الطفل. فكّر مارجيو أن ذلك الطفل لا يمكن أن يحبّ قومار، ورمى بأصابعه السيجارة في المنفضة. ودّ لو يُلقي نظرة على الطفل برغم خوفه. كان لا يزال على يقين من أنّه سوف يكون بنتًا. لم تكن مامه وزوجة جعفر قد تحرّكتا من موقعهما لدى الباب، ولا كان وقت دخول الغرفة قد حان بعد. فكاسيا لم تنادِهم، وإن كانت صرخات الطفل تشق عتمة الليل. ثمّ خرجت كاسيا حاملة لفائف القماش، والملاءة، والبطّانية الغارقة في الدم، ومضت بذلك كلّه إلى الحمّام. حملت مامه كومة أخرى، وعلقت في الهواء رائحة كريهة.

ظهرت كاسيا عند الباب، متخلّصة من قفازها المطّاطي في كيس بلاستيكي أعطته لمامه كي ترميه ونبّهت مارجيو أن يُحسن دفن الكومة الأخرى التي كانت تحملها مامه. وقف مارجيو، متأهّبًا للتنفيذ، لولا أنْ أوقفه عن دخول الغرفة مشهد رآه بالداخل.

أمُّه مستلقية والطفل يلاصقها في قماطه وقد توقَّف عن البكاء، منهمكًا في رضاعة ثديها. كان مشهدًا مفعمًا بالمشاعر، في النور الخافت الذي ينسرب دائمًا من بيت الجيران عبر شبكة متداخلة من الأسلاك المتدلية من سطحهم. كانت نوريني تنظر ممعنةً في وجه الطفل، ممسِّدةً شعره بيدها الرقيقة.

غمغم مارجيو لأبيه الغائب "انظر يا قومار إلى وجهها وقد حلَّت عليه لعنة السعادة".



خمسة

أسفل شعاع خافت من مصباح بائع الفول السوداني، بدت جميلةً جمالَ فتاةٍ مرسومة على زهريَّة من الخزف الصيني. شعرها الغزير ينسدل مسترسلاً خفيفًا، يحرِّكه أوهن الهواء ويتراقص لأقلّ حركة منها. طولها يقترب من مئة وستين سنتيمتر، ونحيلة مثل لقلق. جسمها نباتيّ، وبهجة وجهها تزداد غواية بشفتين تمطِّهما في كلّ كلمة تفوه بها. وكان لها نصيب عظيم من اسمها، مهراني، ملكة الملكات، كان بوسعها أن تغزو مَن تشاء. حين أمسكت يد مارجيو وشدَّت عليها، ارتجف قاهر الخنازير وارتدَّ من جديدٍ تلميذاً في المدرسة معقود اللسان.

كان الناس يتوافدون على عرض الفيلم القائم في منتصف ملعب كرة القدم، بينما قبعت في الجهة الأخرى شاحنة نقل تابعة لشركة الأدوية العشبية. مضى رجل يتكلّم في مكبِّر صوت عن خصائص أدوية الشركة، بينما ينتظر الحضور في شغف بداية عرض الفيلم. تجمَّع بعض أهل القرية حول الشاحنة، بغواية من الجوائز ـ وهي مظلاّت ومراوح يدوية وساعات حائط وأقيمها جميعًا جهاز تليفزيون بحجم سبع عشرة

بوصة- لشراء الأدوية القادرة على تقوية القدرة الجنسية لدى الرجال، وتضييق فروج النساء، والمساعدة على الحمية، وفتح الشهيَّة، ومعالجة التهابات المعدة، والتغلُّب على الإجهاد، وغير ذلك.

وقف مارجيو وأصدقاؤه وراء بائع الفول السوداني. وبعد شهور في الجامعة، كانت مهراني قد أصبحت فتاةَ مدينةٍ بحقّ، وإن بدا أنّها لم تجد ولدًا يعجبها أكثر ممّا يعجبها مارجيو. فكانت دائمًا ترجع من أجله. مرتديةً سترة صفراء محبوكة تصدُّ بها البرد، وبنطالاً فضفاضا من الجينز، وشبشبًا، ممسكة يد مارجيو، أخفت نفسها في ذراعه في خفر، وقبَّلت زنده.

لم يكن أحدهما قد أمسك من قبل يد الآخر بتلك الطريقة، فافتُتن مارجيو بجسارة الفتاة. جعلته يرتبك ويستسلم. لم يعد بوسعه أن يلتفت إلى الوجه الذي كان يعشقه عشقًا، فحملق . بدلاً منه . في وجوه الناس الغائمة وهم ذاهبون وراجعون كأنّهم ظلال عابرة على شاشة. كان يريد بشدَّة أن ينضمَّ إليهم، ولكن جلد ذراعه كان يحمل ذكرى قبلة الفتاة التي عاثت بعقله. تقاطر العرق على مؤخّرة رقبته. كان قد ذهب مرَّة إلى ماخور مع مجموعة من أصحابه، ولمّا حان دوره ليعتلي المرأة الشهوانية متوسطة العمر فوق السرير، أخذ يرتجف بعنف، رجفة الرهبة لا الإثارة. إحساسه الآن يفوق الذعر الذي انتابه آنذاك فلم يتجاوزه إلا ببراعة المومس وتحسُّسها له إلى أن تصلَّبت رغبته. هو الآن في عرض مساعدة من أيِّ أحد. كان يرجو أن تحرِّره الفتاة من هذا الوضع الغريب، وجاءه العون حينما ازدادت شدًّا على يده، التفت مارجيو

وبادلها النظر، فرأى ألق وجهها، تشرّبه كلّه دفعة واحدة، أنفها النحيل، ورموشها المقوّسة، وشفتيها المنفرجتين.

قالت: "أتعرف أنّي أحبُك"؟.

لو لم تكن ابنة أنور السادات، وصغرى أختيها ليلى ومايسا ديوي، ربما كان مارجيو ليزداد ذهولاً حين سمعها تقول ذلك. حاول الصبي المهتاج ألاّ يُحزنها، فأطرق بغتة واعتصر يدها مثلما تعتصر يده. بدا أنّ ذلك قد أسعد مهراني وأمهل مارجيو الوقت كي يلتفت من جديد إلى الشاشة الخاوية مشاهدًا الظلال بعينين فارغتين.

لم تكن العلاقة بينهما قط بمثل ذلك التوتر، برغم السنوات الكثيرة التي عرف فيها أحدهما الآخر. في تلك الليلة التي اصطحبها فيها مارجيو تحت المطر في حِمى مظلّته، كانا لا يزالان طفلين، لكن حتى في ذلك الحين شعرا بشيء غريب يتنامى بينهما. فكّر أنّ البنت أقرب ما تكون إلى الجمال الطاهر، إلى شخص جالس على الأريكة يشاهد التليفزيون مع أسرة لا تعرف العنف، في حماية بيتها ودفئه. في حين كان هو جالسًا في السقيفة على مقعد من ساق شجرة جوز هند، متلصّصًا على التليفزيون الذي تشاهده هي لكن عبر زجاج الشباك، بدون أن يحميه أيُّ شيء من عناصر الطبيعة. كان جدار يفصل بينهما، حتى لو أنّه من زجاج شفّاف ينبغي أن يسمح لهما أن يتبادلا النظر ويسرّ أحدهما إلى الآخر بما في نفسه، لولا أنّه لم يكن قابلاً للنفاذ. في الليلة التي وجد نفسه يسير وإيّاها تحت نسيج المظلّة التي يطرقها المطر، تماسّ كتفاهما،

ورأى قربهما ذلك فحشًا لا يغتفر. ولم يشعر بالارتياح معها في تلك الليلة، وحتى بعد كلّ تلك السنين.

أحبَّ مارجيو الفتاة لما لها من جمال طبيعي، جمال هو أمثل جمال في الدنيا. أحبَّها لمحاولتها تقريب المسافة بينهما. لم يستطع الفتى أن يتذكّر الليلة الأولى التي سيطر فيها وجه الفتاة الساحر على خياله. كان يزداد شعورًا بشقائه أمام الهوة التي تفرّق بينهما. بالنسبة له كان الحبُّ الذي نشأ فجأة وهمًا بارقًا أعجب من أن يكون حقيقيًا. في المقابل كانت مهراني تحبُّه منذ زمن لا يمكن أن تتذكّره، وكانت تبذل الجهد وتبذله لتنفذ إلى روحه عسى أن تعرف إن كان أحدهما حقًّا يخصُّ الآخر.

في تلك الليلة المطيرة لم يكونا أكثر من طفلين يتصادقان. كانا في عمر واحد، ثمّ وجدا نفسيهما بعد ذلك في مدرسة واحدة مواجهة لملعب كرة القدم في مبنى قائم منذ أن كان المستعمرون الهولنديون يجوبون البلد، وليس ببعيد عن الزمن الذي وصل فيه غارزو الأوتاد الحدودية إلى موقع القرية. كان مارجيو يسير إلى بيت مهراني في الصباح فيجدها في انتظاره، ويعبر الولدان ملعب كرة القدم في زيّهما المدرسي وهما يثرثران عن أصدقائهما. ربما في مثل تلك الأوقات كانت الآلهة تحوم فوقهما، عازفة في شغف أوتار الحب. كان يمكن أن تنقطع تلك الأوتار، لكنّها في حالة مارجيو ومهراني كانت تزداد متانة، إلى أن حلم الصغيران بأن يكونا معًا، بأن يتشارك أحدهما في الآخر ويملكه. ولمّا كان يحين وقت الرجوع إلى البيت كانت مهراني تنتظر عند بوابة المدرسة، ويتأهّب مارجيو للسير معها جنبًا إلى جنب عابرَين عشب الملعب نفسه.

كانت الأوتار تنفكُّ وتنعقد في غموض، نافخةً في كليهما الروح، وكان مارجيو يقضي اليوم تلو اليوم في بيت أنور السادات. فحينما كان يحتاج إلى عون بدني، يعامل أنور الولد معاملة ابن له. وكان الرجل صادقًا في مشاعره تلك بسبب حُسن أخلاق مارجيو. بدا أنّ أنور أخذ يرتاب في غرام صغرى بناته بمارجيو، ولم يكن لرجل أن يبالي أقلّ مما كان السادات يبالي بطبيعة الشخص الذي اختارته ابنته، بعد كلّ الوقائع المضجرة التي شهدتها حياة ابنتيه الأخريين ليلى ومايسا ديوي.

في الوقت نفسه كانت مهراني تجلس على الأريكة بجوار مارجيو يشاهدان برامج التليفزيون في فترة العصر، فكان بوسع كلّ مَن يراهما أن يرى فيهما حبيبين متناغمين، وُلدا ليقترن أحدهما بالآخر. ولمّا كان سلوكهما ذلك مسموحًا به، فقد بات مارجيو مولعًا ببيت أنور أكثر من بيته. كان يستمتع بأكل أكياس رقائق البطاطس برفقة مهراني، ولكنّ إحساس الغرابة العميق بداخله لم يتلاشَ قطّ. فكان دائم التذكير لنفسه بأنّ هذه الحميمية زائلة، وأنّها بهجة عابرة، وأنّ مهراني سوف تعثر على رجل آخر وتقع في غرامه، وسرعان ما تنسى الولد المدعوّ مارجيو. وتأهّب الولد دومًا لليوم الذي لن يعدو اسم مهراني فيه أن يكون ذكرى جميلة.

حينما بعث أنور السادات الفتاة إلى الجامعة في الشرق، قال مارجيو لنفسه إنّ هذه هي الحرية. كان خيرًا له أن يراها وهي تُعرض عنه وتختار رجلاً غيره من أن يحتمل طيلة الوقت عذاب إمكانية الحصول عليها. كان على يقين من أنّ الجامعة سوف يكون فيها حشود من

الأولاد، وأغلبهم أبناء كلب أذكياء، وليس بينهم من سيغفل عن وصول فتاة جميلة. سيتنافسون عليها، وبمرور الوقت سوف تقع مهراني. كان مارجيو ممتلئًا بأمله المقبض ذلك حينما رآها وهي راحلة، وهو الذي كان يحمل حقائبها، بينما كان أنور السادات خارجًا معها إلى حيث تقف الحافلة أمام البيت منتظرةً بجوار نخيل الزيت. رفع مارجيو الحقائب الثقيلة إلى خزانة الحافلة بينما كانت مهراني تقبِّل يدي أمِّها، ثُمَّ ليلى ومايسا ديوي، قبل أن تقف أمامه وتطلب منه على غير انتظار أن يمدَّ يده. مدَّ مارجيو يده فقبَّلتها، وغاص بطنه بداخله. ولكنّ ذلك لا يقارن بما حدث له إذ أمسكت ذراعه فجأة واعتصرته، لا في وداع، بل في لمسة حبٍّ، في تلك الليلة التي نظَّمت فيها شركة الأدوية العشبية عرض الفيلم في ملعب كرة القدم.

ولكن رحيلها لم يحرِّر مارجيو. فكلَّما كانت مهراني تحصل على إجازة كانت ترجع إلى البيت، راجية أن يكون مارجيو هناك، راجية أن تناله لنفسها. وبدلاً من انفكاك الأوتار، اشتدَّت عليهما فأحكمت وثاقهما أكثر من ذي قبل. وفي لقاءاتهما البسيطة الشبيهة بالمواعيد الغرامية، كانت مهراني تقصُّ عليه كلَّ ما رأته في الجامعة، جاعلةً كلَّ تلك الحكايات وكأنَّها حكايات مارجيو أيضًا. وحتى ذلك الحين لم تكن مهراني قد اعتادت بعد إمساك يده وهما يسيران، برغم أنَّ كل من يعرفانهم كانوا يتكلمون عن الحبيبين الصغيرين. وقد كان حالها مثلما وصفته زوجة الرائد سِدْرَه: "تلك البنت مجنونة بمارجيو".

الآن في ليلة عرض فيلم شركة الأدوية العشبية، كانت مهراني لا تقوى على التأكُّد ممَّا لو أنَّ مارجيو يعلم أنَّ حبَّها له مغروز الجذور في جسمها، وكان واضحًا لمارجيو أنَّ الفتاة ملك له، برغم أنَّ إحساسه بالتشتُّت وبعدم الارتياح كان لا يزال يقيِّده. وبقيت مهراني ذات الجمال الطاهر.

ابتعدا عن بائع الفول السوداني وسارا إلى الربوة العشبية التي كان الناس يجلسون عليها في أثناء مباريات كرة القدم تحت ظلّ شجرة اللوز الاستوائية الكثيف. جلسا متقاربين حتى صار بوسع مارجيو أن يشمَّ عبقها، ويضربه شعرها كلَّما هبَّت ريح فعصفت به عصفًا شيطانيًّا. كان لم يزل غير مصدِّق أنَّها اعترفت له بحبِّها، وأكَّدت له أنَّ ذلك الوجه البيضاوي الذي لم يزل يتوهَّج في العتمة، قد يكون ملكًا له، أنَّ تلك التحفة قد تكون له. كان مذهولاً. تناولت مهراني يده، ورفعتها، ومضت تتحسَّس بها جسمها. كان هو الآخر يمسك الفتاة مسكة خرقاء، لا يدري أيشدُّ عليها، ويلامس جلد معصمه بجلد معصمها العاري، أم يمسك سترتها وحسب. أطرقت برأسها، ولفَّت ذراعها على مارجيو، ليزداد أحدهما قربًا من الآخر، وتتناغم أنفاسهما في إيقاع واحد. وخطرت لهما في وقت واحد فكرة واحدة، بينما كانت الآلهة تدندن أعلى رأسيهما، فكرة أنَّ هذا هو الإحساس بالامتلاك.

تحتهما في الملعب، كان قد بدأ ما يشبه الشجار. أخذ الناس يتصايحون. فالليل ازداد عتمة، والحاضرون ضجروا من شراء الأدوية. كانوا يريدون الجوائز. اعتذر البائع الفصيح الذي كان يتعامل في

الأدوية وكأنّها منتجات شركته. قائلاً إنّ لديه مشترين آخرين يريدون الشراء، وإنّه حتى الآن لم يفُزْ أحد بالتليفزيون. والحق أنّ التليفزيون كان موجودًا للعرض فقط ولن يفوز به أحد، ولكنّه كان مصدر جاذبية تفوق كثيرًا لسان الرجل الطلق من وراء مكبّر الصوت. وبعد أن انتهت آخر المعاملات، أغلق باب الشاحنة لكي لا يفتحه بعد ذلك إلا عند تغيير بكرة الفيلم. وبدأ ضوء جهاز العرض يسقط على الشاشة التي كانت تهتزُّ اهتزازًا خفيفًا بسبب الهواء، بينما انطلق الناس يصفّقون أو يصفّرون.

كان فيلمًا كلاسيكيًّا مشهورًا بمشاهد القبلات، هو سيتاكو دي كامبوس بيرو.

لم يلتفت إليه مارجيو ومهراني كثيرًا، وليس ذلك فقط لأنّ الشاشة كانت شديدة البعد والصوت غائبًا في أصوات الجمهور المهتاجة؛ بل كانا منهمكَين في التواصل بين جسميهما المستند أحدهما إلى الآخر، يتبادلان الدفء بينما يتكاثف حولهما الهواء. بدا أنّ تلك الليلة سوف تشهد مطرًا غزيرًا. وكان مارجيو يشعر بالدم يجري في جسم مهراني بسرعة تزداد وتزداد، تمامًا كشأنه في عروقه.

تحرّكت مهراني قليلاً ونظرت إلى لحية مارجيو النابتة. ثبّتت عينيها عليه، وكأنّها ترى شيئًا يتحرّك على وجهه. حابسًا أنفاسه، أدرك أنّ الوقت قد حان لأن يتصرّف كما يليق برجل وعاشق. بادلها نظرتها المتسائلة، وقد اقترب وجه أحدهما من الآخر، فهما يتنفسان هواءً

واحدًا، ويشعر أحدهما بأنفاس الآخر على وجهه، بينما يتحرَّك صدراهما في تناغم. أعتمت عينا الفتاة. المكسوَّتان برموشها الثقيلة. إذ انبعث النور من أعمدة الشارع والقمر المحجوب بالغيوم، ونظرت إليه نظرة شوق، فعلم مارجيو ما تريده، ولم يعلم ماذا عليه أن يفعل.

غضبت الفتاة من غبائه. مهراني كانت تصطاد، ومارجيو محاصر تقريبًا، لكنَّه أراد أن يحفظ كرامته فانتظر شفتي الفتاة أن تبادرا إلى لمس شفتيه. لم يكن أيٌّ منهما يدري كيف تكون البداية، لكنَّهما ضغطا بالفم على الفم، متبادلَين الدفء والنعومة من التقاء اللسان باللسان.

وتوقفا فجأة، وقد انتبها إلى أنَّهما مكشوفان تمامًا في ملعب كرة القدم، وإن لم يكن أحد يرقبهما، وحلق أحدهما في الآخر. لمعت عينا الفتاة، وبدا الحزن على وجه مارجيو. قال في كدر: "هناك ما لا تعرفينه"، ولم تسمع كلماته الخافتة. تصاعد بداخله الألم حينما خطر له أنَّه برغم هذه الحميمية الجديدة بينه وبينها، فهو لا يقدر أن يُطلعها على أعمق أوجاعه. بدأت مهراني تشعر بعدم الارتياح. انفصل عنها، فاستقلت بجلستها، لم تعد مستندة إلى كتفه. تزايد الألم على مارجيو، وخشي أن يفقد الفتاة التي يعبدها. نظرت إليه مهراني نظرة حيرة، لم تترجم إلا حينما فتحت فمها:

"ألا تحبُّني"؟.

طعنه السؤال. طبعًا يحبُّها، أكثر مما يحب الجنَّة أو الأرض. كان يعبد مهراني، كان يريدها، ولكن تقيِّده فكرة أنَّه لا يستحقُّها.

همس "أنا متوتِّر".

حرَّره قوله ذلك لوهلة. بدا أنَّ الفكرة تروق لمهراني. "أنا متوتِّر". كان قلقه مشوبًا برومنتيكية. وفي النهاية، طبيعيٌّ أن يشعرا بالتوتُّر. هي الأخرى كانت كذلك، وهما معًا قادران أن يتواءما مع ما يواجههما فيزدادان ثقة. وفيما هما جالسان هناك، عادت مهراني تذوب فيه من جديد، وعاوده اضطرابه. لقد كذب بشأن توتُّره؛ إذ كان للمشكلة وجه مختلف هو الذي يمنعه من معانقة حبيبته الملتهبة، ويجعله يلمن عجزه عن أن يصدِّقها.

رجعت مهراني إلى البيت في اليوم التالي لرجوع مارجيو، فلعلَّها سمعت بوفاة قومار بن سايبوبِ. قالت إنَّ لديها إجازة. وصدَّقها مارجيو، إجازة أو لا إجازة، المهم أنَّ الفتاة رجعت لتواسيه، وتزيل حزنه. طبعًا، أساءت فهم الموقف. فمارجيو لم يكن حزينًا على الإطلاق.

كانت مهراني تزور بيته كلَّ يوم، ففي بعض الأحيان تأكل مع الأسرة، وكان حضورها يحيي ذكريات مارجيو حينما كان يأكل في بيت أنور السادات. تقاربا، وتأكَّد ما بينهما من انجذاب قديم. وفي يوم طلبت منه مهراني أن يصطحبها إلى قبر قومار وقد أساءت فهم مشاعره. ولكنَّ مارجيو رفض رفضًا حاسمًا. ومضت مهراني تتذكَّر الحكايات التي كان الناس يتحاكون بها عن قسوة قومار. كانت قد رأت بعينيها كيف كان يضرب مارجيو الصغير بعصا تجفيف الثياب. واستشعرت للمرَّة الأولى

ما وراء مارجيو من تاريخ طويل مع الألم، وأرادت أن تحبَّه وتكون له بلسمًا وسلوى.

كان مارجيو قد رحل ولم يمضِ وقت طويل على وفاة ماريان؛ كي لا يقتل قومار -وكانت بداخله- مثلما قال لمامه نمرة، ولم يكن يعرف بعد كيف يسيطر عليها. رحل مع عارضي السيرك، مقتفيًا إيَّاهم إلى بلدة على مسيرة ساعة بالسيارة. وكان قد أقنع مدير السيرك أن يكلِّفه بأي عمل يتراءى له، كإطعام الفيَلة والخيول. ألقى مدير السيرك نظرة واحدة على بنيانه القوي وعينيه النافذتين وحقَّق له ما أراد، وأثبت الولد مقدرته على بذل الهمَّة في العديد من المهام. كان غرض مارجيو الأساسي أن يرى كيف يروِّض المدرِّبون نمورهم، ويتلصَّص على جلسات التدريب، ويعرف أولئك الناس طوال أسبوعين من الزمن. فلمَّا انتهت العروض وأوشكت فرقة السيرك أن تتجه إلى بلدات تمتد على طول الطريق باتجاه الغرب. رأى مارجيو أنْ مهمته منذورة بالفشل، وأنَّ نمور السيرك مختلفة عن النَّمرة التي بداخله.

حصل على ماله المستحق عن عمله طوال أسبوعين وودَّع السيرك. بقي في مكانه رغبةً في تحديث ما لديه من أخبار عن البيت. لم يستطع أن يقتلع جذوره تمامًا، وإن سيطر أبوه على ذكرياته عن البلدة. كان يفتقد أمَّه ومامه، وبين الحين والآخر كان وجه مهراني الجميل يطفو أمام عين عقله، شأن وجوه أصحابه وإن كانت الأخيرة أقلَّ حضورًا، وكانت تعاوده صور وجه كشك آجوس سفيان والمسجد وكشك الحراسة، فلم يستطع أن يتخلَّص منها جميعًا. هكذا بقي حيثما

هو، وقد طلب من سائقي الحافلات ومساعديهم ألاّ يخبروا أحدًا قطّ بمكانه، متقصيًا من الأخبار ما استطاعوا أن يجلبوه إليه.

إلى أن أخبره سائق حافلة في عصر أحد الأيّام بموت أبيه، وبأنّ جثمانه بدأ يتعفّن.

استقلّ تلك الحافلة، جالسًا بجوار شبّاك مفتوح، تاركًا لنسيم البحر الجارف العابر بصفوف شجر الباندانس أن يلطم وجهه. وفي أثناء تلك الرحلة كان عقله يهيم متصوّرًا جثة أبيه الآخذة في التعفّن عند قدميه. لم يكن في نظر مارجيو من معجزة تعلو على سماعه خبر وفاة قومار بن سايبووِب بدون أن يضطرّ هو إلى نحر عنقه.

نزل من الحافلة في اللحظة التي وصلت فيها شاحنة رفاقه صيّادي الخنازير، وتسارع خفقان قلبه لحظة أدرك أنّه أضاع على نفسه رحلة صيد مثيرة. قفزت من الشاحنة عشرات من كلاب الأياك في أرسانها، يقودها على الرصيف مَن يتّجه بها إلى بيت الرائد سِذْرَه على جانب من الطريق مجاور للمقرّ العسكري. كان خنزيران بدينان فارغا الأعين مقيَّدا السيقان يتدلّيان من عيدان بامبو معلّقة على أكتاف أربعة أولاد. خطر له أنّ كلاب الأياك سوف تسعد يوم تحين مصارعة الخنازير، وحينما يُذبح الخنزيران سوف يقيم آكلو الخنازير وليمة في المطاعم الصينية عند الشطّ. تشمّم نتن الوحل المألوف. ولوّح ببساطة لأصدقائه مؤثرًا الرائد سِذْرَه بتحية خاصّة، فلم يكن قومار بن سايبووِب قد دُفن بعد، ولم يكن يليق به الاختلاط بالرفاق أكثر ممّا ينبغي.

ولما تبيَّن أن قومار بن سايووِب سوف يُدفن بجوار ماريان لم ترقَ له الفكرة. أكَّدت مامه أنَّ تلك كانت رغبة أبيهما الأخيرة مهما تكن قيمة تلك الرغبة. ولَّما تبيَّن له أنها جادَّة في ما تقول، استسلم وترك القدر يمضي في سبيله الذي ارتآه. سوف تجد الصغيرة ماريان طريقتها للثأر مهما يكن الموضع الذي يرقد فيه الشيخ، فيُذبح قومار بن سايووِب كلَّ يوم في الجحيم طول أبديَّته. توجَّه إلى المسجد وقد نقل إليه جثمان قومار وشارك في الصلاة على الميّت. ولَّما سأله الشيخ جاهرو إن كان يريد رؤية وجه قومار، هزَّ مارجيو رأسه على الفور خشية أن ينهض أبوه من موته إن هو وافق.

قبل أن يُرفع النعش على الأكتاف، تلقَّى مارجيو من مامه سلَّة بتلات الزهور. تساءل أيّ الزهور يناسب ذلك الوحش المتعفّن. لكنّه مرَّة أخرى رأى عيني مامه الضارعتين ترجوانه أن ينثر البتلات على النعش بدلاً من أن يرميها في قناة المجاري. خطر لمارجيو أنَّ مامه قد تكون الأسلم عقلاً بينهم جميعًا، وأنَّ قلبها صلب خالٍ من الكراهية، ولَّما نظر إلى وجهها، أغرقه فيضان من الذكريات المريرة والعذبة من طفولتهما معًا. ربما يعيشان سعيدين وقد انتهى والدهما إلى الجحيم.

تلا الشيخ جاهرو الصلوات، وسار في الجنازة بعض الصبية الموحلين الراجعين في الشاحنة، ماضين جميعًا وراء النعش. كان مارجيو يسير وراء النعش وبين الحين والآخر ينثر فوقه ملء يد من بتلات الزهور. وبرغم البتلات الملوَّنة كان الجو يزداد كآبة وإن علت أصوات الناس في ترتيلهم مديح النبي. كانوا يسيرون صفوفًا وسط مزرعة

الكاكاو اليابسة، متجهين إلى مقابر بودي دارما تحت أشعة شمس الغروب التي كانت تصبغ بالحمرة كلّ ما تحتها. كانت النَّمرة تتملّص بداخل مارجيو فيهمس لها في خفوت: "ها قد مات الرجل، فاستريحي أرجوكِ". وظلّ يغترف البتلات ويرميها في الهواء، وفي هذه المرَّة كانت ترفرف كأنّها عازفة عن السقوط، كأنّها التقطت من راميها بعض مشاعره، إلى أن حطّت أخيرًا على الطريق الرملي لتدهسها الأقدام.

كان التُّربيُّ منتظرًا في صمت، ساندًا ذقنه إلى يد المجرفة، نافثًا دخان سيجارة لفّها بيده. كانت مامه على حقّ؛ فالمقبرة فاغرة فمها بجوار مقبرة ماريان. تذكَّر مارجيو يوم دفنها وغرزه شاهدة قبرها فوق مثواها الأخير الذي استقبل جسمها الصغير. وقف بجوار مقبرتها، ينثر عليها حفنة من البتلات، وغلبته انفجارةً من مشاعره فجأة فجعلته على شفا البكاء.

أنزلوا النعش ورفعوا غطاءه عن قومار بن سايووِب المغطَّى بكفن بدا أشبه بقماشة الحلاّق. كان الشيخ جاهرو يتلو أدعية وصلوات لا يفهمها مارجيو الذي لم يكمل قطُّ دروس حفظ القرآن وإن تعلّم قراءة الآيات العربية بدون أن يفهم معانيها. وضع السلَّة على الربوة ورفع يديه يؤمّن على أدعية الشيخ مثلما يفعل الآخرون. أنهى الشيخ جاهرو أدعيته، وأمَّن عليها المشيِّعون للمرَّة الأخيرة، ثمَّ مسحوا وجوههم بأيديهم، ونزل التُّربِيُّ إلى القبر طالبًا من مارجيو أن ينزل لمساعدته. شمّر مارجيو بنطاله، وسارع بالنزول، ووقف بجوار التُّربِيِّ مستشعرًا التربة النديَّة تحت قدميه، في الأرض التي ستكون بيت أبيه الأخير.

رفع اثنان من أصدقائه قومار من النعش، وسلّماه لمارجيو والتُّربيّ. كان الجثمان ثقيلاً بحقّ، فاحتار في ذلك مارجيو الذي رآه من قبل هرمًا وهشًا وعرف بأمر أمراضه الكثيرة. ومع ذلك كان وزن جثمانه طنًّا. استشعر ذلك صديقاه بالأعلى وارتسمت الدهشة على وجهيهما. والآن جاء دور التُّربيّ ومارجيو. اضطربا قليلاً، ولهثا يطلبان قدرًا أكبر من الهواء أعانا به نفسيهما أمام ثقل قومار حتى أنزلاه في مقبرته.

كانت الحفرة أصغر مما ينبغي فلم تتسع لطول قامة قومار. قال التُّربيُّ: "يا إلهي، لقد قستها". مارجيو أيضًا كان قد لاحظ طولها، وقدَّر أنّها بحاجة إلى زيادة تبلغ قدمًا على الأقل. بصعوبة رفعا الجثمان، فانزلق عنه الكفن قليلا، وأرجعاه إلى النعش. انتظر مارجيو في أحد جنبي القبر، بينما طلب التُّربيُّ في ضيقٍ مجرفتَه، وانطلق في العمل. أنهى المهمّة على عجل مُلقيًا تراب الحفر كيفما اتفق. كان الوقت يتقدّم والمقابر تغرق في حفرة شمس الغروب.

أنزلوا جثّة قومار مرّة أخرى، وكانت قد ازدادت ثقلاً، ولم يَدْرِ أحد كيف حدث ذلك. ولكنّ الرجال الأربعة حاملي الجثمان استشعروا التغيُّر، وكأنّما كان شيء يتورّم بداخلها. فكّر مارجيو أنّ ذلك ـ ولا شكّ ـ هو خطايا الرجل، وعبس على الفور بمجرّد أن خطرت له فكرة خطايا أبيه نفسه. ومع التُّربيّ أنزل الجثمان بغير اهتمام، مريحًا نفسه من الثقل.

مشكلة أخرى. هذه المرّة كان القبر أضيق ممّا ينبغي. هل تمدّد الجثمان أم انكمش القبر بطريقة أو بأخرى عندما أطاله التُّربيّ؟

"اللعنة"، قالها التُّربِيُّ في غضب حقيقي هذه المرَّة. "هذه الأرض لا تريده". جاهد مارجيو والرجل حتى أرجعا الجثَّة إلى النعش لنبدأ توسعة القبر، ثمَّ أنزلاه، ومرَّة أخرى كان القبر أصغر ممَّا ينبغي. حفرا أكثر، وبقي مع ذلك أضيق، كما لو كانت الحفرة تنغلق من تلقاء نفسها، رافضةً أن تبتلع الرجل.

شحب وجه التُّربِيِّ في نور المساء الشاحب وقد أضناه التعب. واحمرَّ وجه مارجيو غضبًا. ونظروا جميعًا إلى الشيخ جاهرو الواقف على الربوة الترابية يتمتم بالأدعية بصوت هامس، داعيًا الحَكَم - جلَّ جلاله - أن يقبل الجسد الذي لا يريده الأحياء أن يتعفَّن غير مدفون. وبينما كان يتمتم بصلواته، تساقط ورق الشجر واشتدَّت الريح. أغمض الشيخ وبقي يحرِّك شفتيه، ثمَّ فتح عينيه شاخصًا إلى الجسد من تحته، ثمَّ التفت إلى المشيِّعين قائلاً "ادفنوه كيفما يكون".

حشرا قومار بن سايووِب في قبره غير مكترثين بضيق المساحة، وتكوَّر الميت على نفسه رابضًا مثل كلب نائم. مارجيو نفسه أشفق عليه، وفكَّر أنَّ ذلك ربَّما هو ما يستحقُّه، وظلَّ ينظر إلى جسده الذي ربما كان قد ضوعف له الألم. سند هو والتُّربِيُّ الجسد بكتل من التراب لكي لا ينقلب. وغرزا ألواح الدعامات واحدًا بعد واحد مغطِّين الكفن الأبيض. كانت الدعامات فاصلاً قويًّا بين عالم الأحياء وعالم الموتى الذي بات قومار بن سايووِب محبوسًا فيه.

كان الظلام قد حلَّ تقريبًا حينما وارَتْه التربة الرملية الحمراء. خطا التربي برفق فوق القبر، حريصًا ألا يدكَّ التراب أكثر مِمَّا ينبغي، وذلك على سبيل الاحتياط الواجب لاحتمال أن يقوم الميت من موته، فضلاً عن تسهيله الأمر على نفسه إن وجب عليه أن يحفر القبر مرَّة أخرى. ثبَّت شاهدة القبر التي تحمل اسم الرجل واسم أبيه، ونثر حصوات صغيرة حولها. وبدافع من إحساس مفاجئ بالشفقة، غرس مارجيو شجرة الفرانجيباني عند طرف القبر، ونثر ما بقي من بتلات الزهور فانبعثت روائح الورد والياسمين واليلانج يلانج. وتُرِك قومار بن سايووِب هناك لنسائم البحر والأشباح.

مع سكون الهواء، رجعوا حاملين النعش الخاوي قاطعين الطريق إلى البيت مسرعين الخطى. كان جبين مارجيو يتصبَّب عرقًا، ولكنَّه لم يكن متعبًا، وقد بدأت روحه تنتعش. ومرَّة بعد الأخرى كان يقول لنفسه: "فكِّري في الأمر، لقد مات الوحش، وصار لنا الآن أن نقرِّر كيف نعيش حياتنا".

في البيت، قالت له مامه إنَّ أمَّهما صفعتها، وتساءل مارجيو إن كان قومار بن سايووِب قد أورث نوريني قسوته. ولَمَّا سمع التفاصيل من مامه، لم يملك إلاَّ أن يكتم ضحكته. كان اقتراح مامه سديدًا، قد يكون خيرًا لها أن تتزوَّج مرَّة أخرى؛ فهي لم تزل شابَّة. كم عمرها؟ فكَّر مارجيو أنَّها لم تبلغ الأربعين، ولا يزال مبكِّرًا أن تركن ركنة الأرملة. سيدعم أيَّ رجل يرغب في اتخاذها زوجة، بشرط ألاَّ يكون مثل قومار ويتعهَّد بألاَّ يقسو عليها مهما كان. سيفعل مارجيو أيَّ شيء من شأنه

أن يجلب لنوريني سلام النفس، ففكّر. مثلما فكّرت مامه بالضبط. أن يسمح لنوريني بالزواج. ولكن، لم يكن يليق فعلاً أن يقال ذلك في اليوم الذي دُفن فيه زوجها. ومهما تكن كراهية نوريني لقومار، فإنّ فم البنت الوقح هو الذي طلب تلك الصفعة. قال مارجيو لمامه إنّ أمّهما بمرور الوقت سوف تبرأ من جنونها وسترجع إليها نفسها الحلوة من جديد.

طلبت مامه من مارجيو أن ينحر ما بقي من دجاجات قومار، فعزف عن ذلك في أوّل الأمر لمّا لم يجدْ سببًا يجعله يقيم وجبة شعائرية لرجل الأرض نفسها رفضته. لم يخبرها بما جرى في المقابر؛ خشية أن يزيد من حزنها، ولكنّه بقي غير راغب في أن يعينها على إقامة طقس دعاء لأسفل رجل عرفه في حياته. لكنّ مامه أصرّت، مذكّرةً إيّاه بأنّ كل بني آدم بحاجة إلى صلوات، وقومار ترك وراءه بضع دجاجات وأرانب. لان مارجيو أخيرًا ونحر الرقاب واحدة تلو الأخرى فيما كانت مامه تجهّز نفسها في المطبخ.

ذكّر ذلك مارجيو بالمرّات التي كان يسرق فيها من دجاج أبيه على سبيل الانتقام الهزيل. ربّما كان قومار يعرف مَن اللصّ، ولكن مارجيو أيّامها كان قد صار شابًا في أواخر عقده الثاني، ولم يعد أبوه ليقدر أن يواجهه. أمّا مامه، فمن المؤكّد أنها كانت تعرف مَن الجاني.

نحرت الدجاجات، وجاءت مامه بدلو ماء يغلي فنقعتها فيه. وانشغلت بنتفها، بينما كان الماء على نار الموقد داخل المطبخ انتظارًا للسلق. كان الأرز جاهزًا؛ إذ يبدو أنّ مامه كانت تطبخ بينما الجميع في

مقابر بودي دارما. ظهرت نوريني في الطرقة تنظر ماذا يفعلان، في اللحظة التي علا فيها صوت ما سوما بأذان المغرب من المسجد. كان تعبير وجهها ينمُّ عن البرود. فبعد موت ماريان انكفأت على نفسها، والآن، وقد مات قومار، باتت أشدَّ انكفاءً. استدار مارجيو ملتفتًا إليها، وكلُّ ما أمكنه هو أن يتضرَّع إلى الكون أن يمنَّ عليها فتذوق شيئًا من الفرحة التي عرفتها عند ميلاد ماريان.

كانت الطفلة عليلة منذ ميلادها، جسمها كلُّه ليس أكبر من إحدى ربلتيه، ورأسها أضخم قليلاً، بخدَّين غائرين وذقن نائتة، فكانت أشبه ببعوضة لاصقة. لم يلحظ مارجيو ذلك في أوَّل الأمر إذ كانت الطفلة ملفوفة بإحكام في أقمشة حمراء تحيط بها بطَّانية توحي بأنَّها بدينة. ثمَّ جاءت مامه ذات صباح بدلو ماء فاتر وأخرجت نوريني البنت من لفائفها، فبدا كم هي بائسة. لم يعد يعلو بكاؤها قبل الفجر، بل استلقت ساكنة بعينين نصف مغمضتين.

قالت نوريني: "الظاهر أنَّها سوف تموت".

لم يكن في ثدييها لبن كثير، ويبدو أنَّ الطفلة امتصَّت في رضعتها الأولى كلَّ ما كان فيهما. جاءت كاسيا في وقت متأخر من العصر بزجاجة لبن، لكنَّ الطفلة أعرضت عنه، وأغلقت شفتيها دونه، فتقاطر اللبن على خدَّيها. كانت أنفاسها شهقات صغيرة، وكانت تبكي في بعض الأحيان بكاءً خافتًا، لكنَّها هادئة في أغلب الأحيان، وكأنَّما كان مكتوبًا لها في القدر أن تكبر فتصير بنتًا لطيفة مطيعة. جلس مارجيو في

كرسيٍّ بجوار سرير أمّه، مراقبًا ذلك الكائن الضئيل في قلق، متبادلاً النظرات هو وماما ونوريني، وقلوبهم جمعًا تتساءل إن كان ذلك الكائن سوف يرى يومًا آخر.

تنفّس مارجيو هواء الغرفة الراكد الرطب، الذي كان لم يزل معبّأً بنتن رائحة الولادة. كانت غصون السقف مبقّعةً بالماء، وطلاء الجير مقشورًا، والعناكب بَنَت لأنفسها بيوتًا دائمة. كان مصباح صغير أحمر يشعُّ ضوءًا واهنًا، وكانت ثياب مكوَّمة في ركن من الحشيّة وفي سلّة، وحقيبة ماما المدرسية القديمة ملقاة أعلى الخزانة، وأحذيتها التي لا تستعملها محشورة أسفل السرير، ورأى مارجيو أنّ الظروف جميعًا تآمرت على خنق تلك الطفلة الصغيرة.

وقف مستأذنًا أن يفتح الشبّاك. وبدا أنّ نوريني وماما توافقانه على ذلك، فترك مارجيو النور يدخل من الفناء، والهواء الطازج يندفع إلى الغرفة حاملاً قليلاً من الدفء وعبق النباتات والأزهار والتربة المقلّبة. حطّت بقع من النور على جسم الصغيرة، فنقلتها ماما من مكانها خشية أن تزعجها الحرارة. ولكنّ الصغيرة بقيت نصف نائمة، كأنّها غافلة عن الكون البديع الذي أقبل لتحيّتها.

كرّرت نوريني قولها: "الظاهر أنّها سوف تموت". وأزاح حزن المرأة ذكرى السعادة التي عرفتها بسبب هذه الطفلة. كانت قد توقّفت عن غناء التهويدات، ولم تعد يداها تمسّدان شعرات البنت القليلة، بل تنظر إليها في حزن، مدركةً ربّما أن موتها مكتوب، ومبصرة روح

الصغيرة وهي ترحل بالفعل عن جسمها. لم يحتمل مارجيو أن يرى الصغيرة وأمّه؛ فترك الغرفة وترك الموت وترك الهزيمة القاسية لأمّه اليائسة.

لم يرجع قومار بن سابووِب إلى البيت في ذلك اليوم، وكان مارجيو يفكر جديًا في ذبحه. كان واضحًا أنّه لم يذهب إلى العمل، فقد كانت عدّة الحلاقة لم تزل في غرفته. ولكنّ درّاجته وديكه الأصيل المحبَّب لم يكونا في البيت. وكان مارجيو يعلم أنّ أباه ذهب في اليوم السابق إلى حلبة مصارعة الديكة في خرائب محطّة السكّة الحديدية ولا يعلم إلا الله أين قضى ليلته.

لم تكن المحطّة بعيدة عن البيت رقم ١٣١، فإنْ هي إلا مئات قليلة من الأمتار من الجهة الخلفيَّة. كان مارجيو في طريقه إلى هناك، وقد غاصت يداه في جيبيه. مرَّ بصفٍّ من البيوت، فكان يومئ محيّيًا إن صادف صديقًا، وسلك طريقًا مختصرًا عبر مصنع الطوب إلى أن وصل إلى القضبان. لردح طويل من الزمن لم تُستعمل تلك المحطّة، حتّى بليت عوارضها الخشبية، وصدأت قضبانها الحديدية، وغرق جزء منها في بحر بارتفاع الركبتين من الحشيش. كان من البيوت القريبة ما ينشر أهله الحشايا على القضبان، وبعضهم كان يضع الحطب عليها ليجفّ في الشمس، ومنهم من كان يفرد القماش الثقيل بما عليه من حصاد حبوب الأرز غير المقشورة لكي تغسلها الشمس. وكان الرعاة يأتون بماشيتهم لترعى على العشب البريّ هناك، فلم يحدث أن قضت على العشب الذي كان نموُّه أسرع من استهلاك الحيوانات له.

تذكَّر مارجيو حينما كانت السكة الحديدية لا تزال تعمل، قديمًا في أولى أيام سكناهم هذه القرية. كانت نهاية طريقها، حيث تصل القطارات إلى محطتها الأخيرة على بعد بضعة أميال جهة الغرب. كانت السكك الحديدية تستعمل قطارًا واحدًا بروح ويجيء؛ ولذلك كان بوسعه أن يتوقَّف متى شاء غير متخوِّف من احتمال وقوع صدام. فكانت النكات تُحكَى عن راكب يصرُّ دائمًا على أن يُنزله القطار عند بيته لا في المحطَّة، وعن آخر يشير للقطار فيتوقَّف له حتَّى يركب، وعن السائق الذي كان يضطرُّ في بعض الأحيان إلى إيقاف القطار لوجود حطب يعترض طريقه، أو بقر رأى أن ينام على القضبان، فلزم إبعاده قبل استئناف الرحلة. تلك نكات كانت حقيقية تمامًا ويعلمها أهل القرية. ثمَّ حدث في أحد الأيَّام أن توقَّف القطار عن المجيء، بدون إشعار مسبق أو تفسير لتوقُّفه، تمامًا كما تنفصل فتاة عن صاحبها بلا تفسير.

كان رئيس المحطة لم يزل حاضرًا، وإن لم يعلم أحد إن كان قد تقاعد أم لم يزل ينتظر رجوع شبح القطار. كان يقيم بجوار مبنى المحطَّة الخرب، ولم يزل الناس يشيرون إليه بوصفه ناظر المحطَّة. لم يكن المبنى نفسه أكثر من هيكل عظمي، بعدما فقد قطعةً قطعةً كلَّ معداته ما عدا الجرس العتيق ولافتة المحطَّة. صار مكتب التذاكر مأوى لحشيَّة مجدولة تستعملها عاهرات عديدات، والرصيف يغصُّ بأعشاش حمام وأقفاص دجاج، وكذلك كان بلاط حلبة مصارعة الديكة وسباقات الحمام. ففي كلِّ عصر مشمس، تُرى صفوف من الطيور تطير بسرعة لم يقترب منها

القطار مطلقًا. وفي مكان آخر تتناقر الديكة مختبرةً مخالبها في بعضها بعضًا.

حينما وصل مارجيو، كان الوقت لم يزل مبكّرًا على الصخب المعهود. فلم يجد ثمّة غير أمّ متشرّدة وابنها جالسَين على قطعة من الورق المقوّى، وكلب ينقّب في القمامة.

لم يكن في المحطّة مَن يسأله عن مكان قومار. في غضب، وقف مارجيو مستندًا إلى عارضة إحدى بوّابات المحطّة. فكّر أن الوغد يجب أن يكون هنا، ومضى يتفحّص روث الدجاج والحمام كمَن يبحث في الرصيف عن آثار ديك قومار الأصيل. كان الناس يسيرون على طريق يقطع السكّة الحديديّة، دافعين درّاجاتهم، حاملين الموز الأخضر الداكن والأجولة المليئة بما لا يعلم إلا الله، وقد بدا أنهم قاصدون السوق. والنساء ممسكات سلالهنّ وهنّ راجعات من التسوُّق. ركل حصوات قبل أن يرحل، سائرًا على القضيب، محاولاً أن يحافظ على توازنه.

عندما توقّف القطار عن المرور، توقّف عن التسكّع هنا. وقديمًا كان يفتنه الدخان الداكن المتماوج صاعدًا من مدخنة جرّار القطار، فكان يُنفق ساعات كاملة من العصر وهو يشاهده، وحينما كان القطار يستدير في فناء التحويلة، كان ينضمّ إلى غيره من الصغار المبتهجين، فيركبونه ويتدلّون منه غير خائفين من الجرّار وهو يدور. وفي أوقات أخرى كان يسمع صوت القطار من بعيد فيضع مسمارًا طويلاً بعرض القضيب كي تسوّيه عجلات القطار المخيفة، وبتلك الطريقة ينال نصلَ

سكّينٍ صغيرًا، لا يلزمه إلا صقل ذؤابته قليلاً ليصير حادًّا بحقّ. وكان بعض الكبار يرونه حين يفعل ذلك فيحاولون إفزاعه قائلين إنّه قد يتسبب في خروج القطار عن المسار. ولم يكن مارجيو يصدّقهم، فكان يمضي على ما اعتاد عليه؛ إذ حدث ذات يوم أن صدم القطار بقرة بدينة، فلم ينحرف عن مساره، بل لقد شطرها هي إلى نصفين.

في هذه الأيام صار قومار حاكم المحطّة بعصابة أصدقائه المقامرين. فمع ازدياد جنون نوريني، وظهور دغل الزهور، وزوال رغبة زوجته في مشاركته السرير، لاذ قومار بذلك المكان. كان في عصر كلّ يوم بعد رجوعه من كشكه، واندفاعه بدرّاجته في أكمة ورد، يحمل ديكه الأصيل إلى الحلبة. وتحت مصباح زئبقيّ متوهّج من أيام عزّ المحطّة، يظلّ يتسكّع حتى وقت متأخّر من الليل، مشاهدًا المباريات، مطعمًا الديك، أو محمّمًا إيّاه بما يسمّيه التركيبة العشبية.

لم يكن أحد في البيت مهتمًّا بشأنه هذا، لكن لمّا كان ولع قومار بالديك قد جعله أقلّ عنفًا في البيت، لم يكن أحد منهم ليشكو من اهتمامه ذلك. كان واضحًا أنّ غريزته الحيوانية باتت تتجه نحو مصارعة الديكة، فعرف أهل البيت ١٣١ شيئًا من السلام من جرّاء ذلك، إلى أن جاء اليوم الذي علم فيه قومار بحمل زوجته فجُنّ جنونه. بعد ذلك، صار يقضي مزيدًا من الوقت في المحطّة. وقال أحدهم إنّه رأى قومار ينام هناك، ربّما مع عاهرة في مكتب التذاكر، فما كان لمارجيو إلا أن يكون أقلّ اهتمامًا؛ فكلّما طال ابتعاد قومار عن البيت، كان ذلك أفضل، بعد كلّ ما عانته نوريني على يديه.

لم يكن من أثر له هناك، برغم أنه غادر البيت ومع ديكه الأصيل. لعلَّه تشاجر مع شخص، ولعلَّ ذلك الشخص نحر عنقه، وقطَّع جسمه، ووضعه في جوال مع بعض الحجارة قبل أن يرميه في النهر. ويغور قومار إلى الأبد، فكرة سَرَتْ نشوتها في جسم مارجيو وهو يسير متوزانًا على قضيب القطار، قبل أن يعبر مصنع الطوب راجعًا إلى البيت.

عثر في المنزل رقم ١٣١ على الديك القويِّ الضخم في الفناء الأمامي، وقد وُضعت على قفصه صخرة لتثبِّته في مواجهة الريح. والرجل نفسه كان جاثمًا في كرسيٍّ داخل البيت يدخِّن سيجارة قرنفل. أثار ذلك في نفس مارجيو ضيقًا هائلاً، فحاول أن يهزأ به قائلاً: "يا ترى ما السـبب في هذا النور الذي شرَّفتنا به يا سيدي"؟ لكنَّه لمَّا رأى الوجه المتغضِّن المنهك، تسلَّل إلى روحه حزن آخر، وهو ينظر إلى وجه رجل رأى، أو سيرى عمًّا قريب، وفاة طفلة لم تكن ابنته، وإن أنجبتها زوجته.

جلس مارجيو في مواجهته، وبعيدًا عنه، محملقًا فيه بدون أن ينطق بكلمة، قبل أن يلتفت إلى الغرفة التي كانت نوريني تتأمَّل فيها، حزينةً، وجه طفلتها المحتضرة. عاد حينذاك ينظر إلى قومار إذ يعتريه الصدأ في قفصه القديم. الآن اجتمع شمل الأسرة، فكلُّ أفرادها حاضرون وكلُّ شروخها وكلُّ كراهيتها. ولا يمكن أن يكون في ذلك خير. نظر قومار إلى مارجيو نظرة عابرة، عاجزًا عن مواجهة نظرة الولد، ثمَّ عاد إلى استغراقه في سيجارته التي بين إصبعيه. حملق فيه مارجيو فارغ النظرات، بعينين شبه مغمضتين، غير واثق في أي شيء يفكِّر، مركِّزًا

فقط على أنفاسه. لم يكن يتحرَّك في البيت غير مامه. كانت راجعة بدلو الماء إلى المطبخ قبل أن ترجع إلى الغرفة لتجلس على طرف السرير. رفعت نوريني عينيها إلى مارجيو، ونظرت هي الأخرى نظرة خاطفة، قبل أن ترجع لتحملق في الطفلة وقد بدأ يغلبها النوم، فلعلَّه النوم الذي لا صحو لها بعده.

كانت لا تزال حيَّة حينما أشرق اليوم الجديد، وإن قلَّت حركتها عن ذي قبل. كان لبن أمِّها قد جفَّ، ولم تكن تقبل من زجاجة كاسيا إلا لعقة مهما حاولت نوريني أن تدفع السائل في فمها. كان محجرا عينيها قد غارا، وفمها تهدَّل، وانبعثت منه رائحة الموت اندفاع البخار من وعاء أرز ساخن.

كانت الصغيرة تصارع ملاك الموت، وما كان مارجيو ليحضر تلك المباراة. لم يدخل ـ ولو مرَّة واحدة ـ الغرفة التي لم تخرج الصغيرة منها، خوفًا من الأمّ على ما قد تفعله الريح في ذلك الجسم الضئيل. اكتفى الأب القاسي بالجلوس في كرسيِّه وتدخين سجائره. وإن ألحَّ بطنه في طلب الطعام، كان يقوم فيأكل وحده في المطبخ، بدون أن يطلب من أحد أو يدعو أحدًا. لم يتحرَّك مارجيو كثيرًا، نام في كرسيِّه وقد نسي أمر أصحابه. كان يشاهد أحداث البيت كمَن يشاهد مسرحية باهتمام بارد بالممثلين إذ يؤدُّون الأدوار الموكولة إليهم.

في التاسعة غادر قومار البيت إلى كشكه، وتبع ذلك شيء من السلام، وإن لم تنتهِ لوعة نوريني على الصغيرة. لم تكن حياة الصغيرة

هي السبب في قلق مارجيو، فلو ماتت تلك الدمية شبه الحية، لموَت أمه يقينًا إلى مزيد من الجنون. كان يودُّ لو أنَّ قومار يفعل شيئًا بغضّ النظر عن نَسَب الطفلة- من أجل نوريني، بدلاً من كلّ هذا الذي يفعله من أجل ديكه. لكنْ كان واضحًا للجميع أنَّ قومار سعيد بما يجري للطفلة، ملهوف على موتها.

في اليوم السابع غاب الرجل. كانت بقية الأسرة في غاية البهجة ببقاء الطفلة حيَّة على النزر القليل من قطرات اللبن المعلَّب التي أمكنها لعقها من الزجاجة. بدأ الأمل يداعب نوريني ومامه ومارجيو. كان الأسبوع إنجازًا. ولو أمكن الطفلة أن تعيش إلى هذا الحدّ، فقد تنجز عامًا، وعقدًا، وربما أكثر، برغم أن بنيانها الضعيف لم يقوَ وتنفُّسها لم يكن محسوسًا. لمح مارجيو شبح ابتسامة على وجه نوريني، ووجدت المرأة في نفسها من الشجاعة ما جعلها تخرج بابنتها من الغرفة، ملفوفةً كدأبها بإحكام؛ وقايةً من عناصر الطبيعة.

حينذاك كان على قومار أن يسمّي الصغيرة. لقد وُلدت الطفلة في بيته في نهاية المطاف، فهي ابنته في حدود ما يعلم الجيران. وبدلاً من ذلك، غاب الرجل عن البيت غير تارك خبرًا عن مكانه. عاد مارجيو يبحث عنه، فلم يصادفه النجاح. وهذه المرَّة لم يصطحب معه عدَّة الحلاقة أو الديك. كانت نوريني قد جلست منذ أوَّل الصباح على كرسيٍّ في مقدّمة البيت، تغنّي تهويدة رقيقة وهي تهزُّ البنت في حجرها هزًّا رقيقًا. همست: "عمّا قريب يكون لك اسم". ولكنَّ قومار غائب، وما من بادرة على قرب رجوعه.

مامه هي التي طلبت من مارجيو أن يحلق شعر الطفلة. وبدون أيٍّ من الطقوس المعهودة، وبغير حضور أحد إلا أخته وأمّه، فتح حقيبة عدّة حلاقة أبيه وأتى بمقصٍّ وشفرة. كانت الطفلة لم تزل شبه نائمة في حجر نوريني. رفعت الأم قبّعة الطفلة، وغسل مارجيو شعرها الخفيف. وبإصبعين من إحدى يديه صار يمسك خصلات شعرها فاحم السواد، وباليد الأخرى فتح المقصّ ليبدأ الحلاقة. وضعت على المنضدة قطعة ورق لجمع الشعر، فقيما بعد سوف يَزِنون شعر الصغيرة، ووفقًا للتقاليد، يهبون لفقير مثل وزنه أرزًا. فكان مارجيو ومامه منتبهَين أشدَّ الانتباه لكي لا تفلت منهما ولو شعرة واحدة.

انتهى الطقس في عشر دقائق، ولمعت عينا نوريني بالسعادة. ألبستها القلنسوة المغزولة مرّة أخرى على رأسها الحليق ليقيها الهواء الخطر. اقترح مارجيو أن تسمّي أمُّه الصغيرة، فاختارت ماريان. قفز الاسم في عقلها وحسب. كان يمكن أن يكون اسم شخصية في أحد مسلسلات الإذاعة التي كانت تستمع إليها نوريني عصر كلّ يوم إذ يُخرج أقرب جيرانهم المذياع فيضعه على كرسيٍّ في الفناء الأمامي ويجثم الناس حوله يستمعون. أو لعلّه كان يحمل ذكرى فتاة عرفتها في شبابها. لم يسألها مارجيو أو مامه. كان منح البنت اسمًا كافيًا تمامًا.

ماتت في وقت لاحق من ذلك اليوم نفسه، قبل أن ينتهوا من أكل ديك المصارعة الثمين الذي نحره مارجيو في تشفٍّ. مضت البنت بلا صوت، تلاشت في هدوء، وقد انسحب غسق حياتها مفسحًا المجال للعتمة الدائمة. سارت نوريني إلى دغلها الزهري، باذلة أقصى ما في

وسعها لكي تحافظ على اتزان جسدها. مضت تقطف الزهور وهي تغنّي أغنيات حزينة، بينما يفيض الدمع من عينيها.

ما لم تكن تعرفه مهراني هو أنّ أسرة مارجيو كان لديها جرح غائر، وأنّ موت البنت احتكّ بكلّ جانب منه. في ليلة عرض الفيلم، كان مارجيو يتعذّب، لا يدري أيقول لها مَن والد الطفلة الحقيقي أم يصمت، أيقول لها إنّه من المستحيل أن يكونا حبيبين. كان يريد أن يفقأ الدمّل، ويبيّن لها هول الحقيقة، فيمنعه إعجابه بها، وما رآه على وجهها من حبّ عارم وهما يتعانقان في ركن ملعب كرة القدم. كانا هنالك يتبادلان القبلات، بينما الحقيقة تجمّد مارجيو حتى نخاعه.

كانت الفتاة تستشعر عدم ارتياحه، وتُرجع ذلك إلى التوتّر وعدم الخبرة. ولمّا كانت تمسّه في شغف؛ عسى أن تنتشله من استغراقه في نفسه، كان ينظر إليها فقط بعينين معذّبتين، يُضنيهما يقينه بأنّ فقدانه إيّاها قدَر محتوم، وسؤاله نفسه إن كان بوسعه أن يُنهي كلّ شيء.

لم يكن بوسعه أن يحكي لها ما رآه بعينيه في يوم محدّد، ولم يكن قد مرّ بعد وقت طويل على اكتشاف قومار بن سابوبِ حمل نوريني وضربه إيّاها إلى أن شارفت على الموت. في ذلك اليوم، بمجرّد أن خرج زوجها، انطلقت هي في غاية السرعة. أخذت تغنّي وهي تتجمّل، في مزاج رائق بدا لمارجيو غير قابل للتفسير، بل مناقضًا لكلّ شيء. كانت الكدمات تملأ جسمها، لكنّها كانت كمَن لا تشعر بها، فذُهل من قدرة أمّه على الاحتمال. بدت نوريني منتعشة، كمَن نعمت بالدلال لا

بالانتهاك. ارتدت فستانًا بلون الجسم، وسارعت إلى مغادرة البيت برغم بطنها المنتفخ. وتبعها مارجيو متخفّيًا، ولمّا وصلت إلى بيت أنور السادات، تخفّى مارجيو ليستمرَّ في المراقبة. وكان في ذلك الوقت قد بدأ يشكُّ في أنور السادات المشهور بفسقه ووقاحة عينيه، وبالفعل قضت نوريني في بيته من الوقت مثل ما قضت في بيتها. كان مارجيو يريد دليلاً، وإن لم يَدْرِ ماذا هو فاعل به إن حصل عليه.

مجرجرًا ساقيه، تسلّل مقتربًا من البيت الذي يألفه. دخل من الباب الجانبي بدون أن يطرقه، مثلما فعل من قبل مرّات كثيرة على مدار سنين. وجد نفسه في السقيفة الوسطى حيث يُنشر الغسيل. كانت أمُّه في العادة تأتي إلى البئر في ذلك المكان لتغسل الثياب أو لتجهيز الغداء. كان البيت هادئًا لا علامة فيه على الحياة. سار مارجيو بدون أن يُصدر صوتًا، وقد ثبتت عيناه على لوحة معلّقة على الجدار. كانت مايسا ديوي في غرفتها مع ابنها الصغير، والباب مواربًا. مضى إلى المطبخ، لكنّه لم يجد أحدًا هناك. استدار واقفًا أمام باب غرفة نوم أنور السادات. أراد أن يفتحه لكنّه لم يستطع. ورأى أن يذهب.

في جانب البيت الغربي، كان ثمّة حوض مرتفع باتساع قرابة ستة أقدام مربعة، يحيط به سور بارتفاع الخصر، يزرعون فيه البرتقال والموز، أسفل شبابيك البيت الواسعة الكثيرة. كان الفناء محرّمًا على الأغراب، إلا مارجيو، الذي كثيرًا ما كان يذهب إلى هناك لتقليم شجر الموز من أوراقه الذابلة. من خلال شباك غرفة النوم الأمامية، رأى الغرفة خاوية، لم تكن ليلى فيها. ومثلما لاحظ من قبل، كانت مايسا

ديوي مستلقية تحت بطانية برغم أن ضوء الشمس كان يفيض على غرفتها. ثالث الشبابيك، وهو شبَّاك غرفة مهراني، كان مغلقًا دائمًا، لا يُفتح إلا حين ترجع الفتاة في إجازة. تمهَّل مارجيو قرب الغرفة التالية.

سمع منها أنَّات خافتة، ولم يخالجه شكٌّ في أنَّ أنور السادات وأمَّه كانا يمارسان الحب. دفعه الفضول -أو ربما السفالة- إلى أن يقترب، وإن كان يعرف الحقيقة بالفعل. عبر زجاج الشباك المتواري وراء ستارة قرمزية، رأى أمَّه العارية تحت أنور السادات. وفي غفلة منهما عن المتلصِّص المستمتع، كان جسماهما يتأرجحان، متلاصقَين لا ينفصلان. أراد مارجيو أن يرى التعبير المرتسم على وجه أمِّه في تلك اللحظة، أن يشهد ظلال البريق على وجهها المتعرِّق، الذي انزاحت عنه آثار عشرين عامًا من الانتهاك أمام الوجه الجديد. فرح وهو يرى أمَّه غارقة في ممارسة الحب. وبقي شاخصًا إلى الجسدين المتضافرين، إذ يذوبان في جسد واحد، قبل أن يدفعه الأدب أخيرًا إلى الابتعاد عن المكان راجعًا إلى البيت. كان بحاجة إلى الجلوس لتصفية ذهنه. وفي طريق عودته، ألمَّ به صداع أقسى من الذي كان يعتريه في الصباحات التالية لليالي السكر، وانتابته رغبة في البكاء.

في عصر ذلك اليوم في كوخ الحراسة، مضى يشرب كلَّ ما يقع تحت يديه، فكان ذلك في الغالب زجاجات بيرة مخلوطة بالعرق جيء بها من كشك آجوس سفيان. مستلقيًا هناك يتقيًّأ ويسعل، أخذ يهذي بكلام عن امرأة لعينة وذئب شره إلى الدم. لم يفهم أصحابه من كلامه شيئًا، ولا أمكنهم أن يتابعوه. فمضى يهذي: "من أجل تلك الابتسامة،

أغفر لكِ أن تنامي مع أيِّ وغد". أوشك الجنون أن يستولي عليه وهو يفكّر في فوضى عائلته، إلى أن حدث في لحظة إشراق غريبة أن أخذ صفَّ أمّه. لم يستطع أن يُنكر عليها الحقَّ في ذلك النزر الضئيل من السعادة.

بعد وفاة ماريان، وافتراس الحزن أمّه، بدأ مارجيو يتوق إلى رأس أبيه. وأخيرًا ظهر الرجل، مجلّلاً بالنصر، ولم يمضِ بعد وقت طويل على الدفن. ولكن مارجيو لم يجد الشجاعة لأن يتناول الساطور وينحر به رأس أبيه. كانت صورة نوريني وأنور السادات العاريين تمنعه، وتُشعره بالشفقة على أبيه، برغم كبريائه المقيت. ولكن الرغبة في إنهاء حياة قومار لم تكن تزول، بل لقد كانت محتدمة في صباح اليوم الذي التقى فيه بنمرته. كان يشعر بتلك الرغبة تغلي في نفسه، محفِّزة ذلك الوحش، الراغب في الوثوب على رقبة قومار بن سايبوبِ.

أحكم عليه الغضب قبضته حينما واجه مهراني التي رجعت في اليوم التالي لوفاة قومار. كان مارجيو على وشك أن يحتفل بنَيْل أسرته حريّتها، وتطلُّعها إلى حياة عظيمة خالية من وحشيَّة أبيه. ولكنّه صادف مهراني في تلك الليلة واعترفت له بحبّها. كان عليه أن يخبرها بكلّ شيء، وينهي أيَّ فكرة لديها عن استمرار كليهما معًا. وكلّما أرجأ ذلك، شقَّ عليه أن يصدق معها.

بدأ عرض البكرة الثانية، وكان معنى ذلك أنَّ عليهما أن يجلسا متعانقَين، متبادلَين القبلات الوجلة، لقرابة ساعة. كان شرود عقل

مارجيو ذلك يشتّت مهراني. أوقفت آخر محاولة منها لتقبيله ونظرت إليه نظرة اتهام، مطالبةً إيّاه دونما كلام بتقديم تفسير. ممتلئًا بالإحساس بالذنب والعار، لفّ ماريجو ذراعيه حول نفسه، متأهّبًا لتلقّي العقاب عن جريمة لم يقترفها.

قالت له وقد بدأ كتفاها يرتجفان: "أخبرني، ألا تحبُّني"؟. سامعًا نشيجها، واجهها مارجيو، وأمسك يديها، فأزاحت يديه. مدّ مارجيو يديه إلى كتفها، فتراجعت عنه. لم يكن دلالاً وإنّما أسى. ولم يلُح لمارجيو مخرج يسير.

قال: "هناك أمر أنتِ لا تعرفينه". وفي هذه المرّة كان صوته واضحًا، ومصمّمًا. واصلت مهراني بكاءها. لم يُثِر قوله المقتضب اهتمامها. فمهما يكن ما قاله، فإنه مُفضٍ إلى النتيجة نفسها، وهي أنّ علاقتهما وقت مهدر، وأنّ ما يتبادلانه من قبلات وحنان لا يعني أيَّ شيء، وأنّ مشاعرها لا تمسُّه، أنّه لا يريدها، وحسب.

قال: "مستحيل أن يحبّ أحدنا الآخر".

"لماذا"؟

نظرت إلى عينيه، محمرّة الأنف، مبتلّة الخدّين، وقد التصق بوجنتيها بعض شعرها. كان ينظر إليها فيشعر أنّه يتقلّص من داخله، نادمًا على كلّ ما كان يجري، متمنّيًا لو أنّ أمّه لم تفعل كلّ ما فعلت فيكون بوسعه أن يعانقها ويقبّلها. ولكنّ مهراني كانت تحملق فيه، وتطالبه بإجابة. ولم يكن له أن يتراجع عمّا بدأه.

زفر مارجيو، وما قاله إثر ذلك تدافع على لسانه:

"أبوك نام مع أمّي، وولدت طفلة صغيرة اسمها ماريان. ماتت في اليوم السابع لها من الحياة؛ لأنّ أبي عرف وضرب أمّي بمنتهى القسوة فولدت ماريان قبل أوانها".

كان ذلك كافيًا لإنهاء نشيج الفتاة. وبدلاً من النشيج، فغرت فمها وهي تسمع كلماته التي عجزت أوّل الأمر عن استيعابها. كلٌّ ما كانت تعرفه هو أنّ مارجيو نطق بحقيقة صادقة صدق آية في القرآن علّمها لها الشيخ جاهرو أو تلاها فتردّدت أصداؤها في القرية في ظهر يوم جمعة عبر مكبّر صوت المسجد.

نهضت مهراني، وهي تنظر إلى مارجيو مثلما قد تنظر إلى كاذب. همهمت تريد أن تقول أيّ شيء، ثمّ استسلمت وعضّت على شفتها. بادلها مارجيو نظرتها، مصدِّقًا بِصَمْته على حقيقة ما قاله. لم يكُنْ عليه أن يصف الشبّاك الذي رأى منه العاشقَين وكلٌّ منهما يلهب الآخر. من هدوء نظرته وثباتها عرفت مهراني صدق كلماته، فسارت مبتعدة عنه. عبرت الشارع بدون أن تبالي بالنظر والتحسُّب لكي لا تصدمها السيارات فتركها حطامًا، بينما يخفق بنطالها الجينز الفضفاض وهي تتقدّم في طريقها. سارت إلى البيت وهي تمسح عينين لا تستطيع إيقافهما عن البكاء. تلك هي الليلة التي حيّرت الفتاة فيها أنور السادات بسلوكها الغريب؛ إذ أوصدت على نفسها غرفتها حتّى جاء الصباح، فتركت البيت.

رجع مارجيو إلى البيت قبل أن ينتهي الفيلم، شاعرًا بالارتياح، برغم أنَّ ألم فقدانه الفتاة كان ثقيل الوطأة. جلس في السقيفة الأمامية، ناظرًا إلى دغل أمِّه الزهري، وأقسم أن تنتهي كلُّ شقاوات حياته. لقد انفطر قلبان، لكنْ ما كان للأمر أن يجري على غير ذلك. كان لا يزال في مكانه حينما بلغ الليل أحلك لحظاته، وغسل مطر خفيف الأرض. مرَّ به نسيم طازج مطمئن، حاملاً عبق التراب البليل. فتحت مامه الباب وطلبت منه أن يدخل، لكن مارجيو بقي حيثما هو، يدور في دوَّامة تكهُّناته وتأمُّلاته.

اشتدَّ هطول المطر، وفاض الماء عن المزاريب. تمنَّى لو تستنزف السماء نفسها، ويأتي اليوم التالي جافًا صالحًا لصيد الخنازير. أعادته ذكرى الصيد إلى الحياة، ورأى بعينَي خياله الأيَّام البديعة المقبلة. فالنَّمرة معه، وأبوه البغيض ذهب إلى غير رجعة، وكذلك مهراني التي كانت قد تحوَّلت إلى عبء. كانت مامه وأمُّه هما كلُّ ما يحتاج إليه في البيت.

قضى الليل كلَّه سهران. ولمَّا طلع الصباح توقَّف المطر، ولكنَّ الريح ظلَّت تهبُّ، وكان في الهواء المضطرب ما أنبأه بأنَّ مهراني رحلت عن القرية. خايلته فكرة رؤيتها ليجد شيئًا من السلام. لم يكن عليها لوم في شيء ممَّا جرى. القدر هو الذي فعل كلَّ شيء. أنبأه عبق عابر أنَّ الفتاة لم تزل تذرف الدمع وهي تُسارع حاملة حقائبها إلى محطَّة الحافلات، رافضةً أن يودِّعها أنور السادات. كان ينبغي أن يكون مارجيو بجانبها، مثلما كان بجانبها وهما يسيران تحت المظلَّة. كان ينبغي أن يحمل عنها حقائبها، ويساعدها في ركوب الحافلة، ويخبرها أنَّه

سيكون موجودًا حينما ترجع، ويلوِّح حينما يدور المحرِّك وتنطلق العجلات على الأسفلت. لكنَّ ذلك كان حلم يقظة، أمَّا في الحياة الحقيقية فكان كلُّ شيء قد ضاع. كلُّ ذلك بقي درسًا ثمينًا بأنَّ الحب يخلق الألم، ويقينًا بأنَّ الأمور لا يمكن أن تجري على خلاف ذلك.

كانت عيناه محمرَّتان احمرار الدم، ولكنَّه لم يجد في نفسه رغبة في النوم. كانت مامه ونوريني قد استيقظتا، فبدأت مامه تُحدِث جلبة في المطبخ، مملكتها التي انفردت بها في السنوات الأخيرة، بينما جلست نوريني في كرسيِّها تشرب قهوة ساخنة محلاَّة أعدَّتها لها ابنتها. بدت ذاوية، أكثر غضونًا ممَّا كانت في أثناء السنوات الحزينة التي عاشتها تحت قومار وقبضته. كانت وفاة ماريان أشدَّ لطمةٍ أُنزلت عليها، فهي أكثر إيلامًا من يد المنفضة القاسية على لحمها. نظر إليها مارجيو ولم يَدْرِ إن كانت وفاة قومار قد حرَّرتهم من أيِّ شيء، وإن كان العناء الذي تسبَّب فيه سوف ينتهي يومًا ما. كان الوجه الحزين الشبيه بقاع نهر يابس تملؤه الشقوق، إجابةً كافيةً وحاسمة.

تناول مارجيو قليلاً من التوفو الذي وجده على المائدة، وخرج من البيت ينشد دفء الشمس الطالعة. كانت مهراني في طريقها ولا شكَّ. رأى أنور السادات عند كشك الفطائر يشكو أمر ابنته مرتديًا قميص متجر الحليّ التحتيّ المكتوب عليه إيه بي سي. تبادلا النظرات، وعرف مارجيو في قرارة نفسه أنَّ هذا الرجل هو الشخص الوحيد القادر على إسعاد أمِّه. لم يتوقَّف مارجيو لدى الكشك، بل سار إلى بيت الرائد سِذْرَه للعب مع كلاب الأياك. راق له اللعب مع

الحيوانات، وتقافزها من حوله، لكنَّ عقله كان يهيم راجعًا إلى نوريني وأنور السادات مهما حاول، فيجد نفسه على الحافَّة.

سار في حواري القرية الضيِّقة، مصادفًا أصدقاء لم يتبادل مع أيٍّ منهم الكثير من الكلام. لم يعد إلى البيت في ذلك اليوم، لم يتناول غير ثمرات جوافة قطفها من الفناء الأمامي لمحلِّ الرهونات، ولم يدخِّن غير سيجارة أخذها من آجونج يودا. كان قد انتوى النوم في كوخ الحراسة، ولكن عينيه أبتا الإغماض؛ فقد أصابته بالأرق أفكار غريبة عن أمِّه.

أراد أن يتكلَّم مع صديقه آجونج يودا، فمنعه الحرج والعار. كان الاثنان قد عبثا قليلاً في ملعب كرة القدم قبل أن يستلقيا على الأرض لمشاهدة الحمام يرفرف في أعماق السماء. ثمَّ اقتاد صديقه إلى كشك آجوس سفيان. وهنالك أيضًا لم يستطع أن يُفضي بما كان يكتمه في صدره، بل مضى يعذِّب نفسه بأفكاره عن مهراني التي يمكن أن تنصت إليه وتكلِّمه بلا حدود.

في نهاية يوم من التسكُّع، وجد نفسه يجنح إلى فناء بيت أنور السادات. لم يكن مسلَّحًا، ولم تكن لديه النيَّة لقتل الرجل، كلُّ ما كان يريده هو أن يتكلَّم. وما منعه عن ذلك لم يكن غير الحرج، وليس الخوف. حينما رأى الباب يُفتح، ووقعت عيناه على أنور السادات، ولم يزل مرتديًا الثياب التي كان يرتديها منذ صباح ذلك اليوم، وقد بدا تمامًا كما تخيَّله، مضى إليه مارجيو. كان عليه أن ينتهز شجاعته ويتكلَّم.

قال: "أعلم أنَّك نمت مع أمِّي، وأنَّ ماريان ابنتك".

علق قوله في الهواء. وامتقع وجه أنور السادات.

"تزوَّج أمي، وسوف تكون سعيدة".

هزَّ أنور السادات رأسه في توتُّر، وجاء ردُّه كسيرًا:

"مستحيل، أنت تعرف أنَّ عندي زوجة وبنات". شيء ما في وجهه قال إن الطلب عبثي، فضلاً عمَّا قاله بعد ذلك.

"ثمَّ إنَّني لا أحبُّ أمَّك".

إذ ذاك خرجت الثَّمرة من مارجيو، بيضاء بياض بجعة.



شكر وعرفان

أودُّ أن أوجِّه الشكر لطارق علي وبندكت آندرسن على كلّ ما قدّماه لي من عون ونصح، وكونهما أوّل قرّاء هذه الترجمة [الإنجليزية].

إيكا كورنياوان

عن المؤلف

وُلد إيكا كورنياوان في تاسيكمالايا بإندونيسيا سنة ١٩٧٥. درس الفلسفة في جامعة جدجاه مدى في يوجياكارتا. نشر عددًا من الروايات، من بينها: "الجمال جرح" و"الرجل النَّمرة"، فضلاً عن القصص القصيرة. نُشرت رواياته في عدد من اللغات، من بينها الإنجليزية.



سبق وأن تعرف قراء العربية على الكاتب الإندونيسي "إيكا كورنياوان" من خلال روايته الملحمية "الجمال جرح"، التي قدمتها "الكتب خان" سنة ٢٠١٨ بترجمة "أحمد شافعي". والتي حظيت بإعجاب القراء والنقاد في كل لغة نقلت إليها، وعدوها ملحمة إندونيسيا الأدبية، ورواية" الرجل النمرة" هي أول رواية إندونيسية تصل إلى القائمة الطويلة لجائزة مان بوكر عام ٢٠١٦.

عبر خمسة فصول اختار "كورنياوان" أن يبني روايته بمزيج بين لغة الحكي ولغة الصورة، محافظًا على إيقاع وتشويق حكاء متمرس، ومستعينا بتراث وأساطير بلده الملهمة، تلبست هذه الرواية روح الحكي كما تلبست الأسطورة أرواح أبطالها. من أين يأتي السحر في هذا العمل؟ من العالم الذي يتعايش فيه الصيادون والفلاحون الفقراء مع النمور والخنازير والسينما والسيرك، كما تتعايش فيه الخرافة مع الحداثة، من قدرة الكاتب في القبض على نبرة تضفر بين الحكي الشعبي وفنيات الرواية الحديثة.

بعمق شخصياتها، واتساع مدى تأويلاتها الفلسفية والاجتماعية والسياسية، وتلك الحكمة التي تنفذ إلى أعماق البواعث والدوافع، وراء أكثر الأفعال ضآلة وتفاهة، وتستخرج منها دلالات ومضامين ذات مغزى، فإن هذه الرواية تدخل في عداد الروايات العظيمة في تاريخ الأدب الآسيوي.

إيكا كورنياوان: ولد بجزيرة جاوا عام ١٩٧٥، درس الفلسفة بجامعة جادجا مدى، صدرت له أربع روايات وخمس مجموعات قصصية وكتاب مقالات، حازت روايته "الجمال جرح"على جائزة"وورلد ريدر" لعام ٢٠١٦، ترجمت أعماله إلى ٣٧ لغة.

أحمد شافعي: كاتب وشاعر ومترجم مصري، مواليد عام ١٩٧٧. من أعماله رواية "الخالق"، "لماذا لا تزرع شجرة"، ومجموعتي "وقصائد أخرى" و "٧٧" الشعريتين. وصدر له العديد من الترجمات عن اللغة الإنجليزية شعراً ونثراً من بينها "الجمال جرح" لإيكا كورنياوان، و "وزارة السعادة القصوى" لأروندهاتي روي و "العالم لا ينتهي" لتشارلز سيميك.




ISBN 978-977-803-104-1
9 789778 031041 >